نحو تربية إسلامية

دكتور
حسن الشرقاوي

١٩٨٣

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢ بالإسكندرية

اهداءات ٢٠٠٢

الشاعر/ عبد العليم القباني

الإسكندرية

"أدبني ربي فأحسن تأديبي"

حديث نبوي شريف

اهــــداء :

فى خضــم هــذه التيـــارات المعاديـــة للاســـلام والمســـلمين ٠٠٠

يركب ثلــــه من العلمـــاءالمجاهدين البحر الجسور لنصرة دين الحق والشريعة السمحاء ٠٠

فـــالى هؤلاء القـــانتين الواثقـــين بنصر اللـــه القريب ٠٠

أهدى هذا الكتـــاب تاكيدا لمنهجهم ، وتأييدا لهم على طريق الحق الذى اتبعوه ٠٠

المؤلف

مقدمـــــة

من الملاحظ أن من يكتب فى الفكر التربوى الاســـــلامى ، لا يتهم كثيرا بالمصطلحات التى يستخدمها فى مناقشاته وآرائــه التربوية،عن أساس مثل سائد،فحواه أنه لا مشاحة فى الاصطلاح، ومعنى ذلك أن أى مصطلح يمكن ان يؤدى المعنى ، يستخدم حتى ولو كان له أبعادا ، أو مضامين ، لا تدخل ضمن الفكر التربوى الاسلامى ، ومثال ذلك مصطلح «الصراع أو الغريزة أو الموضوعية أو العلمانية ، وغير ذلك من المصطلحات التى يمكن ان يقصد بها معانى محددة أو اتجاها فكريا معينا ٠

ومن ناحية أخرى،هناك اختلاف بين علماء التربية فى مفهوم التربية الإسلامية ، فنجد لفيفا من العلماء يركز على أن مفهوم التربية ، انما يقتصر على التعليم فحسب ، أو بمعنى أكثر تحديدا على المنهج الدراسى ، بينما ينظر علماء آخرون الى مفهوم التربية الاسلامية على أنه من الموضوعات العامة التى تهم جموع المسلمين، ومن ثم فهى تعالج موضوع التربية على أساس أنه معالجة للفكر التربوى فى الاسلام ، وعلى هذا ، فالتربية الاسلامية تهتم بالكون والانسان والحياة جميعا ٠

ولاشك أن النظرة الاخيرة تواكب الفطرة السليمة ، وتتمشى مع مفاهيم المسلم وقيمه الدينية ، لان تحديد العملية التربوية فى المنهج الدراسى معناه ، أننا نجعل مجـــــال التربيــــة ٠ المواد الدينية من فقه وتفسير وحديث وعقيدة فحسب ، دون اشتراكها مع العلوم الاخرى المكملة لها ٠

ولا ريب فى أن ذلك معناه ان التربية انما هى تخصص ضيق ، مثل أى علم من العلوم ، ونحن نتصور أن العلماء الذين ينحون هذا المنحى ، وقد تأثروا كثيرا بالفكر الغربى الذى يهتم بالتخصصات الضيقة ٠

واذا كان ذلك مقبولا فى العلوم الطبيعية والتطبيقية والعملية ، فان ذلك يعد مرفوضا من وجهة النظر الاسلامية ٠

ذلك أن هذه النظرة للتربية الاسلامية بعيدة كل البعد عن الفكر التربوى الاسلامى ٠

لذلك فاننا نتفق مع آراء علماء التربية الاسلاميين من المحدثين ، والذين يقررون بأن التربية الاسلامية ، انما هى تلك المفاهيم التى يرتبط بعضها ببعض فى اطار فكرى واحد ، مستندا الى المبادىء والقيم التى أتى بها الاسلام ، والتى ترسم عددا من الاجراءات والطرائق العلمية التى يؤدى تنفيذها الى أن يسلك سالكها سلوكا يتفق وعقيدة الاسلام ٠

ونحن نذهب مع بعض الباحثين فى مجالات التربية الاسلامية، الذين يقررون أن مصطلح التربية يشتمل على مفهومين متداخلين :

الاول : مفهوم عام يتعلق بالتربية ٠

الثانى : مفهوم خاص يتعلق بالتعليم ٠

والمفهوم الاول انما يتعلق بالعملية التربوية ككل ، أى انه يغطى المجتمع المسلم باعتباره ظاهرة مرتبطة بالحياة ، لا تتوقف

فى زمن أو مكان معين ، اذ أن العملية التربوية تدخل فى المؤسسة التعليمية ، كما تدخل فى البيت ، كما تدخل أيضـــا فى المجتمع المسلم على مختلف مستوياته ٠

أما المفهوم الخاص للعملية التربوية ، وهو الذى يقتصر على عملية التعليم ، أو على التعليم الاســـلامى كفرع من فروع الفكر الاسلامى ، الذى على أساسه توضع البرامج التعليميـــة ، وتختار المواد الدراسية ، وتصاغ الاهداف التربوية فى كل مرحلة من مراحل التعليم ، وتبحث فى علاقة الادارة المدرسية بالطالب ، والمنهج والبيئة ، وغير ذلك ، ولا شك أن المفهومين يتداخـــلان بعضهما مع بعض ، ولا يمكن التمييز بينهما بسهولة ، الا أننا نهدف من وراء تضديدهما الى تعريف مصطلحى التربية والتعليم٠ تسهيلا للبحث ٠

وفى هذا المؤلف نحاول أن نستخدم المفهومين معا ، فنحن من جهة نرسم الاهداف والغايات للتربية الاسلامية ، باعتبارها مستمدة من القرآن الكريم والسنة المحمدية ، ونبين القواعد الاساسية فى بناء الانسان الصالح فى الاسلام ، ونبين الى أى حد تختلف نظرة الاسلام التربوية عن الفلسفات ونظريات التربية فى الامم المختلفة ، ونصف سلوك هذا الانسان ، وطريقة تفكيره وخصائصه المميزة ، والتى ينفرد بها دون غيره ، باعتبار أن التربية الاسلامية ، لها هدف أساسى وهو ربط الانسان بربه ، فمنهج التربية الاسلامية منهج ربانى وفطرى ومتوازن وشامل وواقعى وايجابى ٠

ومما لا ريب فيه أن هدف التربية الاسلامية الاســـاسى هو التربية الخلقية ، التى ينبثق عنها سلوك المؤمن ومنهجه وطريقة تفكيره ، فارتباط المسلم بدينه انما يحدد مســـاره فى دنياه ، وما دامت تربيته الخلقية على هذا الاساس النقى التقى الورع ، فان ذلك سيكون نبراسا يضىء حياته المستقبلية ، اذا ما عمل فى أى فرع من فروع العلم والمعارف والصناعات ٠

ولا يمكن ان يقتصر الانسان على تعلم حرفة من الحرف ، دون أن يتعرف على أخلاقيات هذه الحرفة ، ومن ثم يتوجب عليه ان يتربى خلقيا ، مع تعليمه الحرفة التى سيرتزق منها ٠

واذا ما تأملنا فلسفات التربية الغربية الحديثة والمعاصرة ، لوجدنا أن التربية الاسلامية قد سبقتها بقرون عديدة ، فى المناداة بالاساليب التربوية التى تنادى بها الان ٠

ان أهم ما تنادى به التربية الاسلامية ، هو اقتران الدين بالدنيا فى الفكر والسلوك والاخلاق ، ذلك لأن اهمال الجانب الدينى فى العملية التربوية ، انما يعكس ظلمة القلب ، ومن ثم اتباع الهوى وغلبة الشهوات والانانية ، وهو الأمر الذى يقود الانسان الى الضلال المبين ، ولا يمكن أن يتأتى ذلك الا بالفهم الرشيد والاقتناع والايمان ، والبعد عن طرق التلقين المتبعة فى الجامعـــات والمدارس ، والبعد عن الجوانب التى تشتت تفكير الطالب ، ثم التركيز على الجوانب الايجابية فى العقيدة الاسلامية ، والتى يمكن أن تؤثر فى السلوك ، وكعوامل مســـاعدة يجب استخدام وسائل اقناعية ليتعرف الطالب على الحقائق اليقينية ،

ليزداد ايمانا ويقينيا بالمنهج الاسلامى ، كما أنه يجب تكوين عاطفة قوية نحو دينه القيم وشريعته السمحاء ، كى تحبب اليه موضوعات التربية الاسلامية ٠

فالتربية الاسلامية اذن ، هى تلك المفاهيم الاسلامية العظيمة التى تؤدى بالانسان الى عملية التخلية والتحلية ، التخليـــة من الاوصاف المذمومة ، والتحلية بالاوصاف المحمودة ، فهى تثقيف للعقل ، وتقوية للجسم ، وتزكية للنفس ، وتطهير للقلب ، دون أن يكون ذلك تضحية بأى من القوى على حساب قوى أخرى ٠ فهى عملية توازن وتناسب وتناسق وانسجام بين قوى النفس ، وبين قوى النفس وعلاقاتها بالله والكون والحياة والناس جميعا ٠

فالتربية بمعناها العام،انما تدعو الانسان الى أن يرتبط بخالقه ، وتسلك سلوكا يتفق مع عقيدة الاسلام ، وهذا معناه اشتمال التربية على العملية التربوية والتعليمية معا ، سواء فى البيت أو فى المدرسة أو فى المجتمع ٠

وهذا جد مختلف عن نظام التربية مثلا فى المجتمع الشيوعى أو فى المجتمعات الاشتراكية ، اذ توجه وسائل التربية الى فلسفة عن الكون والحياة والانسان ، تجعله يفصل بين العقيدة والتعليم، وكأن التربية انما تتعلق بالنجاح الدنيوى فحسب ، ولا يختلف كثيرا الفكر الليبرالى عن الفكر الاشتراكى فى العملية التربوية، فكلاهما ينحى هذا المنحى ، وهو فصل العملية التربوية بمعناها الواسع أو الضيق (التعليم) ، عن الله والدين ، واقتصار نشاطها على وسائل التثقيف الاجتماعى ، وعلى نظم وضعية وفلســـفات

مادية ، تبتعد كثيرا عن هدف التربية الاسلامية ٠

ان هدف التربية الاسلامية اذن ، انما هو جعل الفكر التربوى فى خدمة الدين ، على أساس تحقيق ذلك على مستوى الفرد والعائلة والمجتمع والامة جميعا ٠

لذلك فنحن نطالب باعادة صياغة المناهج التعليمية ، صياغة اسلامية ، تسمح للطالب أن يطبق مفاهيمه وقيمه وفكره التربوى فى عمله وحياته ، فيصبح بذلك داعية لله ، غايته أى كان عمله ، رفع راية الاسلام ، والخوض عن دينه الحنيف ٠٠

ان كل معرفة للطالب فى مدرسته أو فى أى مؤسسة ثقافية جامعية أو شعبية ، ان كل معرفة له بالانسان والكون والعالم والله ، واستثمارها لخير الانسان وأمنه ، وسعادته فى الدنيا والآخرة ، هى أعظم رسالة يمكن أن يؤديها فى حياته الدنيوية ٠

واذا تعرف الانسان على خالقه وفاطره ، وعمل بأوامره ونهى عما نهى عنه ، فان ذلك الانسان هو الجدير بأن يكون خليفة الله فى أرضه ، والذى هو أفضل الناس ٠

البـــاب الاول

(التربية بين منهج الله والمناهج الوضعية)

الفصل الأول :

١ ـ تفاوت العقل فى تحصيل العلوم ·
٢ ـ حدود العقل الانسانى ·
٣ ـ هادىالعقل ·
٤ ـ المشيئة والأهواء الانسانية ·
٥ ـ العلم والظن ·

الفصل الثانى :

١ ـ التأمل والسلوك العملى ·
٢ ـ فطرة التربية الاسلامية ·
٣ ـ الربوبية والعبودية ·

تؤسس نظريات التربية فى المجتمعات الحديثة والمعاصرة ، على أنظمة وضعية أو مذاهب فلسفية ، أو تجارب اكلينيكية ، أو تطبيقات عملية ، وتعقد المؤتمرات وتعرض الابحاث والدراسات والقواعد التى تحدد النظم التربوية الناجحة ، والتى تكفل فى تصورهم ، ايجاد المجتمع الافضل أو الاصلح ، والذى يمكن أن يخدم أغراض الدول ويعمل على انمائها ، ولا تستهدف هــــذه السياسات تكوين الانسان الصالح من قريب أو بعيد ..

فالمواطن الصالح فى فلسفة التربية البراجماســية (١) (الامريكية) ، هو الشخص الناجح الظافر بكل شىء ... ولذلك فاننا نجد المرأة الامريكية تربى ابنها على حب الغلبة ، اذ عليه أن يسعى جاهدا أن يصرع غيره ، ويتفوق عليـــه ، فى كل فعل وأمر ، وهذا الصراع الانانى يفسد علاقات الاخوة والمحبة ، ويميت فى النفس والايثار والتضحية ... فتضيع فى فلكــه القيم الكبرى ، مكارم الاخلاق كالاحسان والعدل والمســاواة والاخاء .

فمثلا تقول هذه الأم لابنها : هل أنت الاول !! هل أخذت الدرجات النهائية !! هل سبقت أقرانك ! هل حققت نصرا حاسما على الآخرين !! فاذا رد بالايجاب فرحت بــه وهللت بشرا .. وقبلته سعيدة راضية ..

---

(١) مؤسسها وليم جيمس وهى فلسفة تسود المجتمع الامريكى ، وهى فلسفة نفعية تستهدف كل شىء مادى ولا تعترف بفكر أو قيم أو اخلاق ، ما لم تكن تؤدى الى منافع مادية ...

ومن ثم يربى الطفل فى ذلك المجتمع على أساس آن يظفر بأكبر فائدة ممكنة فى جميع المجالات ... وعندما يصبح شابا يكون قد تعود على تلك الافكار المنحرفة،وآصبحت طبعا ملآزما له، وأمسى فى مزاجه الطبيعى التغلب على الغير والظفر والنجاح على الاخرين ، وتطلع الى حب السيطرة والولوع بالعدوان . ومن هذه التطبعات المكتسبة التى تظهر فى سلوك رجل الشارع الاوروبى والامريكى ، قوله لزميله عن شخص يمت لهم بصلة معرفة ، كيف حال مستر باركى !! فيرد الاخر : انه ناجح انه طيب وحسن . انه يمتلك ٢ مليون دولار ..

ثم يسأله عن شخص آخر : كيف حال زميلنـــا القديم فى الدراسة مستر جون ؟ فيرد : انه بائس ... انه فقير ..

ويتضح لنا من هذه المحاورة الصغيرة ، ان تقييم الانسان فى هذا النوع من التربية ، يتم على آساس التفوق المـــادى ، دون الاهتمام بأى معايير أخرى .. فالغنى فى تصورهم هو الطيب الحسن .. والفقير هو السيى البائس .. وبذلك تكون الاحكام جد بعيدة عن الحق والصواب .. اذ ربما يكون الثـــانى الفقير أفضل كثيرا من الناحية الاخلاقية والسلوكية من ذلك الغنى الذى ربما جمع ماله بطرق غير مشروعة ، ويحيا فى رعب دائم خوفا على ماله ، وبالرغم من ذلك كله ينظر اليه على آنه فى سعادة وخير دائم ..

لقد تأثرت التربية فى البلدان الاوروبية بالحضارة المادية ،

وجعلت المادة والنجاح المادى هو الاساس الذى يستهدفه الانسان فى حياته ·

لذلك نجد التكالب على جمع المال والمنافسات غير المشروعة واستثمار الاموال بطريقة ربوية هو هدف الاقتصاد الليبرالى فى الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى برغم الاختلاف بين المعسكرين فى النظرية الاقتصادية ·

ان تعاسة الانسان وشقائه انما يكمن فى آن يكون عبدا للهوى من ناحية ، وللمادة من ناحية أخرى ، فالمـــال فى النظرة الاسلامية هو وسيلة وليس غاية ، ومتى أصبح الانســـان عبدا للمال وصبح المال غاية له فى حد ذاته،انقلبت المعايير والمفاهيم فى عقله ونفسه وقلبه جميعا ، ونسى الانسان روحه وقيمه ودينه وطفق يسعى وراء سراب لا يمسك به ، ويرفض ان يتركه ·

ان ربط الاخلاق بالمعاملات ، وربط المعاملات بالاحكام هو هدف التربية الاسلامية ···

فالمعاملات ان لم تقم بطريقة شرعية فهى محرمة ومستكرهة، فالاساس فى التشريع الاســـلامى التركيز على الاخلاق ، ومن الاخلاق تنبعث كل المعاملات ، فاذا لم يقتدى الانسان بشريعـــة الله وسنة رسوله فلا يعول على كلامه أو ماله ، ونجاحه فى الحياة الدنيا ·

اذ العبرة بأن يكون الانسان تقيا نقيا ورعا ، وليست العبرة

بأن يكسب خصمه أو يتفوق على غيره فى أى مجال من مجالات الحياة ...

فالنجاح والفشل انما هو باذن الله وبمشئته تعالى ، وليس بعلم الانسان أو بماله أو نفوذه ، واذا آراد الله بالانسان خيرا بارك له فى رزقه الحلال .

لذلك فان منهج التربية القرآنية ، يركز على الاهتمـــام بالايثار والاخوة والمساواة ،دون النظر الى المراكز الاجتماعية ، أو الثراء المالى ، أو السلطان .

فكم من رجل غني مبغوض من الله والناس،لشرهه وحرصه واستغلاله للناس والعباد ، وكم من فقير فى المال غنى بعفـــة نفسه وايمانه العميق بالله ، فالقياس بين منهج التربية الاسلامية ومناهج التربية الغربية جد مختلف ذلك لان تلكم المناهج تفصل بين روح الانسان وبدنه ، وبين دنياه وآخرته فتركز على النجاحات المؤقته فى الحياة الدنيا دون الاهتمام بربط ذلك النجـــاح بالاخلاق .

ولذلك نجد الحضارة الغربية متقدمة تمامـــا فى النواحى المادية بعامة والتكنولوجية بخاصة ، الا انهـــا من ناحية أخرى متأخرة تماما فيما يتعلق بتربية النفس والاخلاق .

فالمثلية الجنسية منتشرة فى أوروبا فى الربع الاخير من هذا القرن ، وكذلك السفور والتعرى والشذوذ فى الســـلوك والتصرفات هى سمات هذا العصر .

لذلك أنه يتوجب على المسلمين فى هذا العصر أن يتمسكوا بأخلاقياتهم ودينهم ، وأن يرفضوا محاكاة الغرب وتقليده فى النعرات الزائفة والدعاوى الكاذبة والمزاعم المستكرهه ٠

على المسلمين أن يرجعوا الى الكتاب الكريم والسنة المحمدية ليتزودوا بهما فى رحلة الحياة ، حتى يأمنوا موافقـــة الاهواء وغواية الشيطان ٠

تفاوت العقل فى تحصيل العلوم

ان هناك اختلافا فى تفاوت النـــاس فى العقل ، ولا معنى للاشتغال بنقل الكلام لمن لا يستطيع تحصيله ، وهذا التفاوت فى العلم ممكن أن ينصرف الى عدة أقسام ، الا أن هذا التفـــاوت لا يتطرق بالنسبة للراشد الى العلم الضرورى ، مثل أن يعرف ان الاثنين أكثر من الواحد ، وبذلك يعرف استحالة وجود جسم فى مكانين ، كما يعرف استحالة كون الشىء قديما وحادثا ، فى آن واحد · وهذا معناه أن هناك مسلمات يدركها الانسان ادراكا محققا من غير شك فيها ·

أما الاقسام الاخرى التى يمكن أن يتفاوت فيها الناس مثل :

١ ــ القدرة على قمع الشهوات ومخالفة الاهواء ، وذلك مثل قدرة العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض ، فالشاب قد يعجز عن ترك الزنا ، فاذا كبر وتم عقله قدر عليه ، كذلـــك الامر بالنسبة لشهوة حب الرياسة أو الجاه أو شهوة الريـــاء ، وربما يكون السبب فى ذلك قلة العلم بهذه الشهوة ، مثل الطبيب الذى يمنع نفسه عن بعض الاطعمة المضرة ، ولا يقدر على ذلك من يساويه فى العقل ، ان لم يكن طبيبا،وان كان يعتقد انها مضرة فعلا ، لان الطبيب ما دام علمه اتم ، فان خوفه آشـــد ، فيكون الخوف جندا للعقل وعدة له فى قمع الشهوات ، وبالمثل فان العالم أقدر على ترك المعاصى من الجاهل ، لقوة علمه بضرر المعاصى ، ونقصد بذلك العالم الحق وليس مدعى العلم ··

٢ ـ وهناك قسم آخر يتفاوت فيه عقل الانسان ، وهو مـــا يتعلق بالعلوم العملية والتجريبية ففيه يتفاوت الناس ، فمنهم من هو سريع الادراك ، يصيب فى تجاربه نجاحا ، وربما يكون ذلك راجعا الى تفاوت فى الجبلة واما تفاوتا فى الممارسة ٠

والتفاوت فى الجبلة لاسبيل الى انكاره ، اذ انه مثل نور الشمس يشرق على النفس ، ومايزال الانسان يافعا ، ثم لا يزال ينمـــو ويزدهر على مر الايام الى أن يتكامل فى الاربعين سنة ، وهذا التفاوت يظهر مثل ظهور الشمس درجة درجة ، وليس طفرة انما بالتدريج ، ولولاه لما اختلف الناس فى فهم العلوم ، ولا انقسموا شيعا وأحزابا ، وتباينوا من بليد لا يفهم الا بعد تعب طويل ، والى ذكى يفهم بأدنى رمز واشارة ، والى كامل تشرق فى نفسه حقائق الامور بدون تعليم وحاجة الى معلم (١) ٠

فالناس تنقسم الى من يتنبه بنفسه من نفسه فيفهم ، ومن يفهم الا بتنبيه وتعليم ، ثم صنف ثالث من لا يمنعه التعليم ولا التنبيه ، وذلك لاختلاف النفوس فى التعقل ٠

حدود العقل الانسانى :

العقل الانسانى عاجز فى البداية والنهاية ، عن التعرف على حكم الله البالغة وحججه الدامغة ، ومهما عمل الانسان عقلـــه لادراك كنه الاشياء ، ومعرفة ماهية الافعال وأسباب الابتلاءات

---

(١) الامام الغزالى ـ أحياء علوم الدين ـ الجزء الأول ص ١٤٩ : ١٥٢ طبعة الشعب ٠

والمحن والشدائد ، التى يمر بها كغير من الخلق ، فانه فى كل الاحوال يفشل فشلا ذريعا ، ويسقط أحيانا فى اليأس والقنوط ، ولا يجد طوق النجاة ليصل الى شاطىء الحقيقة بسلام ..

ومن المفكرين والفلاسفة من أجهدوا عقولهم ، وعاشوا جل حياتهم يبحثون ويتأملون ، ليتعرفوا على حقائق الوقائع أو أصول الاشياء ، أو كنه الموضوعات أو العلل والاسباب ، لما حدث ويحدث من أفعال وأعمال ، ولكنهم يعجزون عن ادراك ذلك بالكلية ،وتقف عقولهم صاغرة أمام حكم الله البالغة وحججه الدامغة فى الكون والوجود والحياة ، وكثير من هؤلاء المفكرين والفلاسفة يسلمون بعجزهم ، ويعلنون عن قصور عقولهم ، ثم أنهم يلجأون الى الله يسلمون له الامر ، ويستسلمون لارادته ، ويخشعون لقدرتـــه ويفوضون له الامر والنهى ، فتصبح قلوبهم وعقولهم ونفوسهم جميعا فى قبضة الحق تعالى .. وهؤلاء هم الذين سلموا وغنموا .

أما المفكرون والفلاسفة الذين لما انتهوا الى عجز عقولهم عن تفهم الحقائق الكبرى ، ركبهم الشطط ووافقوا أهواء النفس وغواية الشيطان ، وزعموا ظلما وجهلا أن عقولهم هى امامهم ، وأن منطقهم العقلانى هو المعبر عن كل حقيقة ، وأنه هو الهادى الى سواء السبيل ، ولقد قادتهم عقولهم الجانحة وقلوبهم المظلمة ونفوسهم الظالمة ، الى التحدى للقدرة الالهية والاعتراض على

---

(١) المزيد من الاطلاع ــ كتاب قوت القلوب . أبو طالب المكى ــ الجزء الأول ١٥٧ ــ ١٦٥

الحكمة الربانية ، والى بث الشك والارتباك فى قلوب الخلق والعباد.

وهؤلاء النفر قادوا راية الكفر والالحاد ، وصموا آذانهم عن سماع كلمة الحق والرشـــاد ، وعمت قلوبهم عن اداراك طريق الاستقامة والايمان ، فعاثوا فى الأرض فسادا وافسادا ، وظلموا أنفسهم ، فانتهوا الى الفجور والضلال ..

والتاريخ الانسانى يسطر لنا تلكم المواقف ، ويظهر لنـــا بوضوح عجز العقل الانسانى عن تفهم الحقائـق الكونية المجردة، وقصوره عن ادراك العلل والاسباب للافعال والاعمال ..

كما يبين لنا تاريخ الفكر الانسانى،الذين آمنوا من المفكرين والذين أضلتهم أنفسهم عن توخى سبيل الهداية والرشاد

ولقد نسى الضالون والمضللون ، أن العقل الانسانى موهبة أودعها الله فى الانسان ، لا ليتجبر بها أو ليغتر بقدراتها ، وانما أودع الله فى الانسان موهبة العقل ، وهى جوهرة فريدة ودرة ثمينة ليحسن استعمالها ، فيتأمل بالعقل بديع خلق الله،ويحكم به على فاسد الامور من صالحها بامر الله ، ويتبع به طريق الهداية ويتجنب به طريق الضلالة والغواية ، فيثبت على الحق قولا وفعلا وسلوكا ..

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » « ابراهيم : ٢٧ » ..

أما اذا استعمل العقل فى غير ما يسره الله له ، واعترض على المشيئة الالهية ، وطفق يرفع سيف التحدى والعصيان ، فان ذلك معناه آن هذا العقل يحمل فوق آم رآسه ما لا طاقة له به ، وكأنه ينطح برأسه حائطا صلدا صلبا ، فيسقط حينذاك مغرقا فى دمائه صريعا فاقد الوعى .. قد خلع زينة الله التى زينه بها .

هكذا الامر بالنسبة للعقل الجـــانح ، فلقد تعدى حدوده وجاوز صلاحياته ، ونسى آمر الله وغفل وتغافل عن حكمته تعالى، فاستحق الانتكاس والنكوص،وانتهى به الامر الى الحسرة والضلال المبين ...

ولكى يأمن العقل طريقة ويسترشد بخالقه ، ويهدى الى فاطره ويتعرف على موجده ، فان عليه ان يخلص العلم لله جميعا، وأن يتجه بكليته اليه تعالى ، وأن يبتعد عن الرياء والنفاق والتكبر والتجبر والاغترار ، فيسلم من موافقة الهوى ، ويتجنب غوايــة الشيطان ، وبذلك يقرن العلم بالايمـــان ، والتفكر بالتحيد ، والعلم بالعمل والظاهر بالباطن فلا يضل آبدا ..

المؤمن اذن يعرف حدوده فلا يتعداها ، يعرف أنه عبد وأن الله تعالى هو الرب ، يعرف أنه عاجز فى البداية والنهاية عن ادراك الاسباب ، لانه تعالى خالقها وفاطرها وموجدها .. يعرف أنه ضعيف وأن الله هو القوى على الحقيقة ، يعرف أنه محتاج ون الله تعالى الغنى عن العالمين .

فهناك بون شاسع بين حياة المؤمن وحياة الشاك المرتاب ،

فالمؤمن يحيا حياة آمنه مطمئنة ، والشاك يحيا حياة الخوف والقلق والغم والهم ، وذلك جزاء الجاهلين .

على العقل الانسانى ان أراد النجاة ، أن يفوض الامر لله فيما يتجاوز حدوده وقدراته ، والا انزلق وسقط فى بئر سحيق وبعدها لا تقوم له قائمة أبدا .

هـــــادى العقل

انها تلك القصة التى تكرر عبر الزمان والمكان ، ورغم أن نهايتها مفجعة أبدا ، والعظة فيها عظيمة وكأنها تخاطب الناس كل الناس الا أن الانسان ينسى ويتناسى غالبا ويغفل ويتغافل كثيرا ، وكأنه لم يسمع ،ولم ير ،ولم يفقه ،ولم يعقل .. هذه القصة المتكررة .

عجيب أمر ذلك الانسان فقد وهبه الله العقل تلك الجوهرة الثمينة والدرة الفريدة ومع ذلك لا يستخدمه الا نـــادرا ، وان استخدمه فمن أجل التظاهر بحب الحق ،فاذا كان هو موضوع الحكم ألغى معيار العقل واتبع الهوى .. فما اكثر ما يجادل الانســـان ويثبت أشياء وينفى أشياء ،ويدافع عن الحق والصدق والعدل ، حتى اذا ما أمتحن فيما يقول وطولب أن يطبق ذلك على نفســـه انسحب من الجولة الاولى ، وهرب كما تهرب الجرذان من مصيدة الفئران ، وغير جلده ، وتلون كما تتلون الحرباء بلون الرمال ، وتظاهر بالعلل والاسباب الواهية ،وأمضى حياته بين القيل والقال والتزلف والتذلل والرياء .. وقد ظن انه نجح فى تحقيق اغراضه ، وتوهم أنه كسب دنياه ونسى أنه خسر آخرته ، وغفل عن ضياع نفسه دنيا وآخره .

وهكذا ترى الانسان فى ظاهرة عاقلا حكيما ، ينطق بالعدل ويحرص على اظهار الصدق ، وينصح القريب والبعيد باستخدام طريق الحق ، ثم انه اذا ما مرت به محنة تقوقع حتى تحسبه يائسا واذا ما أبتلى بمصيبة انتهى وكأنه لم يكن حيا .

والعقل لم يهبه الله للانسان ليستخدمه فى موافقة هواه ، ولا لظلم نفسه والدفاع عن رغباته وملذاته ومبتغاه ، ان العقل ميزان للتفريق بين الحق والهوى وبين النور والظلمة وبين الهدى والضلال ٠

فاذا استخدمه الانسان فى غير ما يسره له تعالى ، وطفق يلعب به ويلهو ، فانه يصبح نقمة على صاحبه لانـــه رمى بالجوهـــرة الفريدة فى مستنقع الاوحال ٠٠

ولان العقل يمكن ان يخطىء ويصيب ، فيكون صاحبه أحمقا حينا وحكما حينا ، فان الله تعالى وهو العالم بخلقـــه اذ هو فاطرهم وخالقهم وموجدهم ٠٠ قد وهب الانسان لطيفة أخرى ، بالاضافة الى العقل تستشار فى الملمات ويرجع اليهـــا فى الامور المغيبة ، وتفتى فيما لا يستطيع العقل ادراكه أو تصوره أو حتى تخيله ٠٠ وتلك اللطيفة هى القلب ، ومتى كان القلب سليما فهو لا يكذب ولا يظلم ولا يضر بالآخرين ٠٠ وانما تكون أحكامـــه تشملها الرحمة وتغدو مشاعر صاحبه يملؤها التســامح والتلطف والصفح الجميل ٠٠

واذا ما توازن العقل مع القلب ، وتصادقا فى تناسق وتناسب وانسجام ، اعتدل أمر النفس وسلكت طريق الاستقامة ، وابتعدت عن الكذب والرياء والغواية ، وبدى الانسان حكيما والحكمة هى أكمل الخيرات فى الانسان ٠

« يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » (البقرة : ٢٩) ٠

والحكمة هنا توازن بين العلم والعمل ، بين العقل والقلب ، بين الاحساس والسلوك بين الفهم الرشيد والعمل الصالح ، ولا يمكن القول أن قوة العقل فى الانسان كافية لسلوك الطريق المستقيم ، فلو كان الامر كذلك ، ما كان هناك من داع أن يرسل الله الرسل الى الناس مبشرين ومنذرين ولكان العقل الانسانى كافيا بنفسه لاقامة الدين واتباع الفطرة السليمة والوصول الى التقرب من الله ٠

لكن العقل وان أدرك أن هناك الها واحدا كاملا عالما قادرا لا شريك له ، الا أن ذلك ليس بكاف للدخول فى حظيرة الايمان ، فها هو « برتراندراسل » الذى يزعم الغربيون أنه أكبر عقل مفكر فى القرن العشرين ، عاش ومات ملحدا ، فقد ضحك منه شيطانه ، وسلب عنه جوهرته الفريدة ، عندما أغواه بالاعتراض ثم الشك ، وانتهى به الى التحدى والشرك العظيم ، لقد وصل راسل عن طريق التفكير والنظر الى قصور العقل البشرى عن فهم المغيبات ، وادراك ماهيات الاشياء وكنه الوقائع ٠ وبالجملة وصل الى أن العقل البشرى وان كان يعرف وقائع الاشياء ، الا انه عاجز فى البداية والنهاية عن التعرف على حقيقة الدين بطريق العقل ، أو بمعنى أكثر دقة ، معرفة حقيقة الألوهية ٠٠

وكان الاجدر براسل أن يسلم قياد نفسه الى الله ليهديه ، وأن يستسلم بعجز عقله عن التعرف على كنه الله ، وبعجزه عن ادراكه فيأخذه تعالى بيده، وينير له الطريق، الا انه قد ركبه الغرور، وقاده الاعتراض الى التحدى فحجب عن الحق ، وأظلمت نفسه عن ادراك

نور الله ، فوقع فريسة للشيطان الرجيم وانتهى به الى الضـــلال المبين ..

العقل اذن ليس بكاف لمعرفة الله ، اذ أنه يصعد ويصـــعد ويرتفع الى أعنان السماء ، ثم اذا به فى لحظة ينزلق فيسقط فى المتشابهات ويختلط عليه الامر فيقع فى براثن الخطايا والضلالال .

فاذا لم يدخل الايمان الى القلب ، خرج الحق من العقل ، ولا يزال الامر كذلك حتى يعود الايمان الى القلب ليقود مسيرة الانسان الى طريق الرشد المبين .

واذا لم يكن الايمان بالله هاديا ومرشدا للعقل ، جنح العقل الى الاسراف والغلو، والتقتير والتقصير، أو الى الافراط والتفريط، اما ركب عجلة الغرور ، وأما امتطى دابة العجب ، وامـــا خمل وتبطل وشح وبخل وجبن عن الجهاد والاجتهاد وضل فى نهايـــة الامر سواء السبيل .

فالدين فى حقيقة الامر هاد للعقل ، واذا رفض العقل هداية الدين فسيظل ابدا حبيسا لخيالاته وارهاصاته الفارغة ، وسيمضى دوما فى حلقة مفرغه يجتر نفسه اجترارا ، ثم يسقط وقد فقد كل شيء ، فقد نفسه وعقله وقلبه جميعا ..

ان القلب السليم هو قلب المؤمن الصادق الذى يعرف حدوده، فلا يجعل عقله يتعدى حدوده ، ولا يظلم نفسه فيتجبر بعقله أو يفتر بجوهرته الفريدة ، أو يعجب بدرته الثمينة، ولايزال يلهو بها ويعبث حتى تضيع منه بين حباب الرمال فى صحراء الحيـــاة ،

المظلمة ، فيضل طريقه في الدنيا والآخرة ••

وهذه القصة مع نهايتها المفجعة والتى تقترن فيها النصيحة بالموعظة ، تتكرر كل يوم وكأن الناس لا يفقهون حديثا ، وكأن قلوبهم ابواب مغلقة على اقفالها ، تسألهم فلا يجيبون، وتعظهم فلا يتفكرون ، وكأن انسان القرن العشرين عقل كل شيء ، فلا يريد من الحق مزيدا وستكون نهاية الكافرين أليمة وستعاد قصة عاد وثمود وآل لوط ويدمروا تدميرا • •وهكذا تنتهى كل حضارة باغية اغترت بعقلها وكذبت أمر الله الى هذه النهاية الأليمـــة فدمرها ربك تدميرا ••

بســـم اللـــه الرحمن الرحيم

المشيئة الالهية والاهواء الانسانية

يبدو لغير المؤمن بالله تعالى ، ان أمور هذا الكون يمكن أن تسير وفق هواه ، مادام حاصلا على العلل والمعلولات ، ممســـكا بالاسباب والمســـببات ، ويعلن بعض الملحدين والذين فى قلوبهم مرض فى تبجح وقحة ، انهم يستطيعون علميا وعمليـــا احداث ظاهرة معينة ، كان يقال عنها فيما مضى انها من بديع خلق الله ..

ويتطاول هؤلاء المغرضون على قدرة الله،ويؤكدون أن بامكانهم الوصول الى نتائج محددة ، اذ اجتمعت لديهم الادوات اللآزمة ، والشروط الضرورية التى تحقق مايستهدفونه من ابحاث ودراسات فى الكون والطبيعة ..

لقد غلا هؤلاء فى ظنونهم ، واغتتروا بزيف منطقهم ، وجنحوا عن الحق بطيش عقولهم ، وملكهم العجب بنفوسهم الامارة،فتباهوا بخبراتهم المادية ، وعلومهم الطبيعية ودراساتهم العملية ، فزعموا أنهم يعملون لكل شيء حسابه ، وأنهم قادرون على الدنيا وما فيها ، حتى زعموا آخر الامر أن بمقدورهم أن يخلقوا من العدم حياة وأن يبعثوا الى الحياة جديدا ..

لقد صادف هؤلاء بعض النجاحات فيما يتعلق بالمـــــادة ومستحدثاتها،اذ أن المادة من المسخرات للانسان وقد تساوى المؤمن والكافر فى الوصول الى نتائج محددة عند البحث فيها ، ويؤكد ما نقول ماورد عن الله تعالى :

« الم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض » .
(لقمان : ٢٠) .

الا أن هؤلاء لم يقتصروا على هداية الله لهم المسخرات ، بل طمعوا فيما هو من اختصاص الخالق تعالى وحده ، فطفقوا يطبقون مناهجهم المادية ، وتطبيقاتهم العملية فى مجالات العلوم التجريبية ، يطبقونها فى مجالات العلوم الحياتية كالاخـــلاق وعلم النفس والتربية ، ويشرعون من عند انفسهم قوانين ونظما وقواعد ليست من الحق فى شيء .

ورغم أنهم فشلوا فشلا ذريعا فى الوصول الى ما يستهدفونه من غايات ، ولم تحقق أى من النتائج التى أكدوا تحققها ، ولم يصادفوا نجاحا فى وضع تشريعات أو نظم حياتية تحقق للانسان أمنه وسعادته .. رغم ذلك كله فانهم ما يزالون فى غيهم يعمهون ، وفى ضلالهم يتخبطون مازالوا يفترون على الحقيقة ويدعون أن سبب عدم تحقق نظرياتهم يرجع الى ظروف مادية بحته، ويختلقون المعاذير الواهية ، والاسانيد الملفقة .. فيزعمون مثلا أن هنـــاك خطأ قد حدث فى تطبيق النظرية التى ألفوها ، أو أن هناك تقصيرا فى فهم الناس لها ، أو أن اهمالا قد اكتشف من قبل المجموعـــة المشرفة على العمل أو البحث، وبالجملة يخترعون أسبابا ومسببات، يعتبرونها العوامل الرئيسية فى فشل تجاربهم ودراساتهم التى أكدوا على حدوثها وتنبأوا بتحققها فى المستقبل القريب .

وخير مثال لتلك التنبؤات الفاشلة ، ما يخطط لـــه الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى من مخططات فى المجالات الاجتماعية

والسياسية والاقتصادية،ويضع البرامج ويحدد الزمن التى تتحقق فيه ، كما حدث لروسيا فى الخطة الزراعية فى الخمسينات ، (١) فبالرغم من الخطط العلمانية ، والبرمجة ، والتنبؤ بالوصول الى انتاج معين فى خلال مدة محددة ، فقد اتضح من الاحصائيات أن غلة ٩٤٪ كانت ٥٥٪ من اجمالى المحصول ، أما غلة ٦٪ فكانت ٤٥٪ من اجمالى المحصول ، ومعنى ذلك أن ٦٪ ينتجون نصف المحصول وهم يمثلون القطاع الخاص الذى لا يستخدم التخطيط العلمى ولا البرمجة العلمية ..

ورغم هذا الفشل الذريع فما زال الروس متمسكين بشعارهم الماركسى المزيف ، (٢) وبتصلبهم العقائدى بالنظرية المادية الجدلية .. حتى يمكن القول أنهم لا ينظرون لابعد من أنوفهم ، وانهم لو فعلوا لرأوا الحقيقة ناصعة كالشمس المضيئة ..

ان هناك عللا بعيدة لا يمكنهم رؤيتها بعين واحدة،وهى العين المادية العوراء وان هناك أسبابا خفية على عقولهم القاصرة لا يتحصلون عليها الا بالايمان بالله تعالى ، (٣) وانهم مهما فعلوا واعملوا فكرهم ، واجهدوا انفسهم،واستعانوا بالاجهزة المستحدثه والميكنة والبرمجة والخبرات العملية والعملية ... فانهم مع ذلك لن يصلوا الى تلك الاسباب البعيدة ، ولن يجدوا لما يحدث امام اعينهم من احداث غير متوقعة تبريرا أو تفسيرا أو تأويلا ..

---

(١) المزيد من الاطلاع كتاب المسلم فى عالم الاقتصاد — مالك بن نبى

(٢) لمزيد من الاحصائيات ، يرجى الرجوع الى كتاب « السوق الأوروبية المشتركة» للأستاذ محمد الجبالى

(٣) راجع للمزيد « الحكومة الباطنية » للمؤلف .

لا يؤمن اذن ذلك الانسان الذى ركب جنوح عقله ، وغلبته نفسه الامارة ، ان هذه الافعال التى رتب لحدوثها ولم تحدث ، وجزم بوقوعها ولم تقع ٠٠ مرتبط تحقيقها بالمشيئة الالهية ٠٠ وأنه مهما خطط وفكر ودبر وتنبأ فلن يتحقق شيء الا اذا شاء الله تعالى أن يتحقق ٠٠٠

ان هؤلاء الماديين يستبعدون فى ابحاثهم ودراساتهم وتجاربهم مشيئة الله ، وينسبون كل نجاح الى أنفسهم ، ويعللون كل فشل بعلل واهية يخترعونها من عند أنفسهم ، وذلك لتبرير فشلهم ولتكبرهم وتجبرهم فى الارض ، ويغفلون ويتغافلون عن وجود خالق مدبر لهذا الكون ، بيده مفاتيح الغيب وبأمره تعالى يتحقق النجاح والفشل جميعا ٠٠

ان الله تعالى عليم بكل شيء ، لا يخفى عليه شيء فى الارض أو فى السماء وأنه تعالى لا يغفل أبدا ، ولا ينسى ، يمنح لمن يشاء ، ويمنع عمن يشاء ، ولا معقب لأمره ، ومهما رتب الانسان وخطط ونظم ، وزعم أنه قادر على اكتشاف العلل والحقائق الاولى ، ومهما تمخض بحثه وسعيه عن استكشاف بعض السنن الكونية ، فان ذلك رهن بالمشيئة الالهية ، فسبحانه وتعالى هو خالق العلل والاسباب والمعلومات والمسببات ، يخفى عن الانسان ما يشاء ويظهر له ما يشاء ، سواء أراد الانسان أو لم يرد ٠٠

ان المشيئة الالهية هى التى تدبر شئون الكون على الحقيقة ، وتدبر نظامه وانسجامه على أكمل وجه وأقوم حال ، وما الانسان الا مخلوق ضعيف لا يقدر على شيء الا اذا أراد تعالى ٠

فاذا وضع فاطر السموات والأرض سننا يسير عليها الناس والمخلوقات ، فليس معنى التعرف عليها من قبل الانسان ، أن يزعم أنه خلقها أو اكتشفها من العدم ، وانما الحق أن الله تعالى يسر لبعض بنى الانسان استجلاء غوامضها ، وفض أستارها ، وسخر لهم السموات والارض وما بينهما ، لينتفعوا بما فيها وما عليهـــا وليذكروه ذكرا كثيرا ٠٠٠ ويشكروه على ما يسر لهم من النعم ٠

لقد وضع تعالى نظاما لهذا الكون يسير وفقه ، وحض الانسان على البحث والتأمل فيه ، وحفزه تعالى على السعى والعمل ، واعتبر ذلك عبادة له ، لانه تعمير للارض ، وجد واجتهاد من أجل العلم والرزق ٠٠ وبين له تعالى أن ذلك طريق سعادة الدنيا وثواب الاخرة ٠٠

ولو ترك الله تعالى هذا الكون غامضا للانسان ، لسدت أمامه السبل ، ولتملكه اليأس والقنوط ، وتعطلت مواهبه التى أودعها له فيه ، وأصبح كالانعام أو أقل ٠

لو ترك الله تعالى هذا الكون بلا سنن ، لظن بالله الظنونا وما عبده من أحد ، ونزع الناس الى الفساد والافساد ، ولصدق الناس أصحاب الدعاوى الفاسدة ، والمذاهب الضالة ، الذين يزعمون أن الانسان مسلوب الارادة ، وأن السعى فى الدنيا خطيئة ، وان الدنيا سراب يحسبه الظمآن ماء ، لذلك يدعو أصحاب تلك الفرق الضالة الناس الى الترهبن وحياة التأمل ، ومحاولة التخلص من الكثافة الجسيمة حتى تخلص لهم الروح ، وتنطلق من ســـجنها البدنى ، وتعيش حياة السعادة الحقة ٠٠

وهؤلاء أيضا قد خرجوا عن أمر الله ، وحالوا أن يضعوا للانسان تشريعا جديدا ، فغرقوا فى لجى من الخيالات والاوهام ، وعاشوا حياة التبطل والسلبية والاستكانة ، ونسى هؤلاء أن الله تعالى خلق الجسم ليؤدى وظيفة ، كما خلق الروح لتؤدى وظيفة ، وما النفس الانسانية الا جماع الروح والجسم ، ولا تصلح بدونهما ، ولا يستقيم حالها الا بهما ٠

ليست النفس الانسانية روحا خالصة فحسب ، كما أنها ليست جسما ماديا فحسب ، وانما هى جماع روحى وجسمى بهما تعذب وبهما تثاب (١) ٠٠

لقد خلق تعالى الانسان من طبيعة صلصالية ، ثم نفخ فيه من روحه ، فيكف يعارض هؤلاء وهؤلاء خلق الله وامر الله ، ويفرضون على أنفسهم وعلى غيرهم نظاما لم يأت به الله، يستهدفون منه تعطيل عمل البدن ، والغاء حقوق الجسم ، وبذلك يحاولون تخريب التركيب الانسانى ٠٠ ويضعون ارادتهم بدلا من اردة الله ويقدمون مشيئتهم على مشيئة الله ٠

ومن ناحية أخرى يغلو أصحاب المادية فى ماديتهم ، ويجعلون الجسم هو كل شيء وينكرون الروح ويعتبرونها كالنغم الذى تؤديه الآلة الموسيقية ويقصدون بها الجسم ، وبذلك يسلمون قيادهم للاهواء الشخصية ، والمنافع الذاتية ، وينسون ويتناسون خالقهم وفاطرهم وموجدهم تعالى ، ويتحررون من كل قيد ، وينسلخون

---

(١) «الروح» لا بن القيم الجوزيه

من كل شريعة سماوية ، ويهدمون كل فكر ايماني ، ويتركون لعقولهم الفارغة التحكم فى أمر الانسان ، واغترار بقدرتهم فى حل طلاسم الوجود ، والادعاء بالباطل أنهم بسبيل الوصول الى الحقائق النهائية فى تفسير سر الوجود ، دون حاجة الى خالق أو مدبر لهذا الكون •• ثم يعلنون فى تبجح وقحة أنهم قد توصلوا الى حقائق نهائية ونتائج يقينية ، سيعلنونها قريبا تفسر كل شىء •

ان هذا افتراء على العلم والحقيقة ، فالعلم الحديث لم يستطع أن يكتشف فى الحقيقة • من السنن الكونية الا نسبة ضئيلة جدا لا تتعدى ٣٪ •• فيكف يزعم هؤلاء أنه بمقدروهم أن يتعرفوا على الحقائق ، ويجزموا بمقدرتهم على كشف حقائق الوقائع ، وينتهى هؤلاء الى الاغترار والتطاول على الله تعالى فيدعون أنه الا الـــــه والكون مادة •

واذا كان تعالى قد خص الانسان على البحث والتأمل والنظر — فلم يحثه تعالى على الطغيان فى الارض والتكبر والتجبر والشرك به تعالى •

واذا كانت حكمة الله ومشيئته أن تكون الارض مكانا صالحا لسكن الانسان واقامته ، لذلك سن بعدله سننا ونواميس ، ونظاما كونيا يتوافق مع طبيعة ذلك المخلوق الذى استخلفه فى الارض •• الا أن هذا النظام وتلك السنن خاضعة لامره تعالى ، مرتبطـــة بمشيئته ، مسبحة له على الدوام مطيعة له على الاستمرار ••

فالمشيئة ، الالهية مهيمنة على تلك السنين التى يسعى الانسان

لاستكشافها ،واذا ما توصل الانسان الى التعرف على بعض حججه البالغه ، وسننه المعجزة ، فانه لم يتم له ذلك الا بالمشيئة الالهية ، التى سخرت له الاسباب ويسرت له الادوات ·· فاذا ادعى بعد تحقق بعض النجاحات فى مجال المسخرات ، أنه قادر وحده دون معونة الله ، وظلم نفسه بمزاعم فاسدة وأقوال جاهلة ·· كان ذلك بداية النهاية لهذا الانسان وتلك الحضارة ··

واذا ترك تعالى هذا المدعى يعمه فى ضلالته الى حين ، فأنه تعالى لن يتركه فى كل حين ، ·· واذا أعجبته نفسه الامارة ، وسجد لعقله القاصر من دون الله ·· أتى لاريب أمر الله على حين غرة ، فأطاح به ، وسد المنافذ فى وجهه ، وغير تعالى ما اراده هذا المغتر ، ودمرت الاجهزة والادوات من حيث لا يدرى ولا يحتسب ، وهذه هى الحرب العالمية الثانية شاهدة على مانقول·

ان المشيئة الالهية هى النافذة فى الاولى والآخرة ، ولو علم الانسان ذلك ووعاه وطبقه على نفسه وعلى غيره ، لاراح واستراح، وما عاش ضائعا تائها عاجزا لا نصير له ولا معين ، وقد أظلمت الحياة فى وجهه ، ووقع فى الشك والحيرة وأخذ يتساءل الى أين المفر ··

والمشيئة الالهية مع ذلك مناصرة للعمل الصالح ، مقرونة بالخير ، موافقة للصلاح والاصلاح ، وأن بدت للكافر بالله أنها تعين الظالم ، فذلك افتراء وجهل وعصيان ، لان الله يمتحن العباد والناس بالابتلاءات ، حتى يتمحص قلوبهم وأعمالهم ، فيهدى من

يشاء ويمهل من يشاء ، ويعذب من يشاء ، ويثيب من يشـــاء ، ولا معقب لحكمه تعالى ٠٠

ان تقديم المشيئة هى النعمة بعينها التى أنعم الله بها على الناس ، فيها يبلغ العبد الصالح مراده ، وبها يوفق فى علمـــه وعمله ، وبها يبارك له الله فى ماله وولده وعافيته ٠٠

«ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا ٠٠ الا ان يشاء الله» ٠
(الكهف : ٢٣)

العلم والظن

للنفس أحاديث لا تنتهي ، وأماني لا تشبع،وهواجس لاتهدأ، وخواطر لا تفتر ، وأضغاث أحلام لا تسكن ، تصاحبهـــا مصاحبة الظل ، وتجالسها مجالسة الضيف الثقيل ، وتبث في روعهـــا ما يخيف وما يحزن ، وتثير فيها شجونا،وتهول لها الامور ، وتحسن لها قبيح الاعمال،وتحضها على اقتراف الرذائل واتيان الفواحش.

واذا تمسكت النفس بالحق وتقوت بالله ، وسارت في طريق الاستقامة وقامت الخواطر الشيطانية والأماني الشهويـــة .. ورفضت الاستسلام لاحاديث النفس ونزعاتها الباطلـــة .. وجاهدت واجتهدت وتزهدت في مطالب الدنيا ، وتقشفت في متعها الزائلة وتزهدت في اشباعات البطن والفرج .. واذا تمسكت النفس بالله ساعدها تعـــالى في التخلص من ذلـــك الاخطبوط ، الذى ينشر سمومه في النفس ويحيط بمخالبه في الجسم ويقضى على كل أمل للخلاص منه .

أما اذا استكانت النفس للخواطر المذمومة والاماني الكاذبة ، وقعدت عن الجهاد وتباطأت في المجـــاهدة ، ورضيت بالخنوع والاستسلام لتلك الهواجس ، عاشت حياة هامشية لا معنى لها ، قوامها الظن وأهدافها لذات زائلة وأماني زائفة واحلام لاحقيقة لها ولا وجود .

ان حياة الظن هي موافقة لغواية الشيطان ، ومســـايرة لاحاديث النفس . وبذلك تحيا النفس في عالم خيالي وتحلم بصور

لاصدق فيها ، تعشش فى قلبها هواجس باطلة تؤرق نومهـــــا وتكدر صفوها وتجعل ليلها غما ونهارها هما ٠٠ وهكذا تنتهى بها حياة الظن الى المرض العضال ، فيعتريها القنوط ويلقى بها الى غياهب اليأس والضياع ٠

ان مقاومة ظنون النفس وأضغاثها جهاد وسلوك ايجـــابى كبير ، وهو دليل صحة الايمان وعلامـــة الصدق فى العقيدة ، والاخلاص فى العمل والعبادة لله ٠

ان هناك بون شاسع بين الظن واليقين ، فالنفس اذا تابعت أهواءها وانقادت لأحلامها ، ظنت اغترارا وكبرا وظلما وعلوا فى الارض ان ما تراه هو الحق ، وان ما تستشعره هو الصدق ، وان وان ما تريده يحقق لها السعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة٠وحتى ان خابت ظنونها وظهر فساد مزاعمها وتهافت دعاويها،وتمخضت مفترياتها عن نتائج فاسدة وسعادة متوهمة كاذبـــة ٠٠ رفضت الرضوخ للحق وتمسكت بعنادهـــا وتلونت كالحربـــاء بلون الرمال ٠٠ وعللت الفشل بأسباب واهية وعلل زائفة وتمخضت ظنونها عن آراء جانحة ، واستنتاجـات غير متحققة وتنبؤات غير متوقعة :

« وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا » ٠
« الفتح : ١٢ » ٠

وظنون النفس المنحرفة توردها موارد التهلكة ، فتحيا فى ظلام دامس ، وتتخبط فى نار الاوهام ، وتفشل فى اتخاذ القرار السليم ، واصدار الحكم السديد،واتباع هدى العقل الرشيد ٠٠

تنتابها أبدا تخيلات ، وتعايشها الهواجس ، وتثقل كاهلها الاهواء الباطلة فتبتعد عن الفطرة السليمة والدين القيم :

« ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس »
« النجم : ٢٣ » ٠

لو استقامت النفس وآمنت بهدى الله ، ماظنت ظن السوء وما أضاعت دنياها وآخرتها ، ولعلمت أن الرجوع الى الله هو الملجأ الوحيد لها من كل هم وغم ، وهو المعين الأمين من كل خوف ورعب وفزع ، وأن ظنونها وأوهامها لا يعتد بها ، ولا تؤثر على مجريات الامور ولا تغير من الحق شيئا :

« ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شـــيئا »
« النجم : ٢٨ » ٠

واذا صادفت بعض ظنون النفس تحققا ، فان حدوثها انما هو فى واقع الامر موافقة لأمر الله ، وربما كان فتنة لضعاف الايمان يمتحن به قلوبهم ليكشـــف عن معادنهم ، ويختبر اخلاصهم فى ايمانهم به تعالى ٠

لقد أبتلى المسلمون يوم الخندق ، فقد جـــاء الأحزاب من الاعداء من أعلى الوادى ومن أســـفله ، وملك النفوس الفزع والاضطراب ، وبلغت القلوب الحناجر ، وزلزلوا زلزالا شديدا ، لقد كان ذلك اليوم اختبارا عظيما للمؤمنين امتحن الله به قلوبهم فى الصبر والايمان ٠ وكشف عن قلوب المنـــافقين والذين فى قلوبهم مرض ، فقد زعموا أن الله لم يعدهم الا غرورا :

« واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » « الاحزاب : ١٠ »

ثم نصر الله فى هذا اليوم العصيب عبـــاده من المؤمنين ، وأرسل على اعدائهم ريحا عاصفة باردة ، وملائكة من لدنه تعالى لم يروها نشرت الرعب فى قلوب الكافرين ، وهزمتهم شر هزيمة ٠

ان الظن وهم لاسند له ولا دليل من الحقيقة ، وهو علـــم لا ينفع ورأى لا يخدم صاحبه ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعائه :

« اللهم أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع » ٠ « السـيوطى »

ان العالم فى الاسلام من لا يتبع الظن (١) ، اذ هو صاحب الفطرة المستقيمة والعقل الرشيد والقلب السليم ، لا يعتمد على الهواجس والخيالات والاوهام والاحلام ، ولا يغير بعقله فيتوهم أمورا ظنية يجزم بوقوعها وهى غير مؤكدة ، ولا ينسب لنفســه مفاخر ومآثر كاذبة ، وليس العالم بالذى يظلم نفسه ويتبع هواه ويحقد على غيره ويحسده ويتمنى زوال النعمة عنه ٠٠ انما العالم على الحقيقة التقى النقى الورع ٠٠ فما يعلمه من علم ينسبه الى عون الله ٠ وما يجهله يطلب من الله أن يهديه الى معرفتـــه ويساعده فى تحصيله ، ولا يجتهد برأى مفيد حتى يلهمه اللـــه

(١) لمزيد من الاطلاع فى هذه النقطة الرجوع الى كتابنا «نحو منهج علمى اسلامى» من ١٩ ، ٣٢

بالحق خوفا من الوقوع فى الغفلة الضلال ، وحتى لا ينقاد الى الظن والوهم والريبة والشك فى نفسه وعلمه جميعا ٠

أما الجاهل فهو المتبع للهوى ، ، الظالم لنفسه المنقاد الى طيش عقله الخاضع لشهواته المغتر بعلمه الموافق لغواية شيطانه ٠

يظن الجاهل دوما افتراء وكذبا أن قوله حق ، وعلمه حق ، وعلمه مجزوم بصحته ، وفكره صائب،ويعلم الله أنه أبعد مايكون عن الحق والصدق والرشد ٠

ان الجاهل عندما يأول شيئا ، يضع نسبا خاطئة ويظنها صحيحة ، ويزعم أنه عالم بخفايا الامور ، ويتوهم أنه يستطيع أن يأتى بما لم تأت به الاوائل فيزعم مثلا :

ان اللذة هى غاية الحياة ٠٠

ويدعى :

« أن الطبيعة قد خلقت نفسها بنفسها ، ولا أثر لوجود خالق مدبر عالم قادر » ٠٠

ويجهز الجاهل نفسه بأسلحة واهية ، ومزاعم كاذبة وأباطيل متخيلة ، وآراء فجة ودعاوى ظنية لا يؤكدها علم صحيح ، ولا يقبلها منطق سديد ٠٠ ذلك لأن نفسه منحرفة ، وقلبه مريض بعيد عن طريق الاستقامة ، سائر فى طريق الضلالة ٠٠

والجاهلون نوعان :

١ ـ مجاهر بغير علم ٠

٢ ـ مجاهر بغير علم ولا هدى ٠

والصنفان غافلان تأييدا لقول عز من قائل :
« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » « الكهف : ٢٥ »

أما العالم التقى النقى الصالح ، فان نظرتـــه الى الأمور صحيحة ، اذ يأخذ علمه من الله ٠ فيلهم بالحقائق ٠ ويصدق فى علمه وعمله وسلوكه جميعا ٠٠ ويشهد دوما أن ما يأتيه من علم انما هو تفضل الهى ، ومنة رحمانية :

« ومن اصدق من الله حديثا »
« النساء : ٨٧ »

فاذا قال العالم صـــدق ، واذا اجتهد أخلص ، واذا عرف ازدادت طاعته ، فيخرج ثمار علمه بسند محقق ، ونسبة صحيحة ونتائج مقبولة عقلا وواقعا ٠

والعالم الموقن الصالح ٠٠ لا يزعم لنفسه شيئا وانما يرجع فلاحه وتوفيقه الى الله ٠٠ وبذلك لا تشغله نفسه عن ربه ، ولا تجتذبه زخارف الدنيا فيغتر بها وينسى خالقه ٠٠ انما هو دوما يحاسب نفسه حتى يسير فى طريق الاستقامة ، ولهذا يشهد الله على نفسه بأنه لا اله الا هو كما يشهد الملائكة وأولى العلم من الراسخين والاتقياء الصالحين فيقول تعالى :

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائمـــا بالقسط » « آل عمران : ١٨ » ٠

وهذه شهادة من الله للعلماء المخلصين الأتقياء ·· تضعهم في مقام عال فى الدنيا والآخرة · أمـــا العلميون الذين قست قلوبهم عن ذكر الله ، وظلمت نفوسهم فأظلمت ·· وذهبت منهم رائحة التقوى ·· فان الله يتوعدهم فى الدنيا والآخرة ويصفهم بالجاهلين ، لأن بصائرهم عميت عن رؤية الحق،وحجب عنها اليقين فضاعوا ضياعا رخيصا ·

التأمل و السلوك العملى

ارتفع أفلاطون بالفيلسوف المتأمل عاليا ، وجعله الحكيم الذى يستطيع عن طريق العقل ان يسوس نفسه والمجتمع جميعا فهو الانموذج الذى يجب أن يقتدى به فى الفكر والاخـــلاق والسلوك العملى ...

فالفيلسوف هو وحده ـ فى رأيه ـ الذى يجعل العقل أساسا للحكم على صالح الأمور من فاسدها ، لانه يستطيع بحكمة العقل أن يقود زمام نفسه،ويسيرها فى الطريق الصحيح ويضبط شهواته وغضبه بما يملى عليه عقله من الحكمة .

جعل أفلاطون فى النفس ـ قوى ثلاثة أو نفوسا ثلاثة (١) أرفعها شأنا العقل ثم القوة الغضبية ، ثم القوة الشهوية،وعبر عن النفس بعربة يجرها جوادين احدهما ابيض والآخر أسود ، ويمثل احدهما القوة الغضبة ويمثل الآخر القوة الشهوية فى النفس البشرية ، اما القوة العاقلة فهى بمثابة السائق أو الحوذى الذى يقود عربة النفس ، ويمسك بلجامها ، كى يوجهها الى الطريق الصحيح .

لقد توسع أفلاطون فى تطبيق هذا المثلث الأفلاطونى أو بتعبير آخر هذه الثلاثية النفسية ، توسع أفلاطون فى تطبيقها فى علم السياسة والمجتمع والاخلاق ، فاذا كانت النفس البشريـــة الجزئية يجب أن يحكمها العقل ، فكذلك المجتمع يجب أيضا ان

---

(١) راجع تاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم .

يحكمه الفيلسوف المتأمل المتعقل ، فالنفس البشرية انما هى جزء لا يتجزأ من المجتمع ، ومن ثم فان ما ينطبق عليها انما ينطبق أيضا على المجتمع ، اذ المجتمع عبارة عن الكل الذى يحوى النفوس الجزئية ٠

لذلك فقد قسم أفلاطون أفراد المجتمع بحسب تقسيمه للنفس الجزئية ، فاذا كان بعض الافراد يميلون الى الشهوة والهوى فأنهم يمثلون القوى الشهوانية فى النفس واذا كان بعض أفراد المجتمع يميلون الى العدوان والقوة البدنية ، فانهم يمثلون القوى المغضبة فى النفس البشرية ، وهناك قلة قليلة تمثل الحكمة والتعقل والتأمل فى المجتمع ، وهؤلاء يمثلون عقل المجتمع كما تمثل القوة العاقلة النفس العاقله ٠

ولقد دأب أفلاطون على استخدام ٠ هذا المثلث ـ كما سبق القول ـ فى جميع تصانيفه فى السياسة والمجتمع والاخلاق بالاضافة الى النفس ، وتصور أفلاطون ان القوة العاقلة فى النفس عندما تحكم وحدها دنيا النفس والمجتمع فانها الجديرة فحسب بالوصول بالنفس والمدينة الى الخير بالذات والسعادة المثلى ٠

ويعلل أفلاطون سبب اختياره للفيلسوف المتعقل المتأمل حاكما للنفس والمجتمع جميعا ، يعلل ذلك بأن القوة الشهوية انما تستهدف اشباعات الحس ، وتبغى تحقيق اللذات وموافقة الشهوات ، وبذلك تجعل اللذه هى الخير الأسمى، ولما كانت اللذات لا تشبع أبدا ولا تقف الشهوات النفسية عند حد معين ، ولما كانت القوة الشهوية تجد معوقات تقف دائما حائلا دون تحقيق مطالبها ،

لذلك فان النفس الشهوية تحاول أن تحقق بجميع الطرق الممكنة وبالتحايل للوصول الى اشباعاتها ، الأمر الذى يعرضها دائمـــا للوقوع فى الرذائل والآثام ، يوقعها فى شراك الشر فتصـــبح النفس الشهوية كالحيوان سواء بسواء ٠

ولا يختلف الامر كثيرا عن ذلك بالنسبة للقوة الغضبية ، فهى عبارة عن سعير لا ينطفىء أبدا وعدوان لا يتوقف عند حد ، فالقوة الغضبية تستهدف الظفر والانتصار والنجاح فى كل موقف ٠ وضد أى خصم أو معارض فتنسف كل من يحول دون تحقق ذاتهـــا ، وتدمر كل من يعارض مطالبها ، فهى قوة بهيمية تهدف الى تحقيق مطالب الحس ، دون النظر الى العواقب التى يجرها استخدام القوى من آلام ورذائل وشرور ٠

ويرى أفلاطون ان الأمر لا يختلف كثيرا بالنسبة للمجتمع فاذا تسلطت القوى الشهوية فى المجتمع التى يمثلها العامة والذين يسمهم بالرعاع أو الغوغاء ، فان الحكم يكون للفوضويين الذين يفسدون فى الأرض وينشرون الافساد والانحلال ، فيفســـد المجتمع ويضيع الامن والنظام ٠

ولا يختلف الامر كثيرا عندما تســـيطر القوى الغضبية على المجتمع والتى يمثلها الاقوياء والمتكبرون والجبابرة والطغاة ، فيستعبدون الضعفاء ويقتلون الأبرياء وينفذون خططهم للظفر والانتصار ، دون وازع من ضمير ، أو زاجر من اخلاق،فينشرون الرعب فى الافئدة ويذلون الناس والعباد ٠

واما اذا حكم العقل المجتمع وترأست القوى العاقلـــة على

المدينة وامسكت بزمام الأمور ، فانها وحدها التى تستطيع ان تنشر العدل بين الناس ، وتحقق الصلاح والاصلاح للمجتمع .

والفلاسفة هم وحدهم الذين ارتقوا وتساموا عن الشهوات وتجنبوا الاعتداء والعدوان ، وتوسطوا فى الأمور كلهـــا ، فان حاكمهم هو العقل ، ورائدهم هو العقل وغايتهم الوحيدة هى خير النفس والمجتمع .

وهذا المثلث الافلاطونى الذى وضع افلاطون على قمتـــه الفلاسفة ، حاول افلاطون تطبيقه فى مجال الساسية كما حاول تطبيقه كمذهب ونظرية فى النفس والأخلاق ، لكن ذلك العقل الخالص الذى يريده افلاطون أن يدبر شئون النفس والمجتمع ، انما هو عقل تأملى لا يمت الى الواقع بصلة من قريب أو بعيد ، وكأنه عقل مفارق للبدن ، لا يرتبط به سواء فى الفكر أو الاخلاق أو السلوك العملى .

ان العقل الخالص فى مثلث افلاطون يستهدف الوصول الى الخير الاسمى (١) ، تاركا وراءه البدن دون ان يسمو معه فى عالم المعقول ، فلكى يكون الفيلسوف متأملا لابد ان يصعد بعقله الى المثل وهى صور ونماذج مجردة عن الحس ، والشهوة والغضب . اذن لابد فى نظرية افلاطون ان يتخلص الانســـــان من القوى الشهوية والقوى الغضـــبية لكى يســـمو ويرتفع عن الأدران وشوائب المادة الصماء .

(١) راجع تاريخ الفكر الفلسفى ـــ د محمد على أبو ريان (افلاطون) .

فأفلاطون بذلك يريد نفسا ليست كالنفوس ، ومجتمعا ليس كأى من المجتمعات القديمة أو الحديثة ، انما نفسا الهية ومجتمعا مثاليا أشبه بالجنة فى أرض الدنيا التى يختلط فيها الشر بالخير، والباطل بالحق ، وتتأجج فيها العواطف المحمومة والانفعالات الطاغية ..

لذلك فان مطلب افلاطون وغايته لا يمكن تحقيقها فى الواقع الحى الذى يحمل الخير والشر ، والباطل والحق ، وتسيره العواطف والوجدانيات حينا ، والتأمل العقلى حينا آخر ، فمثلث أفلاطون غير صالح كانموذج فى عالم متناقض .

وربما يرجع فشل أفلاطون فى تحقيق نظريته هذه الى انه اعتبر العقل الانسانى هو وحده الذى يستطيع ان يشرع القوانين، وان يتعرف على حقائق الوجود ، وأن يصل وحده الى الخير الاسمى بدون وسائل أو واسطات ، لذلك فقد سقط مثلث أفلاطون على أم رأسه ولم ينجح فى تطبيقه فى عصره أو فى العصور اللاحقة التى حاول بعض مقلديه أن يخضعوا مثلثه هذا للتطبيق .

واذا عقدنا مقارنة بين أفلاطون والامام أبو حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ نجد ان الامام الغزالى أكثر فهما للنفس واكثر واقعية فى الفكر والسلوك والتطبيق، اذ أنه قد انتقد بشكل مباشر أو غير مباشر نظرية أفلاطون، وبين أن العقل وحده ليس بكاف للوصول الى الحقائق الكبرى ، وانه قاصر عن تحقيق الخير الاسمى للنفس والمجتمع جميعا، فالعقل الانسانى قاصر فى البداية والنهاية عن معرفة المبادىء الاولى معرفة يقينية ، ومن ثم فهو

لا يستطيع ان يصل الى كنه الأشياء بدون الاستعانـــة بقوة أخرى ، رآها الامام الغزالى فى القوى الربانية التى يستعين بها العقل الانسانى لترشده الى طريق الصلاح والاصلاح ٠

لذلك فقد اضاف الامام الغزالى القوة الربانية كقوة رابعة فوق القوى الثلاثة الافلاطونية ، وجعل لها الأمر والنهى والحكم على صحيح الأمور من فاسدها ، وعلى العقل ان يسترشد بها فينتهى عما نهى الله عنه ويأتمر بما أمر الله به ، وبذلك تحل الصعوبات الافلاطونية فيما يتعلق بالمفارقة والمشاركة والمثل ٠

فالله جل وعلا هو المحيط بكل شىء ، العليم الخبير ، وهو الخالق المدبر العالم بالنفس الانسانية وبنفوس الناس جميعا وهو الهادى الى سبل الرشاد ٠

لذلك فقد ارسل الانبياء منذرين ومبشرين ليهدوا الناس الى طريق الحق ، ويتجنبوا طريق الباطل ويعلموا ان عقولهم وحدها عاجزة عن معرفة الحقائق الكبرى بدون الاستعانة بكلام الله وعلم الله وشريعته السمحاء ٠

فمربع الامام الغزالى يرفع العلم ويجعله فوق العقل والقوتين الغضبية والشهوية جميعا (١) وما دام العقل يستنير بالعلم الالهى فانه يستطيع ان يسكن الشهوة بالغضب ، ويرتفع بالانسان عن الشرور والرذائل ٠ ويجعل القوتين الشهوية والغضبية فى خدمة خير النفس والمجتمع جميعا ٠

---

(١) اشار الغزالى الى هذه القوى النفسية فى كتابه الاحياء ، الجزء الثامن، كتاب العلم « كتاب الشعب » ٠

ومن ناحية التطبيق العملى نجد ان مربع الغزالى اشمل وأفضل من مثلث افلاطون ، ذلك لأن افلاطون عندما جعل العقل على رأس القوى النفسية فى الانسان قد ظلم الانسان وظلم المجتمع جميعا ، فعلاوة على انه قسم النفس الى اقسام برغم ان النفس واحدة فانه قسم المجتمع الى طبقات أيضا ، وحدد لكل طبقة اختصاصات ووظائف واوصاف،وعن طريق حكم العقل جعل هناك شيوعية بين الرجال والنساء،بهدف ان يصل الى المدينة المثالية ، برغم ان ذلك يعد شيئا فظيعا لا يقبله انسان أوتى ذرة من الايمان، ثم انه عن طريق حكم العقل ، يصل الى أنه لابد للوصول الى الكمال من قتل الاطفال الابرياء ، اصحاب العاهات ، وتعقيم الضعفاء من النساء والرجال ، حتى تتحقق فى مدينته الخالية القوة والمنعة والكمال ويدل ذلك على عقم التفكير العقلى الافلاطونى وبعده عن الرحمة والفطرة واليسر ، كما انه جعل عن طريق حكم العقل ، الأموال شيوعية بين الناس ، فأضاف شرا الى شر ، ومنع الأمل فى الحياة والجهاد والاجتهاد والتمييز بين القاعدين والساعين للرزق ، ثم الى شيوعية النساء التى يمحو فيها العلاقة الاسرية ويمزق اواصر المحبة بين الأباء والابناء والأزواج، وقد نسى أن الاسرة هى الخلية الاولى للمجتمع وانه بدونها فلا مدينة ولا قرية ولا جماعة من الناس يمكن أن تتعاون من أجل الخير .

فالبعقل وصل افلاطون الى مجتمع انانى نفعى لا يمثل الخير من قريب أو من بعيد ، ولا يدعو للتعارف والمودة والرحمة ، وانما يدعو الى الرذيلة والشر والفساد جميعا .

واذا لم يختلق الامام الغزالى مدينة مثالية جديدة كما اختلق افلاطون ، الا ان قواعده التى رسمها لنا بالنسبة للقوى النفسية فى الانسان يمكن ان تطبق فى واقعية ومرونة ، وبشكل ميسور على أى جماعة من الناس ، ودون ان نجد فيها ظلما لأحد أو ضرار لأحد ، لان مصادر الغزالى ليست من عقله القاصر ، أو نفسه العاجزة ، وانما مصادره هى القرآن الكريم والسنة المحمدية ، والتى بها يستقيم كل اعوجاج ، ويتحقق كل صلاح واصلاح ، فتهدى النفس الى الحق ويهدى المجتمع الى السعادة فى الدنيا والآخرة .

فطرة التربيـــة الاسلاميـــة

لم يتنزل دين من الأديان ٠٠ ولم تنص شريعة من الشرائع على أنها دين الفطرة الا دين الاسلام وشريعته ٠٠٠

ومن الحق القول أن الأديان السماوية كلها ـ مع اختلاف أزمانها وتعدد أنبياءها ورسلها ، دعت الى الاسلام وتوحيد الله وعبادته ، والايمان بأنه الخالق على الحقيقة المعبود على الدوام ، المستغن عن الكل ، والكل مفتقر اليه ٠٠

الا أن الاسلام قد انفرد دون الاديان جميعها ـ كما سبق الاشارة ـ بوصف أجمع عليه العلماء والفقهاء على أنه دين يواكب الفطرة السليمة ، والعقل الرشـــيد والخلق القويم ، والنفس المطمئنة (١) ٠٠٠٠

«فاقم وجهك للدين حنيفا،فطرة الله التى فطر الناس عليها»
(الروم : ٣٠)

فالفطرة هى الاصل الجامع ، وذروة التشريع الشـــامل ، ومقتضى العمل الصالح ، والأساس الذى يرجع اليه فى المسائل كلها ، والمعنى الذى يوزن به صلاح الامور من فسادها ، وبالفطرة تتفهم مناحى الدين ٠ وما يقصد اليه من حكمة الله البالغة ٠ وبالفطرة أيضا يهدى الناس الى استنباط الأحكام ، ومعرفـــة القوانين الكلية التى تستخرج منها المسائل الجزئية ٠ والتفريعات التى تندرج تحت الموضوعات العامة ٠٠٠

---

(١) الاسلام دين الفطرة ـ الشيخ عبد العزيز جاويش ٠

« الا الذى فطرنى فانه سيهدين » (الزخرف : ٢٧)

الفطرة السليمة حال وفعل وعمل للنفوس المسترشدة بالحق، لا تقبل الفساد فى الارض ، وتشجب الفوضى فى الكون ، وتؤمن بالوسط العدل ، فلا تغلو أى نفس فى ابتذال واسراف ، فتظن لمرضها وحبها للتجبر والسيطرة والأنانية ، أن المنفعة الذاتيـــة غاية ، وأن تحقيق اللذة هى السعادة المنشودة ، ولا تقتر فى بخل أو شح فتتوهم ان المذلة والجبن والسلبية هى الطريق الموصلة للأمن من الخوف ، كما قال الكافرون :

« فاذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون »
(المائدة : ٢٤)

ان الذى يمشى على يديه أو يأكل برجليه ، أو يسلك سلوك الحيوان . مستهدفا كل شهوة ، ظالما نفسه ، مرتكبا الفحش لغرور عقله وفساد نفسه ، انما يعاند الفطرة التى فطر اللـــه الناس عليها ..

واذا تأملت أصحاب الوهم من المتفلسفين الذين يدعون أن الحق متكثر ، وأن الفضائل نسبية ، وأن الانسان عليه أن يجرب كل شىء ، فيأخذ ما يصلح له ، ويرفض ما لا يصلح له ، هؤلاء نجدهم يعيشون فى وهم باطل ، وزعم كاذب وقد ابتلوا باليأس والقنوط ، وهذا بطبيعة الحال يتنافى مع الفطرة السليمة التى فطر الانسان عليها ..

ان فى اتباع أمر الله تحقيق للفطرة السليمة ، وهجر أمره

تعالى ، بعد عن هذه الفطرة التى هى الاصل ، والتوبة اليه بعد اقتراف الاثم والذنب ، انما هو الندم على الغفلة ونسيان الفطرة الانسانية ، ورجوع عن الغواية والضلال :

« انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » • (النساء : ١٧)

الدين اذن فطرة فى الانسان ، والفطرة موافقـــــة العقل للشرع • فالدين هاد للعقل من الجنوح والجمود والتهور والجبن والسلبية فى الأخلاق والعلم والسلوك ••

والفطرة لا يختص بها نفر من الناس (١) ، أو شعب دون آخر أو زمان دون زمان أو حضارة دون حضارة ، انما الفطرة التى قرن بها الدين الاسلامى مشتركة بين البشر جميعا ، مفطور عليها الناس فقيرهم وغنيهم • مسلمهم وكافرهم عربيهم وعجميهم • أسودهم وأبيضهم ••

« فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله »
(الروم : ٣٠)

واذا لم يكن هناك بين الخلق جميعا شيئا مشتركا مفطورين عليه ، فلن تجمعهم أخلاق ، ولن يصلح معهم عقيدة ، ولن يقنعهم مذهب أو رأى ، ولن يفيد معهم وعظ أو ارشاد ، ولن يتفقوا على أمر يجعلهم متوحدين فكريا ، ولن ترضى نفوســــهم بقانون أو

(١) أصول النظام الاجتماعى فى الاسلام — الشيخ محمد الطاهر عاشور •

تشريع ، فالانسان اذا لم يوجه الى ما فطر عليه ، فانه ينزع الى لذاته ، ويتغافل ويظلم ويتعدى حق الله ..

لقد خلق الله الناس شعوبا وقبائل متباينة العادات،ومختلفة الطبائع متعددة التقاليد ، متفرقة الأخلاق ، الا أنه جعل فيهم فى الوقت نفسه ، فطرة جامعة هى التى تعين العاقل على اتباع ما استهدف الله من الدين ، فالفطرة حقيقة بديهية للمتأمل ، واضحة كل الوضوح لصاحب القلب السليم والنفس المستقيمة ..

ولحكمة الله البالغة لدفع الناس بعضهم ببعض ، آن تحجب بعض الامور المغيبة ، والاسرار الكونية عن المدركات الحسية ، كالسمع والبصر والتذوق واللمس وان يتعذر كشـــفها للنفس الغافلة ، وتخفى معرفتها لصاحب القلب المريض ، ويغمض على العقل المغرور تباينها .. فلا تتعرف على حقائقها ، ولا تشرق نفسه بعلومها ، ولا ينال أنوارها من ظلم نفسه،وأسرف فى امره، وأتبع الشهوات وابتعد عن الطاعة ، ووافق سلطان هواه ، وساير العادات المرذولة ، والطبائع الدميمة ، واستسلم للاخطاء النظرية الشائعة ..

ويأتى أمر الله الصادر الينا لينبهنا ويرشدنا ويوجهنا الى خطورة هذا الميل المخالف للفطرة السليمة :

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » (الكهف : ٢٨)

وليس معنى ذلك أن العقلاء من الناس يعرفون الفطرة كل

الفطرة ، اذ أنه لا يسلم وقوع العقلاء فى الأخطاء ، فالعصمة لله وحده ، ومن اصطفاهم من الأنبياء والرسل لتبليغ رسالته للعالمين :

« ولقد اخترناهم على علم على العالمين »

(الدخان : ٣٣)

لقد أوحى الى النبيين،وألهم العلماء الراسخين (الحكمة)(١)، وبها أدركوا ببصائرهم النافذة ، واسلام وجوههم لله ، واسترسالهم دوما معه تعالى ، أدركوا الفطرة السليمة ، بقدر تمكنهم من العلم الالهى ، وانقداح قرائحهم بالمعارف الربانية منة من الله وفضلا ، فسلكوا طريق اله عملا ونظرا ، ظاهرا وباطنا شريعة وحقيقة ، وهم يتفاوتون مع ذلك فى معارفهم ومقاماتهم ومنازلهم العلوية ، ويختلفون فى اجتهاداتهم فى الفروع ، وذلك من رحمة الله وحكمته ، اذ أنها منافسة شريفة ودفع محمود بين الطالبين ...

ان الشريعة هى الاصل الذى يرجع اليه العلماء جميعا ، باعتبارها مقتضى الفطرة ، وعمل بالحكمة صادرة عن رب العزة ..

والسالكون لطريق الله ، يتجنبون الانحراف عن الفطرة ، ويخشون الوقوع فى مهاوى الضلال وظلمة الشهوات ، والميل الى الأهواء والبعد عن الحق الواجب الاتباع ، وذلك من فضل الله ورحمته على المؤمنين ..

---

(١) المزيد من الاطلاع الرجوع الى كتاب «الشريعة والحقيقة» و « نحو منهج علمى اسلامى »للمؤلف .

ان أهمية العمل بالشريعة الاسلامية ، وتنفيذ أحكامهـــا ، انما هو بمثابة الامساك بعجلة القيادة فى طريق وعر المسالك ، أو فى بحر متلاطم الأمواج ، للسير فى الطريق الموصـــل للفلاح والأمن والهدى ...

ان الاتجاه الى معرفة أصول الدين الحنيف ، ينير للمتأمل الطريق الموصل لحكمة الله البالغة ، واهتداءه الى حظيرة الايمان ، اذ به يشهد المؤمن على أحديته تعـــالى ويثبت القلب الى القول الثابت ، ويوضح للعقول ما استغلق عليها فهمه وادراكه ...

ان بعض العلماء يعتقدون مثلا أن جريمة الزنـــا عمل لا أخلاقى ، لكنهم لا يوضحون للناس انها تخالف الفطرة السليمة وتنافى الصلاح والاصلاح فى الأرض ، اذ أنه مما لاشك فيه أن الزنا نوع من الافساد ، وابتعاد عن العدل بما ينطوى عليه من الفوضى فى العلاقات والأنساب ، واشاعة للفرقـــة والعداوة ، بالاضافة الى ما يستجلب من المهانة والنزوع الى التبطل والسلبية ، حيث يستسهل الزانى الحصول على شهواته بدون الطريق الشرعى الذى يحمله مسئولية كفالة الأسرة والانفاق عليها ، وعلى هذا يعد الزنا مناقضا للفطرة السليمة ،ولذلك اعتبره تعالى من الفواحش ، وحرمه على عباده وأمر باقامة الحد على مقترفيه .

والأمر كذلك بالنسبة لمعاقرة الخمور ، فالعلماء ينظرون الى أن الشريعة تحرم الخمر حيث أنها تذهب بالعقل ، فاذا أريد قياس أسباب التحريم على قواعد الفطرة السليمة ، تبين للتأمل ان ذلك راجع الى أن مداومة شرب الخمر يفسد الجسم والعقل ، كما أنه

يفقد الناس غيرتهم على أنفسهم وعلى عرضهم جميعا ٠٠ وان فى ادمان المسكرات فوضى عقلية وجسمية واعتداء صارخ على الغير ومصلحة المجتمع ، لذلـــك نزل التحريم ، واقامـــة الحد على متناوليها ٠٠٠

وان فى تناول لحم الخنزير افساد للجسم ، كما ثبت ذلـــك علميا ، وكل افساد وفساد تحرمه الشريعة لأنه ضـــــد الفطرة السليمة ٠٠٠

ولما كانت المجتمعات الحديثة قد تداخلت ، وتعقدت مشاكلها الأخلاقية ، بحيث اذا استفتى العلماء اختلفت مذاهبهم ، وتشعبت آراؤهم ، ورجع كل منهم محاكيا ومقلدا وناقلا لرأى من آراء المجتهدين السابقين ، ولم يصب أحدهم كبد الحقيقة ، وبعدوا عن الفطرة السليمة ، ولم يسلم أحدهم من المظنة ، والاستخفاف بما يقول ٠٠ اذ أنهم جميعا لم يشفوا غليل الظامىء الى اليقين ٠٠

ولما كان كثير من علمائنا من السلف الصالح ، يعرضـــون ويبنون الأحكام وعللها ، والنواهى ومسبباتها ، بحسب ما يعرض عليهم من وقائع ، وما يستفتوا فيه من موضوعات ، وما يحتاج المسلمون الى معرفته من أحكام وحدود فى أحداث لم ينص عليها القرآن ، وكان ذلك بطبيعة الحال نتيجة اهتمام الناس بشئون دينهم ودنياهم ، رائدهم التعرف على الحلال والحرام،وقد خلصت نفوسهم الى العمل فى الدعوة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر٠٠ والأمر بخلاف ذلك الآن ، اذ لم يكن هناك فى الصدر الأول للاسلام من حاجة أن يستخرج المجتهدون المنهج الاسلامى فى معالجة شئون

الحياة ، وسياسة الأمة كما يدعو الأمر الآن فى هذا العصر الذى يتهمه خصومه واعداءه كيدا وجهلا وحقدا بمفتريات كاذبة ، ومزاعم متهافتة . كأن يطعن الاســـلام بالجمود والرجعيـــة ، وبالغموض فى تشريعاته وعدم انطباق أحكامه على الجزئيات ، وقصورها على الامتداد لتشمل الناس جميعا ...

وهذه الادعاءات تلزم ـ بطبيعة الحال ـ العلماء المسلمين أن يشمروا عن سواعدهم ، ويظهروا للناس حكمة الله البالغة من الدين ، وان يبينوا للطالبين المنهج الاسلامى ، وأن يبروزا أهم معالمه ، وقدراته على مواكبة متطلبات العصر ، ومرونته وقابليته للامتداد فى الزمان والمكان ، وقبول قواعده للانتشار فى جميع المجتمعات ليكون التشريع الملائم الأكثر صلاحية لخدمة الانسان المعاصر ...

وأهم ما يظفر به المتأمل فى التشريع الاسلامى ، انه يستهدف الاصلاح والصلاح ، وان غايته التيسير والرحمة والهدى ، وليس التعقيد والغموض والظلم حتى ينصلح البناء النفسى والاجتماعى ، وحتى لا تنتشر الفوضى بين الناس ، كيلا تفسد الارض ..

وعندما يدعو الاسلام الى الصلاح والاصلاح ، انما يدعو الى الحق والعدل والخير والحكمة ، وكلها مقتضيات الفطرة السليمة :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

(النحل : ١٢٥)

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » ..

(البقرة : ٢٦٩)

فاذا اتهم الحاقدون والجاهلون والذين فى قلوبهم مرض ، الاسلام زاعمين أن بعض قوانينه جائزة تتنافى مع كرامة الانسان اذ تهدر انسانيته بطريقة وحشية ، عندما يقرر رجم الزانى ، وقطع يد السارق ...

عندما يتهم هؤلاء الاسلام بهذه الدعاوى ، فان على المتفقهين المسلمين ، ألا يقفوا مكتوفى الأيدى ، وكأنهم قد فقدوا الأسانيد المقنعة ، والأدلة القاطعة للخوض عن غمار دين الله ، وتبيان حججه البالغة فى الأحكام والمعاملات والحدود .

ان ترديد النصوص القرآنية والأحاديث النبوية دون تفحص غايتها ، وسبر غور أهدافها ، وتطبيقها فى مجالات الحياة المختلفة ، انما هو اهتمام بدراسة فرع واحد من الشريعة ، دون الالمـــام بالدراسة الشاملة الجامعة لأهداف الدين ...

اننـــا لا نختلف مع هؤلاء المتفقهين ونحمد لهم ســـعيهم ، ولا نلومهم على استخدامهم أســـلوب المواعظ والخطب فى تعليم الناس أحكام الدين ، واستخدامهم طريق التلقين والمحاكاة فى التحصيل لعلوم الدين ، فهذا ما سبق أن تعلموه ودرسوه، ولايمكن أن نطالبهم بتغيير مناهجهم فى التربية والتعليم دفعة واحدة ، اذ أن ذلك يتطلب منهم جهدا فوق طاقتهم من الصعوبة بمكـــان أن يتحملوه ...

ولاشك أن مطالبتنا بتغيير منـــاهج المتفقهين فى الدين ، وتحولهم عن النظرة التى نظروا بها الى الشريعة الغراء يتطلب وقتا وجهدا وعملا دائبا ..

ونحن لا نختلف مع هؤلاء العلماء ، فان ما قاموا به من جهد في تعليم الأجيال هو الذى حفظ للدين وجوده ، وأبقى للشريعة الاسلامية عصمتها كمنار يضيء للناس طريق الله ، نحن لا نختلف معهم ، ولكننا فى عصر غلبت الماديات فيه على كل شيء،لذلك فان من واجبنا أن نبين حكمة الله البالغة من الدين ، باعتباره ضرورة حتمية ، وذلك بتعميق المفاهيم ، والارشاد الى الفطرة السليمة فى الانسان ، والتى هى موجودة فى خلقه وكيانه ٠٠ اذ هى تعبير صادق عن الانسانية ٠٠٠

ونظرة الاسلام للعلم على انه مواكب للفطرة ، تعد نظرة أكثر شمولية ، وأعمق وجودا ، وأرشد فى تبيان السلوك الواجب الاتباع من كثير من النظم والشرائع المستحدثة ، اذ الفطرة أصل جامع ، وأساس متين يصلح للباحث عن النظام الاجتماعى الاسلامى عدة وعتادا،للتزود بالحقائق الكونية والأسرار العلمية ٠

ولنضرب لذلك مثلا يبين لنا الحكمة من التشريع الالهى ، ففى حالة تعارض فعلين أو خاطرين ، فان العاقل عليه أن يختار بفطرته السليمة الأصلح والأدوم والمعروف بين الناس والذى اذا نفذه اعتدل أمره أكثر مما يعتدل اذا تركه ، سواء كان ذلك بالنسبة للفرد أو المجتمع ، ولاشك أن هذا الاختيار قد تم نتيجة للاستقامة والعدل المواكب لحقيقة الدين ٠

كما ان العاقل يمكن أن يختار الفعل الآخر أو الخاطر الآخر، عندما تتغير الظروف أو الملابسات أو الزمان أو المكان ، أو التحضر ، وفى كلا الحالين ، فان هذا العاقل لم يخرج عن الفطرة

السليمة التى فطر الله الناس عليها ، فاذا كانت معاقرة الخمر – كما أمرت الشريعة – يعد حراما وهذا مقتضى الفطرة ، لأن دوام معاقرتها افساد للجسم والعقل ، فان تناول الخمر عند عدم وجود ماء بقصد عدم الموت عطشا، يعد أيضا من الفطرة السليمة ، اذ أن مما لاشك فيه أن عدم الارتواء فى هذا الظرف الطارى يؤدى الى تعريض الانسان الى ضرر أكثر من الضرر الذى ينتج عنه تناولها ، ففى هذا الموقف ضررين يجب تغليب أحدهما على الآخر، الأول يعرض عند مداومة تناوله الى افساد الجسم . والاخر يؤدى عدم تناوله الى الموت عطشا ...

فاذا حمكنا بمقتضى الفطرة السليمة، فاننا نختار الفعل الأول، ونفضله على الفعل الثانى ، الا أننا من ناحية أخرى علينا أن نستغنى عن الفعل الأول عند تغيير الظروف أو بانقضاء السبب، أي بوجود الماء المباح ، ومن ثم تعد مداومة معاقرة الخمر بعد تغيير الظروف مخالفة للفطرة السليمة ، اذ هى هوى فى النفس وبعد عن الاستقامة ..

وبالمثل فيما يتعلق بالربا ، فالأصل فى الفطرة السليمة تحريم الربا (١) ، كما نص بذلك التشريع الالهى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفه » ..
(آل عمران : ١٣٠)

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات »
(البقرة : ٢٧٦)

---

(١) راجع « نظرية الاسلام السياسية » أبو الأعلى المودودى .

فاذا كانت الجماعة الاسلامية فى مجاعة ، ولا يستطيع الفرد أن ييسر لنفسه وأهله احتياجات المعيشة الضرورية الا بالاستعانة بشكل من اشكال الربا، فلا جرم عليه أن يلجأ اليه عند الاضطرار فى هذه الظروف العسيرة ، وهذا مقتضى الفطرة السليمة ، فاذا انحلت الأزمة ، وابتعد العسر ، فانه يستوجب عليه أن يلتزم بأمر الشرع ويستغنى تماما عن التعامل بالربا ، فاذا لم يفعل . فان ذلك يعد خروجا عن الفطرة السليمة ، وشريعة الله وحكمتـــــه البالغـــة ...

وبالنسبة لاقامة الحدود الشرعية فأمر الله نافذ على السارق. وذلك باقامة حد قطع اليد عليه .. وهذا مقتضى السليمة ، أما اذا تغيرت ظروف المجتمع، وتعذر اعطاء الحقوق لمستحقيها، وتجمدت القواعد الشرعية ، فلم تمتد الى الأغنياء لتأخذ منهم حق الفقراء ، وأفلس بيت المال ، فلم يعد قادرا على الوفاء بالتزاماتـــــه قبل المحتاجين والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فأنه لا يمكن أن يقام الحد على سارق بقطع يده ما دام لم يوف له المجتمع حقه الشرعى، ولم يعط ما أمر الله به أن يعطى له ، ليتسنى له أن يحيا حياة كريمة ، ويجب ان يرجع القاضى الى ان السارق ما اقترف هذا الجرم الا لوجود قصور من قبل الجماعة فى تطبيق شريعة الله لتشمل الناس جميعا ...

وفى هذه الحالة لا يقع الجرم على السارق الذى له عذره ـــ فيما ارتكب من جرم ، بقدر ما يقع على الجماعة الاسلامية .. فاذا عوقب فان ذلك يتنافى مع الدين الخالص والفطرة السليمـــــة والعقل الراجح السديد ...

الربوبيـــة والعبوديــــة

● النظام الذى وضعه البشر فاشل · وعلى الانسان ان أراد السعادة العودة الى شريعة الله ·

الاسلام : اسلام الوجه لله والاسترسال معه تعالى ، وظاهره السلام وباطنه الاستسلام لله ·· والمسلم المؤمن : حياته التوحيد، والتوحيد رؤيا بصرية وقلبية ، وبالنفس والروح جميعا ··

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائمـــا بالقسط » (آل عمران : ١٨)

وشهود أن لا اله الا الله قمة التوحيد ، وثماره اليقين ، وباليقين فى الله تزداد فى قلب المؤمن السكينة ، وتعمره قوى الخير ، وترعرع فى نفسه معانى الطاعة ، ويشرق صدره بنور الاخلاص ·· فيحصد عمله فضلا وعلما ··

« لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »
(يونس : ٦٤)

ان لا اله الا الله هى الدرة الفريدة ، والجوهرة الوحيدة والمفتاح الذهبى لدخول المؤمن الى النعيم المقيم ، والتمتع بالأمن والسلام ، والاقامة فى دار السكينة والخلد :

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » (الفتح : ٤)

ان الايمان بأنه لا اله الا الله ، فتح للأبواب المستغلقة ، وحل

لكل المشاكل الحياتية المعقدة ، وفض لكل العوائق والسدود المحصنة ، فباسمه تعالى يعرف الانسان نفسه ، وبذكره يهديه الى حقيقته ، وبدعائه يستجيب الى رجائه ..

فكيف يزعم المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ان بعض الأشقياء من المشركين والضالين يصدقون فى القول ، ويتفانون فى العمل ، ويأتون افعال الخير ويساعدون المحتاج والفقير ، ويصلون الرحم ، ولا يضرون احدا من الخلق ..

ورغم ذلك فانهم يحكمون على المسلمين مسبقا بدخول النار .. ويصورونهم للناس على أنهم وحوش ضارية ، ونفوس أمارة ، وقلوب قاسية ، وعقول جاهله ، بل يسلبونهم كل معنى جميل ، ويتهمونهم بكل صفة خسيسة ودنيئة ، ورأى عقيم .. ويتشكك هؤلاء المنافقون فى كلمات الله البينات ، ويظنون أن عقولهم قادرة على اصدار الأحكام .. ويعمدون الى أظهار رفضهم لحكم الله ، ويثيرون جدلا حول منهجه تعالى ، ومجمل زعمهم يصيغونه فى دعاوى خبيثة ، وارهاصات كاذبة على النحو التالى :

لماذا يدخل المؤمن الجنة ؟ ولماذا يخلد الكافر فى النار ؟

ولا يترك هؤلاء فرصة للمؤمنين للاجابة على اعتراضهم .. وانما يواصلون ترديد آرائهم المنحرفة فيدعون أن من يتهمون بالشرك والعصيان انما يشهد الواقع أنهم أكثر من المؤمنين تحضرا ، وأنهم أعظم تفوقا من الناحيتين المادية والتكنولوجية .. وبرغم انفكاكهم عن عرى الدين ، وعبادتهم للعقل كبديل لله .. فانهم

يسلكون سلوكا طيبا فى حياتهم ونحو زملائهم ، ويحافظون على النظام العام والآداب فى مجتمعاتهم ..

وهؤلاء المنافقون يواصـــــلون هجومهم على الدين القيم ، والشريعة الغراء ، ويدعمون هجومهم بحال المسلمين السيىء فى هذا العصر الخرب ، من تناحرهم وتصارعهم وتبطلهم واندحارهم وتفككهم وظلم بعضهم لبعض .. وينتهون آخر الأمر الى تساؤل خبيث :

هل يمكن أن يقال الآن ان المسلمين سيدخلون الجنة ، وان الكفار سيخلدون فى النار ؟ ..

اننا اذا قسنا الامور بمقاييسنا المادية ، وقيمنـــا الواقع بمدركاتنا الحسية ، وحكمنا على الأحداث بفكرنا العقلانى، وقعنا فى الريبة والشك والقنوط واليأس .. وربما عذرناهم فيمـا يزعمون .. أما اذا أطعنا الله ورسوله . وعملنا بما علمنا ، وصدقنا وأخلصنا فتحت لنا السبل ، والهمنا بالحقائق ، وتوصلنا الى اليقين .. وخلصنا بأن قضية الخلق انما تتحدد فى الفكر والايمان ، فى لا اله ، وفى « لا اله الا الله » ويدور حول هذه القضية كل شيء ، وبها يتقرر مصير كل انسان على هذه الأرض سواء الى جنة النعيم أو الى العذاب المقيم .

ولايهمه تعالى مفهومنا المادى عن التحضر ، ولا يحكم تعالى على صلاحنا بتفوقنا التكنولوجى أو العسكرى ، ولا يميز فئة دون أخرى لمجرد احترامها القانون الوضعى الظاهرى ، والنظـــام الاجتماعى الذى شرعه البشر من دون الله ..

ان سعى الاوروبى أو الغربى الدائب للتفوق الاقتصادى والحضارى والثقافى ليس مسوغا لدخوله جنة الله ، وليس دليلا على صدقه واخلاصه فى تعمير الأرض التى حض الله على تعميرها ... وليست ورقة عمل فى الدنيا تكفل له السعادة فى الآخرة .

ان محافظة الغربى « الملحد » على النظام ، واحترامه للقواعد القانونية المتفق عليها ، واتفانه للعمل الموكل اليه،وبذله للجهد من أجل حياة أفضل وايسر .. شىء غير منكور .. اذا كان يهدف به وجه الله . لأنه تعمير فى الأرض وسعى من أجل الرزق .. وعبادته .. أيسعى من أجل تحقيق لا اله الا الله .. أم من أجل تحقيق ذاته ، وابراز تفوقه ، ومشاركته لله فى ملكه .. وادعاء الخلق .. والسجود للعقل .

ان قضية ادعاء الربوبية والغرور والعجب بالنفس قضية قديمة وحديثة فى آن واحد .. فلقد تطاول فرعون على الله وادعى الالوهية ، وظن أنه مخلد فى الأرض،وقال لقومه انا ربكم الأعلى .. كما ورد فى القرآن قول عز من قائل :

« وقال فرعون ياهامان أبن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب .. أسباب السموات » (غافر : ٣٦ ـ ٣٧)

لقد أراد فرعون أن يستظهر قوته ، وأن يؤكد على جبروته وسطوته وقد جمع الله له ـ لحكمة ـ كل أسباب السلطة فى عصره ، وفتنه بالعدة والأدوات التى يصنع منها مايريد .. وأمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا يتعالى فى السماء ، لكن هذا البناء

لم يكن لعبادة الله،ولم يكن ذلك التعمير من أجل لا اله الا الله ٠٠ وانما كان تحديا للربوبية ٠٠ وتعديا على خالقه وموجده ٠٠

ان تحدى الكافر واعتراضه على الله٠٠مشكلة انسانية تظهر فى كل وقت وحين ٠٠ وامهال الله للكـــافرين ، وتمكينهم فى الأرض ، واظهارهم بمظهر القوة والحكم ليس الا فتنة لهم ٠٠ وتيسير الأدوات والمستحدثات والمستكشفات لهم،ليس يعنى صلاح أمرهم وتقدمهم فى السلوك الاخلاقى السليم وسيرهم فى الطريق المستقيم ٠٠

لقد هدم صرح فرعون بأمر الهى ، وازيلت من الوجود أمم ذات حضارات عظيمة ، ومحيت مدن يحكى لنا التاريخ روعـــة عمارتها ، وتقدم حضارتها وتفوقها على غيرهـــا فى الفنون والصناعات والعلوم ٠٠ فلماذا يأمر تعالى بازالتها من الوجود ٠٠؟

تتوالى الآيات البينات فى الرد على هذا التساؤل ٠٠ ويفيض القصص القرآنى بذكر هذه الأمم ، وما انتهت اليه من نهايات شقية تعيسة كقوم نوح ولوط وعاد ، فقد مكنها الله فى الأرض لكنها عصت أمر ربها ، وكفرت بأنبيائه ورسله ٠٠ وزعمت كذبا وظلما بأن لا الله،الا ما كان يعبدونه من دون الله ٠٠ فحقت عليهم كلمة العذاب فى الدنيا وفى الآخرة ٠

وها هى الحضارة الغربية الحديثة ترفع شعار التحدى ٠٠ وتعترض على كلمة الله ، وتسخر من ايمان المؤمن ، وتظن كما ظنت الأمم الغابرة أنها مخلدة فى الأرض ، وأن ما اصطنعوه من

أسباب التقدم العمراني والتفوق التكنولوجي لن يبيد أبدا ٠٠ وكأن قصة صاحب الجنة تتكرر في العصر الحديث :

« ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما اظن أن تبيد هذه أبدا »
(الكهف : ٣٥)

ثم يقول له صاحبه المؤمن وهو يعظه :

« ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله »
(الكهف : ٣٩)

« لكنه لم يفعل لغروره بالدنيا وطول أمله فيها ، وتحديه لله فكان انتقامه تعالى شديدا :

« واحيط بثمره، فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهي خاوية على عروشها ، ، ويقول ياليتني لم اشرك بربي احـــــدا »
(الكهف : ٤٢)

ان لا اله الا الله غاية كل شيء ، وهي هدف الحياة في كل شيء ، وبدونها يفسد كل شيء ٠٠ انها كلمة التوحيد التي من أجلها خلق كل شيء ٠٠

ان تقدم الملحد الغربي الحديث من الناحية العمرانيـــة والتكنولوجية ، ليس دليلا عن تفرقه على المسلم المؤمن ٠٠ اذ التفرق المادي ليس بالضرورة العذمة المميزة للصلاح والاصلاح ، بل ربما يكون دالة على الفساد والافساد ، وطريقا يقود الى الدمار والخراب والتعاسة الأبدية ٠٠

ان الاوروبى الملحد يعلن فى تبجح :

« لا اله والكون مادة » ٠٠

ان الطبيعة خلقت نفسها بنفسها ولا أثر للخالق » ٠٠

فهل هذا الا قول الغابرين فى الأمم السابقة والتى دمرها تعالى تدميرا ٠٠ فاذا امهلهم تعالى لحين،فلن يهملهم فى كل حين ، واذا أعطاهم الدنيا فلا نصيب لهم فى الآخرة :

« ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها،وماله فى الاخرة من نصيب » (الشورى : ٢٠)

الموضوع هنا ليس موضوع حضارة مادية تقاس بالمظاهر والأشكال والزخارف ، وليس الرقى رقيا فى الملبس والمسكن والمأكل ٠٠ وانما الرقى فى النفس المتطهرة ٠ الرقى يحسب بحسابات القربى من الله ، والخوف من وعيده ، والرجـــاء فى وعده ، ونصرة كلمة التوحيد ٠٠ والحضارة حضـــارة القلب السليم ، وثقافة العقل الرشيد ، وتقدم الانسان المؤمن فى معرفة الله ، والعمل بما يأمر والنهى عما حرم ٠٠

الحضارة الحقيقية للانسان أن يسخر العلم من أجل عبادة الله فى الأرض ، والسعى من أجل تحقيق كلمة لا اله الا الله ٠٠

لقد اغترت ملكة سبأ بملكها ، وافتتنت بحضارة أمتها ، فقد أوتيت من كل شىء فى الدنيا فنسيت أمر ربها ، وعبدت وشبعها الشمس كما ورد عن الهدهد فى قول عز من قائل :

« انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ٠٠ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون »
(النمل : ٢٣ ـ ٢٤)

ويبين تعالى لقوم سبأ ان كثرة المال والعدة والعتاد لا أهمية لها ، وأنه يمكن ان يبيد ذلك كله فى لمح البصر ٠٠ وأظهر تعالى عى يد نبيه سليمان عليه السلام بعضا من علمه ، فطلب سليمان عرشها فأتى به مؤمن قبل ان يتحرك جفن عينيه ٠

هناك بون شاسع بين صاحب حضارة مادية ، مهما كانت ، وبين صاضب كلمة التوحيد المؤمن بكتاب الله وعلم الله ٠٠ فهذا المؤمن لا تبهره الحضارة المادية لأن ما عنده أكثر ، ولا تفتنه المستحدثات والمستكشفات ، فقد أنعم الله عليه بأعظم من ذلك كله ٠٠ لقد أفاض عليه بنعم وعطايا ومنن مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ٠٠ فكيف تهزه الدنيا بما فيها وما عليها ٠٠ وقد فتح الله له أسباب السعادة الأبدية فى كلمة التوحيد ٠

ان المسألة اذن ليست فى نجاح أمة نجاحا دنيويا ، وتفوقها عمرانيا وتكنولوجيا ٠٠ بقدر ما هى مسألة نجاح فى تجاوز ظلمة الجهل الى نور العلم ، وتفوق النفس على الشرك بالايمان ، وتقدم الانسان فى طريق لا اله الا الله ٠

فاذا ظن الملحدون أنهم ناعمون ، وفى حضارتهم خالدون ٠٠

وقد يسرت لهم سبل العيش الطيب ، وجلبت لهم وسائل الرفاهية حتى أملوا فى الدنيا ، واعتقدوا أن ذلك لن يبيد أبدا ٠٠

اذا ظنوا ذلك فقد سلط الله عليهم الشياطين يلقون فى قلوبهم الرعب ، فظاهرهم النعيم ، وباطنهم المقيم :

« وقذف فى قلوبهم الرعب » (الاحزاب : ٢٦)

« اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » (الفتح : ٢٦)

« وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا » (الأنعام : ٢٥)

انه بدون لا اله الا الله يفسد كل شىء ، مهما ظهرت لنا صور من الصلاح الظاهرى ، وبدون لا اله الا الله نخسر كل شىء مهما تمتعنا متاعا زائلا اذ لا طعم ولا معنى ٠٠ وبدون لا اله الا الله نعيش حياة الخوف والفزع والرعب واليأس والقنوط مهما ظهر للعيان من تفوق حضارى ، وتقدم تكنولوجى ، ونجاح مادى ٠
لكنا نتساءل : هل يتساوى الناس فى معرفة لا اله الا الله ؟

يختلف الناس فى تفهم « لا اله الله » فمنهم من يرددها بطريق المحاكاة والتقليد ، مقتديا بوالديه أو بمعلميه دون أن يتعمق معناها ويتعرف على مغزاها ، ويسلك فى اتباعها طريقه تعالى ، وانما يدفعه قولها حسن الظن بمعلميه ، وما اكتسبه من العادات التى نشأ عليها وتربى فى ظلها ٠

أما اذا تأمل معنى « لا اله الا الله » وعلم انه لا خالق سواه ، فقد تقدم خطوة فى طريق الله ـ سبحانه وتعالى ، واقتنع قولا وفعلا أن لا اله الا الله ، وارتفع درجات فى باب المعرفة عن طريق التأمل وطول النظر .

ثم أنه اذا قال « لا اله الا الله » واقتنع بأن لا اله الا الله ، وصدق فى قوله وقناعته بأن لا اله الا الله ، واخلص فى ذلك ، توصل ـ يأمر الله ـ الى درجة أعلى ، وعلم أوفى ومعرفة أتم .. وامسى اعتقاده هذا من الصعوبة بمكان الاقتناع بغيره ، فهو يأنس به ، ويدافع عنه ، وربما يستشهد فى سبيله .

فاذا هداه الله لقول « لا اله الا الله » والاقتناع بأن لا اله الا الله ، والاعتقاد فى ان لا اله الا الله ، فاذا هداه الله الى ذلك ، توصل بمنة من الله وفضل الى الايمان بأن لا اله الا الله وهنـــا يحظى المؤمن بالسكينة .

« هو الذى أنزل السيكنة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » (الفتح : ٤٠)

وفى هذا المقام ينعم عليه بالمبشرات وهى رؤى يراها المؤمن فتتحقق له ، ويفيض الله عليه بالنعم والمنن والعطايا والهبات ، حتى يصل الى ذروة الايمان ، ويقترب الوريد من الوريد ، فيعرف قولا وفعلا ، واقتناعا واعتقادا ، ايمانا وشهودا : ان لا اله الا اللـــه .

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائمـــا بالقسط » (آل عمران : ١٨)

وفى الشهود وهو قمة التوحيد ، وذروة الاصطفاء ، تسرى فى قلبه وجسمه ونفسه جميعا أنوار الربوبيـــة ، ويلهم ببعض المعارف الرحمانية وينال المنازل الرفيعة ، ويرى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ٠

فاذا انتقل نزل فى جنة النعيم ليلقى ربه راضيا مرضيا ، وقد أعد له فى مقام صدق مما اعد للمقربين ، كما وعد رب العالمين :

« على سرر موضوعة متكئين عليها متقابلين ٠ يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ٠ ولا يصدعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ٠ ولحم طير مما يشتهون ٠ وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ٠ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ٠ الا قيلا سلاما سلاما » ٠

« الواقعة : ١٥ ــ ٢٦ »

الباب الثاني

(غاية التربيــة الاســلامية)

الفصل الاول :

١ ــ عدم الشرك ٠
٢ ــ اقامة الصلاة ٠
٣ ــ الأمر بالمعروف ٠
٤ ــ النهى عن المنكر ٠

الفصل الثانى :

١ ــ الثقة بالله ٠
٢ ــ الصبر ٠
٣ ــ التواضــع ٠
٤ ــ اليقين ٠
٥ ــ الاعتدال ٠
٦ ــ الايثــار ٠

الفصل الثالث :

١ ــ الاحسان ٠
٢ ــ الوفاء ٠
٣ ــ التزهد ٠
٤ ــ الطاعة والقنوت ٠

مقدمـــــة :

يتبين للمتأمل فى آيات الله البينات ، انفراد المنهج الربانى بمفاهيم تربوية لا نجد لهامثيلا فى المناهج والنظم والفلسفات التربوية البشرية ، وهذه المفاهيم الربانية تستهدف خير الانسان، لا فى الدنيا فحسب ، انما فى الدنيا والآخرة جميعا ٠٠ ويؤسس المنهج الربانى على قيم كبرى تتضافر للوصول بالانســـــان الى الصلاح والاصلاح ، وشجب كل صور الفساد والافساد فى النفس والسلوك والمجتمع ٠٠

ويبدأ المنهج الربانى فى تبيان أهدافه وغاياته ، حتى يتبعه المسلم وهو مؤمن بمقاصده العظيمة ، عارف بفوائده الجليلة ، مصداقا لما أوحاه الله تعالى الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ٠

ويركز منهج التربية الاسلامى على قيم العدل ، والاحسان ، والاخاء ، والمساواة ، والعفو والرحمة والمعروف والاستقامة والصبر وكظم الغيظ ، الى غير ذلك من أفعال الخير وصالحـــــات الأعمـــــال ٠

وتبدأ مسئولية الأم فى واجباتها التربوية منذ مرحلـــــة الرضاعة ، بل قبل ذلك مع بداية شهور الحمل للجنين ، وفى هذه المرحلة تضحى الأم براحتها ، وتتحمل فى جلد وصبر هذا الحمل الذى يزيد وزنه يوما بعد يوم ، ويتحرك فى أحشائهـــــا مسببا لها الوهن والضعف والآلم ، لذلك يذكر تعالى الانســـــان برسالة الأم ، ويوصيه خيرا بها فى آيات بليغه معجزة :

« حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » (الأحقاف : ١٥)

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن »
(لقمان : ١٤)

وعندما تضع الأم وليدها ، تبدأ مسئولية الأبوين فى الرعاية والانفاق والتربية ، حتى يبلغ رشده ، وفى هذه الرحلة الطويلة يكتسب الطفل عاداته وأخلاقياته وقيمه ومفاهيمه وعقيدته ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« يولد المولود على الفطره وأبواه يمجسانه ويهودانـــه أو ينصرانه ٠٠٠»

ومن هنا كانت مهمة الأبوين فى التربية جد خطيرة ، فالطفل يحاكى أبويه فى سلوكهما ، ومعتقداتهما وأخلاقهما لحسن الظن بهما ، ولعلمه أن ما يفعلانه أو يقولانه هو ما فيه الخير لـــه ، فيقلدهما ، ويسعى للتوحد بهما وتقمص شخصياتهما ٠٠٠

واذا كان الأبوان متفاهمين مؤمنين ، ربطت المودة والرحمة بينهما وقويت عرى الزوجية ، ونشأ الطفل فى جو آمن مستقر ، تربى على الايثار والمحبة والاخلاص ٠٠خ أما اذا كانا مختلفـــان متشاحنان أبدا ٠٠ نشأ الطفل متذبذب الفكر ، فاقد الطريـــق مهلهل الشخصية ، عنيفا أو عدوانيا ، شقيا أو تعيسا ، الا مارحم ربى وتولاه من يحسن تربيته غيرهما ، ويقيم عودة على منهـــج التربية الاسلامية ٠٠ ولقد تولى تعالى موسى عليه السلام برحمته بعد أن تربى فى بيت فرعون الكافر ، وأوحى اليه واجتباه وعلمه ما لم يحظ به فى طفولته ومالم يرشد اليه فى صباه :

« قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين »
(الشعراء : ١٨)

أبى موسى عليه السلام أن تكون تربيته فى بيت فرعون نعمة، ذلك أن فرعون كان جبارا ظالما ، يفرض على بنى اسرائيل أن يعبدوه من دون الله ، وانه كان سفاحا يقتل ابناءهم ، حتى أن أم موسى ألقته فى اليم لينجو من القتل فآل الى بيته ولولا ذلك لرباه والداه ..

« وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل »
(الشعراء : ٢٢)

ان التربية الحقة انما تكون فى تلقين الطفل أعمال الخير ، وارشاده الى الصراط المستقيم ، وتعليمه الأخلاق الطيبة ، وذلك كله لا يمكن أن يتحقق الا بالايمان بالله وعدم الشرك به تعالى ، وهذا وارد فى وصية لقمان لابنه فى قوله تعالى :

« واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم » (لقمان : ١٣)

ثم يتابع لقمان عظته لابنة فيقول له :

« يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، وأصبر على ما أصابك ، ان ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختال فخور ، وأقصد فى مشيك، وأغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير ... » (لقمان : ١٧ ، ١٨ ، ١٩)

يتبين للمتأمل فى الآيات القرآنية أن أساس التربية يكمن فى عدم الشرك بالله ، وقد ظهر لنا من الأمثلة التى سقناها عن موسى عليه السلام وعن لقمان فى وعظه لابنه ٠

ويمكن أن يندرج تحت عدم الشرك بالله القيم والمفاهيم التربوية الاخرى ، وذلك من واقع الآيات القرآنية ونمثل لها ببعض الفضائل الاخلاقية والسلوكية كما وردت فى كلام اللـه كأسلوب تربوى صالح فى الحياة الدنيا والآخرة :

١ ـ عدم الشرك ٠
٢ ـ أقامة الصلاة ٠
٣ ـ الأمر بالمعروف ٠
٤ ـ النهى عن المنكر ٠
٥ ـ الصبر فى الشدائد ٠
٦ ـ التواضع وعدم التكبر والعجب والاغترار ٠
٧ ـ الاعتدال والتوسط فى المشى والكلام والطعام والنفقة ٠
٨ ـ الايثار ٠
٩ ـ الاحسان ٠
١٠ ـ الوفاء ٠
١١ ـ التزهد وصلاح النفس ٠
١٢ ـ الطاعة ٠

عـــدم الشرك

أولادنا .. فلذات أكبادنا ، وزينة حياتنا ، وأمل دنيانا .. بهم تعظم الأماني ، ولهم نشد الرحال ، ونصارع الأمواج ، ونجهد أنفسنا بالكفاح والعمل ... لا نبخل بشيء يسعدهم ولو كان عزيزا ، ولا نحرمهم من الحياة الرغدة اليسيرة ولو كنا نقـــاسي شظف العيش والفقر في المال ..

نهاجر الى البلاد البعيدة ، ونعبر وديانا ونمخر بحارا،ونطير سماء .. ونسعى من أجل لقمة العيش لنقدمها بعد جهد وتعب الى أولادنا ، سائغة ميسرة ، ونحن سعداء بذلك ، وعرق أبداننا لم يجف بعد ...

هذه قصة تتكرر في كل زمان ومكان ، ورسالة يحملها الأباء عن الاجداد ، لتقدم بشكل أو بآخر قيم الانسان من ايثار وتضحية وبذل وعطاء ....

وتمضي الحياة بحلوها ومرها ، بسعدها وشـــقائها ... لتسلم الرسالة الى الجيل الجديد وتعطى الأمانة الى الشباب الصاعد في رحلة العمر المتجددة ، ويوصي الأباء الأبناء ، كمـــا أوصى الأجداد من قبل الآباء ، ويستقيم الأمر أحيانا ويعتدل ، ويعوج أحيانا ويظلم ويجور ... وتتبدل الظروف وتتغير الأحداث الآمال والأماني والظنون .. .فيتحمل الابناء ثمرات أعمالهم خيرا بخير وشرا بشر ، لكن العظة واجبة ، والدين النصيحة ومن لم يتعظ من والديه يلقى من أمره شططا ....

وان أول ما يتوجب على الآباء تلقين أبنائهم به ، هو التركيز على رسالتهم فى الحياة الدنيا ، وافهامهم أنها مع زينتها وحظوظها ومفاتنها دار غرور لا دار بقاء وسرور ،وأن أهم ما فيها لا يساوى الى عند الله جناح بعوضة ، لذلك فأنه يلزم أن يتفهم الابناء أن رحلة الحياة قصيرة مهما طالت وان لله الرجعى ...

يجب ان تكون عظة لقمان لابنه نبراسا يستضىء به الآباء فى توجيه أبنائهم ، وسراجا يقودهم من الظلمات الى النور ... وأعظم ما تقدمه العظة الصريحة الواضحة قول لقمان كما ورد عن عز من قائل :

« يابنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم »
(لقمان : ١٣)

لو وعى الأبناء هذه النصيحة،ما وقعوا فى الاثم وما تراكمت عليهم البلايا والأخطار ، ولعاشوا فى أمن نفسى وطمأنينة قلبية وقد ابتعدوا عن القلق والكآبة وظلم النفس واليأس والقنوط ...

ان قضية هذا العصر وقضية كل عصر ، هى وجود الظلم ، وأفدح أنواع الظلم الذى يبدأ بالشرك أو ينتهى اليه ، والنفس الظالمه غرور مغرورة ، قانطة يائسه ... تعبث بها شياطين الانس والجن ، وتقودها الى الغواية وترمى بها آخر الأمر الى الضياع والشقاء الابدى .....

والنفس الانســـانية تحتاج الى التربية المستمرة والتذكرة المستديمة ، والوعظ الصادق الأمين ، حتى لا يعتريها الصدأ ،

ولتأمن من رياح الشرك العابثة ، وتبتعد عن الأمواج العاتية حيث شط الأمن والامان ٠٠٠

ان التمسك بلا اله الا الله ٠٠٠ تقوية للعزائم وشحذ للهمم، وقيادة الى طريق الهداية ، وايصال بالعمل المخلص البناء ٠٠٠

وباسمه تعالى تصبح النفس مطمئنة فى طريقها ، مجاهدة فى سعيها ، صادقة فى وعدها ، أمينة فى أخلاقها ٠٠ وبذكره تعالى تطهر السبل من العوائق ، وتصفو النفس من الهواجس وتبتعد عن الوساوس ، فلا يقترب الرجيم من صاحبها ، ويخاف الشيطان من نار الحريق عندما يجاورها ، وهذه النفس رحيمة على المؤمنين شديدة البأس على المشركين ٠٠٠

وهكذا ينشأ الأبناء أقوياء مع الله ، شرفاء مع الحق،لا تغرهم زينات الدنيا ، ولا تبهرهم حضارتها المادية ٠٠٠٠ وبذلك يحملون الامانة الى الجيل الصاعد ويسلموا لمن بعدهم ما سلمناهم من الرسالة ٠٠٠٠٠

فما أعظم الفرق بين منهج الاسلام التربوى وبين المناهج البشرية فى الساسيات التربوية ، فالاسلام يتفوق على تلكم المناهج بمفاتيح ذهبية لا يغشاها الصدأ ، تفتح بها أبواب النفس دون عنت أو اكراه أو تزييف ٠٠ فتشرق بالنور بعد الظلمة وبالعلم بعد الجهل وبالأمن بعد الخوف وبالامل بعد اليأس والقنوط ٠

وأساس هذا التفوق يقوم على الوسط العدل وليس هـــذا

الوسط وسطا حسابيا أو تقريريا أو تجريبيا (١) كما نجده عند المتفلسفين،وانما هو وسط رباني لا يعتمد على ارهاصات فكرية، ولا تخيلات بشرية ولا ظنون حسية أو حدسية أو عقلية ، انه ذلك ذلك الوسط الذى يهديه الله تعالى الى عباده ، فهو صراط مستقيم وهو الاستقامة والقوامة والقصد والقسط والاقصاد والاقتصاد ، انه ذلك الينبوع الذى لا ينضب من العدل الالهى ، يشرب منـــه عباده على الاستمرار ، ويروى منه العلماء على الدوام ٠٠ فتسكن قلوبهم وتهنأ نفوسهم وتنشرح صدورهم فيمتلأون فهما وادراكـــا وعلما ، ويخرجون ثمرات يانعة من المعارف والحكمة :

(ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا)
« البقرة : ٢٩ »

لقد ظهرت شخصية المسلم المؤمن عبر التاريخ وكأنهـــا قوة لا تقهر ، وطود شامخ يعجز العدو عن مواجهته كان من كان من القوة والعدة والعتاد ٠٠ فالمؤمن يخافه الأعداء ويأمنه الأصدقاء ٠٠٠ وهذه الشخصية المزدوجة المظهر ، متوحدة الباطن ومتوازنة ومعتدلة ومستقيمة لا انفصام فيهـــا ولا تفكك ولا انحلال ، وانما يأتى الانطباع من الرائى أو المتفاعل معها بحسب صدقه وكذبه ، فاذا كان عديم الايمان بالله،شعر فى مواجهة الشخصية المؤمنة بالخوف الشديد ، واذا كان قوى الايمان شعر بالأمن والأمان والراحة والتعاطف الشديد :

(أشداء على الكفار رحماء بينهم) **« الفتح : ٤٨ »**

فمن أين جاءت اذنهذه القوة التي يمتاز بها المسلم المؤمن؟ ..
لا شك أن هذه الشخصية تكونت فى ظل التربية الاسلامية السمحاء ، ومن خلال سياسة نفسية انصهرت داخل بوتقة الايمان .

لم تتكون شخصية المسلم عفوا أو صدفة ، وانما تكونت بعد محاكاة وتكلف للقدوة الحسنة ، وهى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم تطبع بها وتحلى بسلوكها وأخلاقها وأقوالها وأفعالها .

فالمسلم المؤمن يستضىء بنور القرآن العظيم ، ويسلك سلوك الرسول الكريم ، وبذلك يحظى ببعض معالم الشخصية المحمدية التى استن بسنتها وتطبع بها فكرا وعملا .

والاسلام يربى الانسان على اخلاص العبودية لله وحده ، فلا يخاف الا الله ولا يرجو أو يتوسل غيره من الانس أو الجن .. و لايبث حزنه أو شكواه الا اليه تعالى .. ومن هنا كان المسلم المؤمن ذا شخصية قوية منذ نعومة أظافره . فالطفل الصغير ربما يقول كلمات حكيمة يعجز الكبير غير المؤمن عن فهمها أو الاهتداء الى مثلها .

مر سيدنا عمر بن الخطاب(١)رضى الله عنه،على صبية يلعبون وكان بينهم زيد فهرب الاطفال الا زيدا . فقال له الفاروق عمر : لم لم تهرب ؟! .. فقال زيد : لم يكن الطريق ضيقا لأوسع لك .. ولم أكن أخافك لأهرب منك .

---

(١) ابو الحسن البصرى . ادب الدنيا والدين

من أين جاءت هذه الفطنة وتلك الكياسة فى السـلوك ، والجرأة فى الحق ، لطفل لم يشب بعد عن الطوق ، ولم تكتمل رجولته بعد .. ثم انه يكلم من .. انه يكلم الفاروق عمر الذى كان يخافه الشيطان ، ويرتعد منه كل جبار عنيد .

ان رد ذلك الطفل انما هو ثمرة يانعة لسياسة التربية النفسية الاسلامية ، التى لا تعرف الخنوع والاذلال ولا الخوف والفزع .. سياسة تقوم على تقوية الثقة بالله والاسترسال معه على الدوام .. فكيف ينشغل العبد بالله،ولا يلهمه تعالى بالقول الثابت والرأى الصائب والحكمة الخالدة .

يسأل الأصمعى فتىً مسلم صادق ، أتحب أن يكون لك مائة ألف دينار وأنت أحمق .. ؟ يرد الفتى فى سرعة ليقول له : لا .. فيمتحن الأصمعى الفتى فيسأله : ولم لا ؟ فيرد الفتى فى حكمة الحكيم قائلا :«أخاف أن تجنى على حماقتى جناية فتذهب بمالى.. ويبقى لى حمقى » .

عجبا من هذا الرد الذكى اللبق .. والذى يدل على قوة المنطق ورجاحة العقل وسلامة القلب وطهارة النفس من شوائب المادة وأدران الشهوات .

ولا شك أن ذلك كله نتيجة لازمة للتطبع بالآداب الاسلامية والاخلاق القرآنية والتربية الربانية ، انها نتيجة العمل بأحكام الدين القيم وبشريعته السمحاء .

وتبدأ التربية النفسية من قول عز من قائل على لسان عبده المجتبى لقمان عليه السلام فى وعظه لابنه :

(يابنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم)
« لقمان : ١٣ »

تبدأ التربية الاسلامية من نزع الشرك الظاهر والخفى من النفوس فتتخلى بذلك من الظلم والرياء والفسوق والعصيان ٠

ثم تستعد النفس بعد سلب كل شرك عن النفس بملء جرة القلب بدين التوحيد الخالص ٠٠ والتوحيد سلب وايجاب ، سلب كل ما عدا الله وايجاب للالوهية المنزهة عن كل شرك ، وتظهر هذه القمة التوحيدية فى لا اله الا الله ٠٠ نعم لا اله الا الله حقا وقولا ٠٠ وتحتها يندرج كل شىء وبعدها يتحدد كل شىء ٠٠ ومنها تنعقد السياسة التربوية الاسلامية .

لا الله الا الله ٠٠ هى معلم الصبى والفتى والشيخ الكبير ٠٠ فيها يعرف العبد موقعه من هذا العالم ، فيحمل هذه الرآية طيلة حياته لا ينكسها أبدا ٠٠ وبها يستقيم حال المسلم فيقوى مع الله وبالله وفى سبيله تعالى ٠

وتندرج تحت لا اله الا الله كل شىء ٠٠ فاذا آمن المرء بأن لا اله الا الله فانه لا يتقاعس عن تأدية حقوق الله عليه من صلاة وزكاة وصيام ٠٠ وما دام يعرف حقوق العبودية ، فأنه سيأمر بالمعروف كما أمره الله وسينهى عن المنكر كما أوصاه تعالى ٠

ومن هنا تمضى سياسة التربية النفسية معتدلة مستقيمـــة

مسترشده بكلام الله مهتديه بمنهاجه تعالى ·· فتخلص النفس من الضعف وذل الشهوات والتكالب على اللذات الدنيوية ·· وتهنأ بمجاورة كلام الله وعلم الله ، وتتنعم بالعيش الرغد فى ظل الطاعات والأعمال الصالحات ·

ان نفسية المؤمن الصغيرة أو الكبير، لها خصائص فريدة وسمات وميزات عظيمة ·· كلها نابعة من لا اله الا الله ·· من التوحيد الخالص ·· وهذا ما يظهر فى وصية لقمان لابنه ·· فبعد سلب الشرك الظاهر والخفى ·· الصلاة ثم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ·· وعند ذلك أو عندما تتشرب النفس بتلك الخصائص الفريدة من الناحية الوجدانية ·· يأتى دور تكوين الشخصية الاسلامية التى تمتاز بالتواضع والسخاء والاحسان والصـــدق والوفاء والرحمة والايثار والثقة بالله · يقول لقمان لابنه كما ورد عن عز من قائل :

(ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا)
« لقمان : ١٧ »

وهكذا ينشأ الفتى المسلم على عادات طيبة وأخلاقيات مثاليه ثابتة ، ومفاهيم رائعة وقيم صالحة لكل زمان ومكان ·· تبدو لكل مفتقر اليها نموذجا يود أن يحاكيه ، وهذا ما نجده عند كثير من الغربيين الذين يختلطون ببعض المؤمنين، فيحسدوهم على ثقتهم بالله ، وبأنفسهم مهما لاقوا من الشدائد والعوائق والصعوبات ، ويحسدونهم على تواضعهم وبساطـــة حياتهم وعدم تكلفهم فى الغذاء واللباس ، ثم يحسدونهم أيضا على قدراتهم الفائقة فى

ضبط النفس وعدم موافقــة الأهواء والحظوظ من سكر وعربدة وحب للهو والعبث الرخيص ٠

ويتملك المشرك والملحد الغيظ من حياة المؤمن الهانئة ونفسه الآمنة وقلبه المطمئن ٠٠ ويكاد يموت غيظا وكمدا ٠٠ لأنه مع توافر المشتهيات،وانكبابه على الشهوات،واشباعه غرائزه النهمة الا أنه شقى تعيس ٠ ٠يشعر بالغرابة والقلق والوحشة لأنه بعيد عن الله ، والبعيد عن الله بعيد عن الحق والصواب ٠

ومهما تمنى من الأمانى أن يحظى مثلما يحظى المؤمن،بسويعات من الأمن النفسى ، فانه لن يتحقق له ذلك ، اذ المشغول بحظوظ الدنيا وشهواتها ومحجوب عن الحق تعالى ٠

واذا أراد أن يصل الى الأمن ، ويتحقق له الاستقرار والراحة النفسية،فعليه أولا وقبل كل شىء أن يقتنع ويعتقد بأن لا اله الا الله ٠٠ وبعدها يحظى ــ منة من الله وفضلا ٠ بالطمأنينة التى يفتقر اليها وعليه أن يتأكد من : (أن الدين عند الله الاسلام) ٠

٢ ــ اقامة الصلاة

يؤكد القرآن الكريم على المحافظة على الصلاة ، وتأديتها فى مواعيدها المقررة ، ويبين للمسلم الثمار التى يحظى بهـــا عند مداومته عليها ، وعدم التكاسل فى تأديتها ، ويتوعد اللـــــه المقصرين والمهملين والساهين عنها ٠٠ وذلك فى آيات بينـــات معجزات منها قوله تعالى : ــ

« قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة »
(ابراهيم : ٢١)

« وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقامة الصلاة »
(الانبياء :٧٣)

« أتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة »
(العنكبوت : ٤٥)

« ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »
(العنكبوت : ٤٥)

« قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون »
(المؤمنون : ٢)

« والذين هم على صلاتهم يحافظون »
(المعارج : ٣٤)

« فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون »
(الماعون : ٥)

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة »
(البقرة : ١٥٣)

« إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا »
(النساء : ١٠٣)

فالصلاة تعاون على الاستقامة ، تريح النفس من مغالبة الشهوات ، وتنزل الى القلب الأمن والسكينة ، وتطهر الانسان وتزكية بصالحات الأعمال ، ثم انها تعطى للانسان الأمل فى الحياة الدنيا والآخره ، بما وعد الله به المؤمنين من الفلاح

والصلاح .. والصلاة تعلم الانسان كظم الغيظ ، وتربى فى نفسه الصبر على الشدائد ، وتعوده على التسامح والتواضع ، وتدفعه الى الايثار والعفو والاحسان ، وتغرس فى وجدانه الصدق والاخوة والمساواة والاخلاص ....

ان الشاب الذى يحافظ على صلاته ، انما يحافظ على نفسه ضد الفحشاء والمنكر والبغى ، ويربيها فى طريق الاستقامة والحق ، ويبعدها عن الريب والشك والغفلة ، ويزكيها بالخير ويجنبها الشر وبذلك ينصلح أمره فى الدنيا والآخرة ....

التعود على الصلاة :

يجد بعض المبتدئين - صعوبة كبيرة - فى تأدية الصلاة ، وفى مغالبة أنفسهم التى تهوى الراحة والتبطل،وتجد فى آداء التكاليف المفروضة عبئا ثقيلا ، وأحيانا يترك بعضها كسلا أو بدعوى الانشغال بأمور المعيشة والحياة والتمارض ... وربما يؤديها وهو غافل عنها ، فاذا استيقظ واعظ من داخله،سعى اليها نادما ليؤدى كل الفرائض المتروكه قضاء ، ويتكرر هذا الموقف منه ... وأحيانا يمر يوما أو يومين دون أن يركع ركعة واحدة ، وانما يصلى عندما يجد نفسه فى جماعة حيث يخاف أن يتهم بترك الصلاة ....

ومن الطرائف أن رجلا جاء الى رسول الله يشكو عدم مقدرته على الصلاة بدعوى انه يسعى كل يوم الى البادية للتحطيب ، وأن عمله يستغرق اليوم كله ، الأمر الذى لا يمكنه للحضور لصلاة الجماعة فى المسجد .. اذ يجد مشقة فى الحضور اليه ....

يقول له الرسول صلى الله عليه وسلم : كم تكسب من عملك؟ فيبين ذلك للرسول ــ فيقول له الرسول صلى الله عليه وسلم : يصرف لك كل يوم ما تكسبه لأربعين يوما ٠٠ على أن تصلى صلاة الجماعة ٠٠٠٠

وينطلق الرجل ليأتى المسجد مؤديا الصلوات بتمامها ٠٠ حتى اذا ما أنتهى الأجل ٠٠ توقف الرسول صلى الله عليه وسلم عن اعانته ٠٠٠ الا أن الرجل يستمر فى الحضور فيسأله الرســـول صلى الله عليه وسلم عن سبب هذا التغير رغم انقطاع اعانته ٠٠ فيقول الرجل صادقا : « لقد دخل الايمان قلبى يارسول الله ٠٠ فما عدت أطيق أن أفارق صلاة الجماعة ٠٠ لقد تعودت عليها ، وأصبحت فى كيانى ونفسى وقلبى جميعا » ٠٠٠٠

وهكذا فان العادات الطيبة والمحمودة تدفع بعيدا وتطرد العادات السيئة والمذمومة ٠٠٠

٣ ــ الأمر بالمعروف

لقد أفسدت النظريات الحديثة والمذاهب الغربية المعاصرة اخلاقيات الشباب بما تدعو اليه من الفسوق،وبما تنادى به من العصيان وما تأمر به الناس من الانفكاك عن عرى الدين والتحلل من الاخلاق ٠٠٠ وينشر السوق الاوروبية كل يوم دعاوى جديدة ومزاعم مغرضة تجعل من كل خير شرا ، ومن كل ما شر خيرا ، وتستهدف من ذلك خلق الشاب المستهتر اللامبالى الملحد الكـــافر المتمرد على كل فضيلة ٠٠

وتتصدر هذه المذاهب الباطلة،والنظريات المنحرفة،شعارات كاذبة تستهوى ضعاف الايمان ، ومن فى قلوبهم مرض ، فيروجون لافكارها الفاسدة وينشرون كلماتها وتعبيراتها السامة،لتنفث فى الناس فسادا وامراضا ثقالا ..

تزعم مدرسة التحليل النفسى التى يقود مزاعمها اليهودى سيجمونـد فرويد .. تزعم أن اصحاب مكـــارم الأخلاق مرضى نفسيون .. وتدعو الى العدوان والاعتداء عندما تحفز الناس الى الكراهية والحقد فتقول فى مزاعمها المفتراه على الحقيقة :

« **اذا لم تعتد يعتدى عليك** »
« **واذا لم تتذئب أكلتك الذئاب** »

لقد هبط اصحاب مدرسة التحليل النفسى بالانسان فجعلوه حيوانا أعجميا ، تتحكم فيه الغرائز الحيوانية ويحكمه قــانون الغاب .. وبدل ان يرفعوه كما رفعه الله وخلقه فى أحسن تقويم، هبطوا به ووضعوه فى أسفل سافلين ...

فكيف يمكن أن يربى تربية سوية ويخلق منه انسانا صالحا فى نفسه ولمجتمعه ... اذا كانت قواعد التربية تقوم على مصالحة العدوان .. ، وموافقة الاهواء ... ، واشباع الغرائز المحمومة ... والدوافع الشهوية الشيطانية ...

كيف يتسنى للمربين أن يخرجوا الى الحياة شبابا صالحا .. ما دامت مناهج التربية تحرض الفتيان والفتيـــات على التمرد والعصيان ، وتأمرهم بالتعرى والتبرج واللاأخلاق .. وتعاونهم

على التخلي عن كل فضيلة واتيان كل فاحشة ورذيلة ...

كيف يتكون مجتمعا نظيفا متآلفا متعاونا .. ما دام الشرك بالله شعارا لافراده ، والانانية والاثرة غايتهم القريبة والبعيدة، والاغترار والتكبر والتجبر سلوكهم فى الحياة والمجتمع ..

أناس ظلموا انفسهم ، وحضارة تبتغى غير دين الله دينا ، ومزاعم فاسدة تنهى عن المعروف وتأمر بالمنكر ....

أين ذلك كله من تربية القرآن الكريم، الذى يحض الناس كل الناس كبيرهم وصغيرهم على المؤاخاة والمساواة والمحبة والتسامح والصفح الجميل :

« وقولوا للناس حسنا » **(البقرة : ٨٣)**

« ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » **(البقرة : ١٩٠)**

« فاصفح الصفح الجميل » **(الحجر : ٨٥)**

ان المعروف قولا وفعلا هو الطريق الحق لتربية النفس ، كما انه الوسيلة المثلى للتعامل بين الناس ، لانه يعطى الثمار الطيبة للتآخى والتعارف والتعاون بين أفراد الاسرة والمجتمع والأمم... فاذا ذهب المعروف بينهم ، ذهبت معه القيم والاخلاق والفضائل جميعا ...

« قول معروف ومغفرة خير من صدقه يتبعها أذى »
(البقرة : ٢٦٣)

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » **(آل عمران : ١١٠)**

انها التربية المثلى تربية القرآن الكريم ... ذلك لأنها مواكبة لطبيعة الانسان ... لأن سبحانه وتعالى واضع اصولها وبنودها ... وكلها قائمة على المعروف والنهى عن المنكر ... فى جميع العلاقات بين الأب وابنه وبين الابن وابيه وبين الزوج وزوجه، وبين الارحام وفى الاسرة وفى المجتمع وفى كل منحى من مناحى الحياة تجد القرآن الكريم يربطها رباطا محكما بالمعروف :

« الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » **(التوبة : ١٢٢)**

« وعاشروهن بالمعروف » **(النساء : ١٩)**

« وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف »
(البقرة : ٢٣٣)

ان التربية الاسلامية تشجب كل فساد أو افساد فى الجسم والنفس والمجتمع ، وتربط العلاقات الاسرية والاجتماعية بوشائح من الخير والمعروف ، فتقوى بذلك الاخوة فى الله ، ويترعرع الشباب فى ظل مجتمع آمن ، واسرة متماسكة متآلفة متحابة فى الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ....

٤ ـ النهى عن المنكر

من فضائل التشريع الاسلامى ، انه يصلح فى التطبيق فى كل زمان ومكان ، فقواعده مرنة بحيث انها تستطيع أن تشمل كل شىء فى هذه الدنيا ، فى مشرقها ومغربها ، وان الأحكام الالهية ثابتة وصالحة فى السلوك العملى ، دون أن يمسهـا أى تغير أو تبديل مهما طال الزمن ، وهذا بخلاف التشريعات الوضيعـة والقوانين البشرية ، التى تتغير بتغير المجتمعات والبيئات ، فما كان بالأمس محظورا ، أصبح اليوم مباحا ، وما كان حلالا يصبح اليوم حراما ، ذلك لأن الانسان عاجز فى البداية والنهايـة أن يضع الأوامر والنواهى التى يمكن ان يقتدى بها الناس والعباد، اذ تحرك العقل البشرى العاجز مؤثرات خارجية ، تلعب دورا فى تغيير سياسة النفس ، ومن ثم سياسة المجتمع ، وهذا ما يلاحظ فى تقنين القواعد القانونية التى تنهى عن اشياء وتبيح أشياء ، فما زالت الانسانية ترضخ تحت نزوات البشر ، واشباعات الحس ومطالب النفس التى لا تتوقف عند حد ، ومهما ثبت للناس أن بعض الافعال تعد من المنكرات ، مثل احتساء الخمور أو الزنا أو اللواط ، أو غير ذلك من المعاملات الربوية والعلاقـات الغير مشروعة .

نقول أنه مهما ثبت للناس بالتجربة ان ذلك افساد وفساد وضلال واضلال ، فان الأهواء البشرية والنزعات الانسانيـة تغلب جانب الاباحة على جانب التحريم ، ولا يستطيع أن تسن

قواعد أو قوانين لها صفة الاحترام لتمنع هذا الفساد الذى ينتشر يوما بعد يوم ٠

فالاسراف أصبح طابعا للمجتمعات التى تسمى نفسها متقدمة ، والاسراف فى الملبس والمأكل والمشرب أمسى غاية الحضارة المادية الحديثة ، والغلو فى قدرات العقل البشرى أصبحت انكارا للالوهية ، وتجبرا وتكبرا فى الارض ، فساد المنكر ، واستبيحت الحرمات نتيجة لغفلة الانسان عن فطرته السليمة ، وابتعاده عن حظيرة الايمان ٠

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانون يفعلون »
(المائدة : ٧٩)

« انكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر » **(العنكبوت : ٢٧)**

لذلك فانه لا يمكن والحال هذه ، أن يتراجع أصحاب الشهوات والأهواء ، الا اذا رجعوا الى فاطرهم وموجدهم الذى شرع لهم من الدين ما هو خير لهم فى الدنيا وفى الآخرة ، وحدد لهم أفعال الخير وأعمال البر والأمر بالمعروف ، والذى يكفل لهم الأمن والسكينة فى الدنيا وفى الآخرة ، كما أنه تعالى بصرهم بما يضرهم ولا ينفعهم ، وهو اتيان المنكر وفعل الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبين تعالى أن الكافرين والجاحدين والفاسقين الذين ابتعدوا عن طريق الله ، وأشركوا ، لا يمكن أن يتعرفوا

على طريق المعروف ، أو يسلكوا طريق الحلال ، وهذا مؤيـــد في قول عز من قائل :

« تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر »

(الحج : ٧٢)

ومن هذا يتضح ، أنه لا حل في مجال تربية الانسان الا الرجوع الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما تحدد في شريعة الله وسنته المباركة ، فالحق أحق ان يتبع ٠

ان في التربية الاسلامية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحقيق أن يجعل الانسان متوازنا مستقيما ، يعرف حقوقـــه وواجباته نحو نفسه ومجتمعه وربه جميعا ٠

الفصل الثانى

١ ـ الثقة بالله

يبتلى المؤمن أحيانا ، ويعظم امتحانه بشتى أنواع العسر والشدة ونقص المال وفقدان الصحة والأولاد .... وتضييق الدنيا من حوله ، فيفقد الصديق الوفى والصاحب الأمين ... ويحيا حياته فى عزلة نفسية ، وان اجتمع مع الخلق وجلس بينهم ...

والمؤمن فى هذه التجربة لا تفتر همته ، ولا يتقلص عزمه ، بل على العكس تزيده المحن ايمانا ، والشدة ثباتا ، والعسر زهدا وورعا ، ولا يلجأ فى تلك الظروف القاسية يشكو للناس مصائبه ، ولا يتذلل لأحد من الخلق ...

وهكذا يمضى فى هذه التجربة ثابت الجأش ، راضى النفس ، مرتاح الضمير موقنا أن الله تعالى بجانبه ، وأنه عندما ابتلاه تلطف به ، وأن ما يحدث له الآن هو أيسر ما يمكن أن يحدث ، وأنه لو اختار غير ذلك لكان قانطا من رحمة الله ، يئوسا من عطفه ومنته ، لذلك فهو أبدا يذكر قول عز من قائل :

« عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » **(البقرة : ٢١٦)**

وتضيق الحلقة على المؤمن، حتى يحرم غيره أنه هالك لا محالة، وبدون مقدمات نعمة ، والعسر يسرا ، والضيق فرجا ..

وحياة المؤمن غير حياة غير المؤمن ، ان لها لذاتها وحلاوتها سواء كان ذلك عند الكرب الشديد أو النعم اللطيفة ··· فهو يتقلب بين خوف ورجاء ، بين توكل وعمل ، بين الرضا ومحاسبة النفس ·· انه دائما واع ··· يعرف هوى النفس فيغلظ لهـا القول ، ويطالبها بالطاعة لله ···· انه دائما فى توبة وندم على ما قد يظن أنه يخالف كمال العبودية لله ···

ان ثقة المؤمن بالله عظيمة ، واخلاصه تام ، وعلمه مقرون بالعمل ··· لا يعرف قلبه الا الطمأنينة ولا يستشعر الا الأمن والسكينة تصديقا لقوله تعالى :

« هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا »
(الفتح : ٤)

وأن بين المؤمن وبين الله رباط مكين ، وعروة وثقى لاحد لها ، وحب لا نهاية له ورضا لا رضا بعده :

« يحبهم ويحبونه » (المائدة : ٥٤)

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » (المائدة : ١٩٩)

ومن كمال الثقة فى الله ، الاحسان ، لذلك يسعى المؤمن جاهدا الى خدمة الضعيف والمظلوم ، وزيارة المريض ، ومواساة المكلوم ، ومساعدة الفقير ، والعمل على اصلاح الفساد ، ومصالحة الخصوم ، ودفع الضر عن المحتاج ، وسداد الدين عن المعسرين ، ومساندة اليتامى والانفاق على الأرامل والمعوزين ··وكل ذلك يفعله بلا تكلف ورياء ·· اذ هو طبع قد رسخ فى نفسه ، وأخلاق

نقية طاهرة تحلى بها ، وصارت جزءا لا يتجزأ من شخصيتـــــه الكريمة ..

ان الثقة فى الله تجعل من المحال ممكنا ، ومن الصعب سهلا ، ومن العوائق طريقا للسعى والخير والجهاد فى سبيل الله ...

وأعظم شخصية وجدت على هذه الارض ، شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وهى القدوة الحسنة لنا فى طريق الله ، وقد امتازت بالثقة التى ليس بعدها فى الله تعالى ثقة ، وها هو وصاحبه فى ابتلاء عظيم ، وقد اجتمع الكفار حول الكهف الذى يأويان اليه ، وكشروا عن أنيابهم يريدون بالرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه رضى الله عنه شرا ، ولا يبعد عن موقفهـــم أمتار ، ويصبر الرسول لأمر الله ، ويسكن قلبه ، وتهدأ نفسه ، ولا يزداد الا ثباتا وأمنا ، وفى هذه اللحظات الرهيبة يعترى قلب الصديق رضى الله عنه الخوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنا تبدو الثقة العظيمة فى الله ، ويظهر ذلك فى كلمات طيبات تدخل على قلب الصديق فتملأه سلاما وسكينة ، يقول له الرسول صلى الله عليه وسلم فى قول عز من قائل :

« لا تحزن ان الله معنا »   (التوبة : ٤٠)

وتتحقق هذه الثقة ، ويقف تعالى بجانب رسوله ، فيدفع عنه كيد المشركين ، ويعمى أبصارهم ، ويشككهم فى أنفسهم ، ويمحو عقولهم ، وينصر رسوله على الكفار نصرا مؤزرا ...

ان الثقة بالله تسير جنبا الى جنب مع الصبر ، فالواثقون بالله صابرون دائما ، فاذا نفذ صبرهم ضعف ثقتهم ، وبالتالى ضعف ايمانهم ...

والواثقون بالله لا يخافون شيئا ، ولا يخشون شيئا ، فهم أبدا مع الله يجاهدون فى سبيله ، ويخوضون أبدا عن رآية لا اله الا الله ، وبذلك يكونون هم الفئة الناجية من النار ...

٢ - الصبر

لا يتم الصبر فى النظرة الاسلامية الا بمعرفة سابقة ، فالصبر هو نتاج العلم والمعرفة ، وهو غاية من غايات أهل الحق والصدق (١) ، وتتركز فى الصبر الآداب الرفيعة والاخلاق القويمة ، والصبر صفة من صفات الانسان المؤمن ، وسمة من سمات المبشرين،لذلك فان الصابر يصبر عند الابتلاء،ويشكر على حال النعمة ، لكن البلاء فى الصبر أشق على النفس ، لانه انتظار للفرج ، ولن يتأتى هذا الفرج الا من الله تعالى ·

فالصابر فى موقف واع ، وهو طريق اختيارى يفضل فيه الصابر تحمل المكابدة على مقارفة الهوى ·

والتربية الاسلامية تأمر بالصبر لانه من فضائل العقل واذا قورن بالهوى ظهر لنا خساسة الهوى والشهوات التى تنهى الانسان عن الصبر ، والصبر هو عدم الاعتراض على ضياع ما يتلذذ منه الانسان،وما يحبه ويشتهيه،كما أنه صبر على ما يعانيه الانسان من آلام ، وتحمل للمحن والفاجعات ، فضلا عن الصبر على المكروه ، من كظم للغيظ الى العفو والاحسان ، فتعويد الانسان على الصبر انما هو فى نفس الوقت تعويد على طاعة الله ، لتكون ارادة الطالب متوجهة بالكلية اليه تعالى ، وبذلك يتجنب المعاصى فى سبيل تحقيق غاية نبيلة تصديقا لقوله تعالى :

« ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » **(النحل : ١٢٦)**

---

(١) راجع للمزيد «نحو علم نفس اسلامى» للمؤلف

والصبر اعتدال واستقامة وعزيمة وقصد ، فهو من سمات الانسان المؤمن النقى التقى ٠

« ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور »
(الشورى : ٤٣)

والصبر غير كبت الدوافع والرغبات ، فالصابر آمن لأنه ليس خائفا على ضياع شهوة،أو فقد لذة ، وانما هو يفضل الصبر وهو واع لما يفعل ، عارف بثمرات صبره :

« انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب »
(ص : ٤٤)

ويختلف الصبر عن الكبت فى آن الذى يكبت رغباته ، يصبح مشدودا خائفا ، مترددا قلقا مهموما مغموما متشائما مرتابا ٠

اذا تعود الانسان على الصبر ، فانه يتقوى بالله ومن الله ولله ٠ فهو موقف علم،فالجاهل لا يتحمل شيئا انما يختار الاسهل ويهرب الى الراحة والخمول،وهو امتحان فيه ينجح الانسان أو يفشل :

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين »
(محمد : ٣١)

ومن ثمرات الصبر ، أن الله سبحانه وتعالى يرزق العبـــد

الصابر نعما عديدة ، ويبشره بمبشرات تجعله راضيا أبدا، شاكرا على منن الله وعطاياه ، فبعد الشدة يسرا ، وبعد العسر والمجاهدة فرجا ورحمة ، خاصة اذ رضى العبد بقضاء الله ٠

وبذلك يكون الصبر من الوسائل التربوية الناجحة ، التى تعود الانسان على التخلية من النقائص والعيوب ، وتحلية نفسه بالفضائل واتباع طريق الاستقامة والعدل ، فهو تجنب للعدوان، ومخالفة للنزعات الشهوية والأهواء ، وممارسة للصفح الجميل والعفو والاحسان ، وبذلك تتحقق فى المجال التربوى الصحة النفسية ، لكل من جعل الصبر مرشدا له وهاديا ٠

٣ - التواضع

التواضع سمة من سمات المؤمن ، والله سبحانه وتعالى قد بين فى كتابه العزيز ، أنه يبغض المتجبرين والمتكبرين ، لأنهم يدبرون مع الله ، فالمتكبر رغم ضعفه وقلة حيلته ، الا أنه يغتر بنفسه ويتكبر على غيره ويتجبر فى الارض ، ويعتقد افكا وظلما وعدوانا ، انه يملك الوسائل والادوات لتدبير أمره دون معاونة من أحد ، ودون امداد الهى وتفضل ربانى ، الأمر الذى يجعله يفسد فى الأرض بعد اصلاحها ، ويشرك بالله ويدعى الربوبية وهو جاهل بنفسه وقلبه وربه جميعا ، فالتواضع هو سمة من سمات معرفة النفس وحدودها وامكانياتها ، فلا يظلم المتواضع

أحدا ولا يفترى ويزعم لنفسه ملكا وسلطانا وجاها انما هو يعلم ان سعيه واجتهاده بمشيئة الله وتوفيقه.وهو يستسلم لحسن تدبير الله واختياره ، ويجد لذة فى تفويض أمره الى ربه ، وعدم التظاهر بالعلم والمعرفة ، وانما يستمد علمه ومعرفته وعونه فى علمه وعمله من الله .

لذلك فهو يتواضع فى مشيه وكلامه وعلمه ، وهذا علامة الذوق السليم وطهارة القلب ونقاء السريرة ، بل هو علامة على صحة الايمان وحلاوة العمل فى طريق الله،وفى الأثر : «أن الله سبحانه وتعالى يحب المتقين ، وحبه للشاب التقى أشد ، ويحب الاسخياء وحبه للفقير السخى أشد ، ويحب المتواضعين وحبهللغنى المتواضع أشد » .

ويروى عن الرسول صلى عليه وسلم قوله :

اذا رأيتم المتواضعين فتواضعوا لهم ، واذا رأيتم المتكبرين عليهم .

ويحكى عن عمر بن عبد العزيز أنه قد أتاه ضيف فأنطفأ المصباح ، فقال الضيف : يا أمير المؤمنين أقوم فأصلحه . فقال عمر ، ليس من المروءة أن يستعمل المضيف ضيفه ، فقال يا أمير المؤمنين:أأدعو الغلام ؟ فقال عمر : لا ، انه نائم ، وقام عمر فملأ المصباح ، فقال الضيف : قمت بنفسك يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : ذهبت لأصلحة وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر ، وخير الناس عند الله من كان متواضعا ....

وقد رأت امرأة الرسول « صلى الله عليه وسلم » وهو يجلس كما يجلس العبد ، فقالت : أنظروا اليه ، فقال : الرسول «صلى الله عليه وسلم» : (عن أنس) انما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد ....

وروى عن عمر بن الخطاب أنه لما سافر الى الشام ، تناوب هو وغلامه ركوب الناقة ، فلما وصل الى مشارف الشام كان على عمر رضى الله عنه أن ينزل ويركب الغلام ، فدخل الشام وهو أمير المؤمنين يقود الناقة وعليها الغلام ، وهو يحمل نعله تحت ابطه اليسرى ، فقال له ابو عبيدة وكان أميرا على الشام: ان عظماء الشام يخرجون اليك فلا يجدر أن يروك على هذا الحال فقال عمر :

(انما اعزنا الله بالاسلام فلا ابالى) .

والتواضع سمة من سمات الأنبياء والأولياء الكمل ، وهم القدوة التى يجب أن نقتدى بها فى العملية التربوية لدى الصبى والشاب والكهل جميعا .

ويقول الشيخ أبو طالب المكى (١) « وفى الخبر أن أفضل العبادة التواضع»، والتواضع يظهر بمعان خمس فى القول والفعل والزى والأثاث والمنزل .

ويحصل المؤمن على بعض هذه المعانى ، فاذا كملت فى عبد فهو المؤمن المتواضع حقا ، وأما ضد هذه المعانى الخمس فهو الكبر . .

ويبتلى المؤمن ببعض من الكبر ويعافى من البعض الآخر... ، فاذا اكتملت هذه المعانى الخمس فى انسان فهو المتكبر .

اليقــين

حاول الانسان من قديم الزمان الاجابة على هذا التساؤل : لماذا خلق الانسان ؟ وأضاع الفكر الانسانى قرونـا عديدة فى جدل وسفسطة ولجـاج فى ابداء رأيه فيما يظن أنـه سبب خلق الانسان ٠

الا أنه لم يستطع الفلاسفة والمفكرون أن يصلوا الى رأى أو مذهب أو نظرية مقنعة عن طريق استخدام النظر أو التجربة لحل هذه المشكلة التى تبدو أنها فوق حدود العقل الانسانى ٠

لقد اخترع هؤلاء وهؤلاء من عند أنفسهم أسبابا ومسببات وعللا ومعلومات ظنوا أنها الحلـول النهائية لتساؤلات الانسان ثم فرضوها على شعوبهم أو شيعتهم أو أنصارهم ٠

ومن ذلك ما ادعـاه بعض أصحـاب الفلسـفات الشـرقية القـديمة من أن الالـه الذى زعموا أنه جسـم ضخم ٠٠ أراد الانقسام أو التشتت فقطع جسمه أربا أربا ونثـرها فى الكـون فتكـونت من تلك الأجـزاء السـموات والشـموس والكـواكب والمخلوقات التى منها الانسان ٠٠ وان هذا الاله يود أن يعود الى وحدته والى تجاذب اجزائه بدلا من تنافرها ٠٠ ولكى يتحقق له ذلـك فان على الانسان أن يسـعى الى الخيرات وان يبتعـد عن الشرور ، وان يخلد الى المحبة ، وان يتجنب العداوة والبغضـاء ، وذلك من اجل عودة الاله الى وحدته وتماسك اجزاؤه وترابـط أشلائه ٠

فرسـالة الانسان فى زعمهم العمل من أجل عـودة الاله الى حالته الأولى ولن يتسنى لهم ذلك الا بالمحبة وفعل الخيرات ٠

ولا يخفى على عاقل تهافت هذه الأسطورة ، وعدم قدرتها أن تحتمل أى نقد نظرا لتفاهتها وسذاجة مزاعمها .. فكيف تجعل الاله جسما كالأجسام ..

ولم يكن الفكر الغربى القديم أوفى حظا فى النضوج العقلى عندما تعرض للاجابة عن أسباب خلق الانسان .. فقد زعم الطبيعيون الأوائل أن العالم بما فيه من مخلوقات وجد هكذا .. واختلفوا فيما بينهم فى أصله الاول فمن قائل أن أصله الاول عنصر الماء ومن قائل أن أصله عنصر التراب ومن قال الهواء ومن قال النار ومن قال العناصر الأربعة مجتمعة .

ولقد جعل اليونانيون القدماء لكل شىء الها .. فهناك اله للخير واله للشر واله للنار واله للشمس واله للحب واله للحرب حتى انهم اتخذوا الها يقدمون له القرابين عندما يريدون أن تتحقق مصالحهم ويتوسلون بالكهنة الذين فرضوا انفسهم على الناس فرضا على اعتبار انهم الوسائط للالهة المزعومة .. والعجيب أن الكهنة أدخلوا فى روع الناس أن الالهة تقبل الرشوة .

أما سبب الخلق فى زعم هؤلاء أن الالهة قام بينها تحاسد وتباغض واحقاد . الأمر الذى انتهى الى حروب طويلة بينهم .. ولكل اله حزبه ورجاله وأعوانه من المردة والشياطين .. وان على الانسان استرضاء الآلهة جميعا ويتوهم انه بدون ذلك ستحل به نقمتهم فيغدق عليهم الهبات والقرابين حتى تكتب له النجاة والسعادة التى يعده الكهنة بها .

ولاشك أن هذه الخرافات تثير فى النفس الاشمئزاز وتنفر العقل السليم من تفاهة هذا التفكير الساذج ٠

وقد جاءت النصرانية بفكرة غريبة هى مزيج من تلكم الخرافات والأساطير ومن بعض معتقدات الديانة المسيحية فخلطت بين الحق والباطل ، ومزجت بين الفلسفات الالحادية وبين رسالة عيسى عليه السلام ، فزعم النصارى ان الانسان من تاريخ ميلاده الى وفاته مقرونا بالخطيئة وانه انما خلق لكى يكفر عن خطيئة آدم الأولى ٠٠ ومن ثم فعليه ان يكفر عن خطيئته الثانية وهى قتل الله فى الأرض ٠٠ وزعموا ان الله المقصود هو عيسى بن مريم ٠

وعبث النصارى بالديانة المسيحية فاخرجوها عن أصولها وحرفوا نصوصها فأمست خليطا من الاضغاث والخرافات الغامضة والارهاصات غير المقبولة عقلا ومنطقا ، فادعوا أن الواحد (ويقصدون به الله) فى ثلاثة والثلاثة فى واحد والثلاثة هم فى زعمهم الله والابن والروح القدس ٠٠ ولكى يجعلوا مما هو غير معقول مقبولا لعامة الناس دون مناقشة أو اعتراض عقدوا قضية الخلق بدرجة تحتاج معها لفهمها الى كثرة درس وتمحيص ٠

فقالوا ان الواحد وهو الله أفاض العقل وهو الكلمة والكلمة هنا مقصود بها عيسى بن مريم ثم أن العقل أو الكلمة فاضت النفس الكلية ، والنفس الكلية هى نفس العالم والمخلوقات جميعا والتى يسمونها الروح القدس ٠

اذن فالنصارى يزعمون ان الله فى ثلاثة والثلاثة فى واحد

أى أن الله فى أقانيم ثلاثة والأقانيم مجموعها اله واحد ، ثم أنهم يزعمون بعد ذلك أن الله أو ابن الله أو الكلمة •• أو العقل الكلى •• جاء الى الأرض فى صورة انسان وهو المسيح الا أنه قتل أى قتل الناس الله •• فهل هذا الباطل يمكن أن يقبله صاحب فطرة سليمة •

لكن هناك سؤال لا نجد له جوابا عند النصارى وهو من كان يحكم هذا العالم عندما قتل الههم المزعوم الذى مكثت جثته كما يفترون بالأرض ثلاثة أيام •• فهل كان العالم يسير فى فوضى اثناء قتل هذا الاله خلال الأيام الثلاثة •• أم هناك اله عالم قادر حكيم هو فاطر السموات والأرض ليس بعيسى ولا بالعقل الكلى ولا بالابن الذى يزعمونه •

لقد انقض العلمانيون والعقليون والتجريبيون والحسيون والماديون والطبيعيون بل كل المفكرون الغربيون المحدثون على النصارى واتهموا أصحابها بالسذاجة والتفاهة والدوجماتيقية (الايمان الساذج) ، واخترعوا لأنفسهم مذاهب ودعاوى جديدة •• الا أن جميعها تتفق على الالحاد وتتجمع حول شعار زائف يقول « لا اله والكون مادة » •

وقد عمل اليهود من قرون عديدة على بث الفكر الالحادى فى الغرب والشرق واظهار المسيحية بزيها الخرافى وبمظهرها الضعيف المتهاوى الذى لا يقوى على الرد على جموح العقل ومنطق العلم الحديث ، ولذلك دفعوا بها الى شط الهاوية واسلمت الروح فى أوروبا والأمريكتين وأصبحت النصرانية الآن شعارا بلا معنى

واسما بلا مضمون ‥ وطغت المذاهب الالحادية على عقول الناس والعباد وكلها مع اختلاف أفكارها تنتهى الى القول بأن الطبيعة خلقت نفسها ولا أثر لوجود الخالق ‥ اذن فما رسالة الانسان فى هذه الدنيا ‥ ولماذا خلق ! يرد الوجوديون المحدثون على هذا التساؤل بأن الانسان خلق هكذا ولم يستشر فى أمر خلقه ‥ رغم أنه الذى يعيش ويموت فلا يعيش ولا يموت أحدا بديلا عنه ‥ لذلك يجب أن يختار حياته دون أن يفرض عليه دين أو خلق أو أى قيم من أعلى ويقول كبيرهم « يجب أن يعيش الانسان حرا طليقا لأنه عندما يموت فانه ينتهى كل شىء ‥ فلا بعث ولا آخرة ولا حياة أخرى » ٠

وواضح من ذلك التسلسل فى الفكر الانسانى ان النتيجة التى وصلت اليها الوجودية الحديثة والتى يعبر عنها شباب أوروبا الآن تعبيرا نظريا وعمليا هى الالحاد ٠ فنجد الفن والأدب والفكر الانسانى يعالج قضية الانسان من هذه الزاوية الوجودية ويختار الالحاد اعتقادا وسلوكا واخلاقا ‥ ويجاهر هؤلاء بالقول باللامبالاة واللارادية والتحدى لكل المؤمنين والسخرية من الموحدين بالله ٠

وهكذا فسدت العقول وانحرفت النفوس البشرية عن الحق لتركب سلطان الهوى وتمخر به عباب البحر الذى لا شاطىء له ‥ وهاهى أوروبا تخوض تجربة الالحاد وقد غشاها عصر الظلمة الجديد وجاهلية القرن العشرين ‥ فقدت أعز ما يمكن أن يملك الانسان وهو الايمان بالله الواحد القهار ‥

فضاع منها شراع الأمن والأمان ·· وما يزال مركب الحضارة المادية يهتز من تحتها والموج عال حتى يأتى الغد القريب بنبأ ابتلاع البحر العاتى لمركبها التى تتباهى به ·· وهذا هو ما حدث للأمم السابقة والتى كان لها فى قديم الزمان حضارات وشأن عظيم ·· فقد اغتر أهلها وعصوا الله وفسقوا فى الأرض وظلموا أنفسهم فاستحقوا الهلاك المبين ·

ان الخطأ العظيم الذى يرتكبه أصحاب الهوى ومدعى العلم والتعقل ·· انهم يدعون جانبا رسالات الله ومنهاجه ويزعمون أنه باستطاعتهم أن يعرفوا أسباب السموات والأرض وأن يحلوا قضية الخلق ومشكلة الحياة والموت ·· وأن يصلوا الى شاطىء السعادة بعيدا عن حظيرة الايمان وهدى الدين ·

ان انسان هذا العصر لفى وهم كبير وغفلة عن الحق وغرور عظيم ·· ذلك أن الله تعالى بين للانسان كل شىء وأوضح له رسالته على الأرض تفصيلا واجمالا وأرسل له الرسل مبشرين ومنذرين ·· فلماذا يطغى الانسان ويظلم نفسه ويجتر الأساطير والخرافات والأفكار المنحرفة اجترارا ·· فما قاله الملحدون من آلاف السنين يردده بلا وعى ولا دليل أو سند معقول أصحاب النعرات التى تزعم أنها جديدة ومستحدثة ·· فلم تخلق معدوما ولم تستحدث جديدا ولم تخترع شيئا :

« ان الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له »

الحج : ٢٣

لقــد هــوى الانسان فى هــذا العصــر الى وادى الضيــاع وأصبح هــلاكه محققــا لا محــالة ·· بافتــرائه على الله كذبــا وبهتــانا ·· وعبادته لغرور عقله وشــهوات نفسه فافســد فى الأرض بعد اصلاحها وهو يظنها البناء والعمران ·

لم يخلق الله تعالى الانســان ليفســد فى الأرض فيزعم انه خالق نفسه وأن الطبيعة خلقت نفسهــا بنفسها ، ولم يخلق الله الانسان ليتقول على الله بغير علم ولا هــدى فينسب لعيسى عليه السلام البنــوة لله ويكذب على الله تعالى ويفتن الناس زاعما أن الله واحــد فى ثلاثة وثلاثة فى واحــد ·· ولم يخلق الله تعــالى الانسان ليعبد نفسه الظالمة الظلومة ويخترع المذاهب الضــالة والنظريات المنحرفة والدعاوى الكاذبة ليجعلها عقيــدته ومنهجه فى الحيــاة ·

لم يخلق الله الانسان لذلك ·· وانمــا خلقه ليستخلفه فى الأرض ·· وليأتمر بأمره وينتهى عما نهى عنه ·

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة »
(البقرة ٣٠) ·

خلق الله الانسان لرسالة عليه أن يؤديها وعمل عظيم مكلف به من قبله تعالى ، وقد اعتــرض ابليس اللعين وعصى أمر الله واستكبر :

« قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى

من نار وخلقته من طين »

(الأعراف : ١٢)

ولقد استحق ابليس غضب الله عليه ونقمته الى يوم الدين حيث يشهد عذابه الأليم :

« قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين »

(الحجر : ٣٤)

لم يأت خلق الانسان اذن اعتباطا أو صدفة كما يزعم الملحدون أصحاب النظريات الطبيعية ولم يخلق الانسان للعذاب فى الأرض والتكفير عن خطيئة لم يرتكبها ، انما خلق لغاية عظيمة وهدف نبيل ٠

« وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون »
(الجاثية : ٤)

ان هذا الخلق لم يكن لعبا أو لهوا ، انما الله الخلاق العظيم خلق الانسان فى أحسن صورة وأكمل تقويم ، وبث دوابا مختلفة الصور والمنافع ٠٠ ليتدبر ويتفكر ويوقن الانسان ان هناك الها واحدا بديع الصنع قد خلقه ، ويؤمن بفطرته السليمة انه تعالى يريده ان يتوجه اليه وان يطيع أمره ويخلص فى علمه وعمله ٠٠ وان يعلم انه سيجازيه ٠

« أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون »
(المؤمنون : ١١٥)

واذا ظن الانســان ان الله قد خلقه بغير حكمة ، فهــو واهم جاهل غافل يرى النور فيقبع فى الظلمة ، ويشهد الحــق فيبغى الباطل ظلما لنفسه وعدوانــا ٠٠ ان سبب خلقه واضح تمــاما وتكوينه الذى خلق منه لا يحتاج لكثرة سفسطة ولا لطول لجــاج وحجاج ، فقد بين تعالى ذلك فى آياته البينات فى أكثر من موضع فى القرآن العظيم ويمكن اجمــالها على ما تيسر لنا تفهمه فى النقاط الآتية :

١ ـ عبادة الله

« وما خلقت الجن والأنس الا ليعبــدون »
(الذاريات : ٥٦)

« واعبد ربك حتى يأتيــك اليقين »
(الحجر : ٩٩)

« اننى أنــا الله لا اله الا أنا فاعبــدنى وأقم الصــلاة لذكرى »

(طه : ١٤)

٢ ـ معرفة الخالق :

« وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » ٠

« والذين يدعــون من دون الله لا يخلقــون شـيئا وهم يخلقون »
(الاعراف : ١٩١)

٣ ـ شهود عظمة الخالق :
« أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة »
(فصلت : ١٥)

« ان فى خلق الســموات والأرض واختــلاف الليــل والنهار لآيات لاولى الألباب »
(آل عمران : ١٩٠)

٤ ـ العمران والاصلاح :
« انا لا نضيع أجر المصلحين »
(الاعراف : ١٧٠)

« ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم »
(الاعراف : ٥٦)

٥ ـ الرحمة الالهية :
« ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك »
(آل عمران : ١٩١)

٦ ـ العدل الالهى :
« ونضع الموازين القسط ليوم القيــامة فلا تظلم نفس

شيئا »

(الأنبياء : ٤٧)

« الله الذى أنزل الكتـاب بالحق والميزان »

(الشورى : ١٧)

٧ ـ التفضل الالهى :

« فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين »

(البقرة ٦٤)

« ان الله لـذو فضل على الناس ولكن أكثـر النـاس لا يشكرون »

(البعث :٨)

« فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون »

(الروم : ٥٦)

« ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم »

(المطففين : ٤ ، ٥)

ومن هذه الآيات البينات يتضح للانسـان سليم القلب نقى الفطرة ان الله تعالى خلقه لرسالة عليه فى هذه الدنيا أن يؤديهـا وهو حر بعـدما أعلمه بطريق الحـق أن يختـار ظلم النفس أو القسط أو المصادفة بالخيرات فمن ظلم نفسه فهو يستحق بعد هذا التذير الالهى بالعـذاب الاليم ، وأما من اتقى فان له الجـزاء

الاسنى والنعيم الأبقى والله تعالى غفور لعباده ان شاء غفـر لهم وان شاء عذبهم

(وما ربك بظلام للعبيد)

وهكذا نرى ان الانسان قديما وحديثا يظلم نفسه ويتبـع هواه ويوافق الغواية الشيطانية برغم ان الحس يكـذب أحيانـا ويصدق أحيانا والعقل يخطىء فى أحكامه ويصيب ، والنفس فى رغباتها التى لا تشبع ومطالبها التى لا تتوقف عند حد وأمانيها الدنيوية وآمالها الزائفة لا تسكن ولا تقنع ولا تهدأ أبدا ..

والانسان يظن أنه مغلوب على أمره عندما يستسلم لرعونات النفس ونزعـاتها المتسلطة على قلبه ووجدانه فتقوده بشرههـا وحرصها الى اقتـراف الاثم وموافقة الغواية وتطـالبه بتحقيق ما تشتهيه من شهوات وما تصبـو اليه من لذات وما تنشـده من الهـوى ..

والعقل اذا غلب عليه حمقه وضعف علمه وتذبذت أحكامه نتيجة تسـلط الشهوة على النفس من ناحيـة والغضب من ناحية أخرى ... فانه يصبح فى النهاية العـوبة النفس الأمارة التى تقوده الى الضلال المبين ..

أما القلب فى هـذا الموقف فقـد غلفته سـحابة قاتمة من الدخـان فلا يرى له أثـرا على النفس أو العقـل أو الوجـدان جميعا ... انه يقبع فى دهاليز الغفلة وقد غلبه نعاس عميق ..

وهنا يصبح دور الشيطان خطيرا ويصنع فى هذا الموقف كل الاعيبه وتهاويله وتخاويفه حتى لا ترجع النفس عن غيها ويفيق العقل ويعود الى رشده ويسكن القلب ويهجر غفلته ... وما يزال الشيطان يحيك شباكه ويخطط لهجومه ويرتب للخيانة والغدر والأذى .. حتى يطمئن الى نجاحه وأنه أردى صاحب هذه النفس قتيلا ..

لكن الشيطان لا ينجح دائما ، ولا يوفق فى كل موقف فكم من نفس أمارة رجعت عن غيها وثابت الى ربها وأخلصت فى توبتها وكم من نفس ظالمة ندمت على أفعالها الذميمة ودخلت الى حظيرة الايمان وأفسدت مخططات الشيطان ، وتركته يحترق غيظا وكمدا ..

ان التجربة الحياتية تثمر خبرات ايجابية يمكن للمتأمل والمتعقل أن يستفيد منها ويجعلها نبراسا يضىء له سبيل الرشاد ..

فالذنوب والآثام وان كانت تجارب سلبية لا تعطى ثمارا ولا تفيد توفيقا ، وانما على النقيض تماما تثمر خوفا وهلعاوقلقا وضياعا وقنوطا ويأسا .. ومع ذلك فان المخطىء والمذنب انما يتعلم من الخطايا والذنوب .. ان كان عاقلا . أن فى اقترافها خطرا عليه عظيم وفى مغالبتها نصر له وتوفيق ..

ومن هذا المنطلق يدور الدفع بين الخير والشر .. ويستمر الانسان فى الاختيار لدوره فى الحياة فاما أن يضعف

ويهلع فيتسلط على النفس شيطانها واما أن يقوى بالايمان فينفض عن نفسه الهوى ويصبر على الشهوات واللذات المحرمة فيسيطر على نفسه بعقله وقلبه جميعا ·· ويستعين بربه فيقوى ويقوى حتى يهزم النفس والشيطان جميعا ··

وهكذا تفيد التجربة الانسانية ويتعلم صاحبها الخطأ فيتجنبه والصواب فيعمله ·· لكن ليس معنى ذلك أن على الانسان أن يقترف الاثم ويعايشه كما يزعم أصحاب المذاهب الضالة اذ أن ذلك معناه أن يسرق السارق ثم يجرب قطع يده ·· أو يزنى الزانى فيرجم لجريمته ·· أو يقتل ليعرف تجربة قطع رقبته ··

لقد وهب الله الانسان العقل ليميز بين الخبيث والطيب ويقيس الأمور فلا يلجأ الى الفساد والخبائث لأنه يعلم تماما أن فيها ضرره وضياعه وضلاله ··

لكن على الانسان العاقل أن يجرب أعمال البر وأفعال الخير وان يقترب الى الله بالدعاء والاستغفار وطلب العون والله تعالى قريب يجيب دعوة الداعى اذا دعاه ·· وهذه هى التجربة الايجابية اذ انها تثمر ثمارا يانعة ويجنى صاحبها مالذ وطاب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ··

اذن هناك فى هذه الدنيا تجارب سلبية وتجارب ايجابية ، فالسلبية تقود الى الهلاك والضياع والضلال المبين الا اذا تولى الله الانسان برحمته وانتشله من بؤرة الفساد ونجاه من بحار الظلمة الى شاطىء الأمن والأمان ·· وأما التجربة الايجابية فانها تقود الى الصلاح والاصلاح وتعين الانسان فى حياته على تجاوز

الفتن والمحن والابتلاءات وتشفف قلبه فيصبح نورانيا لا يعرف الحقد والعداوة والعدوان .. وأهم ما يحظى به الانسان صاحب التجربة الايمانية الايجابية انه يتوصل فى نهاية الامر الى يقين ... فلا يقع فى الظن والوهم ولا يخاف غير الله ولا يقلق على ضياع المال أو الرياش أو الملك أو الأملاك ... ولا يخشى الموت وان كان قاب قوسين منه أو أدنى ..

لقد علمته التجربة الايمانية معنى اليقين بالله ولذلك فهو ابدا مطمئن النفس ساكن القلب راض بما يعطيه الله من خير وما يبتلى به من محن وشدائد ..

ان الطريق الى اليقين واضح تماما للانسان متى عرف ان التجارب السلبية لا تؤدى له الا الخسارة والفساد والافساد .. وهذه التجارب بما تحمله من اثقال واوزار ينوء بحملها انما تضيع عليه كل المكاسب التى يمكن ان يحظى بها اذا ما سار فى طريق الله ..

واليقين الذى يحظى به المؤمن كثمرة لأعماله الصالحة يزداد مع الاخلاص فى العلم والعمل .. وما يزال العبد يتحرى الاخلاص لله حتى يكتب عند الله مخلصا وهذا مقام عظيم لاهل الاخلاص ..

لو علم الخطاءون أن باب التوبة مفتوح كل يوم وكل ساعة وكل لحظة ويدأوا بالتوبة وندموا على ما فعلوا لفتحت لهم أبواب الرحمة وغفر الله لهم خطاياهم وحظوا بالقرب من الله وعرفوا طريق اليقين ..

فالقضية تنحصر اذن فى جهل الانسان بطريق اليقين ·· وغفلته عن حقيقة الدين ، وغلبة الاهواء والشهوات على نفسه ·· فاذا ما نفض عنه ذلك الغبار الذى ملأ قلبه ، وجاهد ليخرج من ضباب نفسه ، وتخلص من عمى بصيرته ·· اذا استطاع ذلك فانه يرى فى قلبه نورا وفى عينه نورا وفى يده نورا ويرى طريقه نورا غامرا ·· فهل يقبل بعد ذلك أن يرجع للظلمة والظلام ··

وتجرى الأيام وتخطف العمر خطفا وتنحر السنين فى جسم الانسان نحرا ثم يأتيه يوم اليقين من حيث لا يدرى ولا يحتسب ، يأتيه الموت ولا يستطيع منه خلاصا أو فكاكا ·· يقول له ملك الموت هذه قيامتك ·· فيقول له متوسلا : أمهلنى ساعة حتى أتوب الى ربى ··· فيقول الملك : لقد امهلناك فماذا فعلت لربك ؟ ·· فيقول : لقد غفلت عنه ·· وتماديت فى اثمى وعظم ذنبى ··· فهل امهلتنى لحظة لأتوب لاستقبل ربى بقلب سليم ؟ ··· فيقول الملك : ان ساعتك قد دنت ولا راد لقضاء الله ··· ويقبضه ···

فهل نتدبر هذه التجربة التى سبقنا اليها ملايين الملايين فى كل عصر وحين ··· أما علينا أن نجربها دون اعداد لها ودون تدبير ··

ان علينا أن نعمل جاهدين للتقرب من الله قبل فوات الأوان ·· وأن نتذكر أن مآلنا له تعالى وأن لا ملجأ لنا الا اليه ·· لذلك فان علينا ان نحسن العمل والاخلاص له جميعا ·· وأن تكون تجربتنا الحياتية تجربة ايمانية ايجابية حتى تشفع لنا عند ربنا وهو الغفور الرحيم ·

الاعتـــــدال

لا يمكن أن يتم العدل فى النفس الا بالاعتـدال ، اذ أنه استقامة للحق ، وهو تربية سليمة للأخلاق أو للخلق الصالح ، فالاعتدال موازنة وقسط وقصد وقوامة واقامة للعدل (١) ·

والاعتدال يشتمـل على تطبيق الوسط العـدل ، فى المأكل والمشـرب والفكر والسـلوك العلمى جميعـا ، ففيما يتعلـق باستقامة النفس يقول عز من قائل :

« فاستقم كما أمرت » (هود : ١١٢)

وفيما يتعلق بالعدل مع الناس يقول عز من قائل :

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » (الأنعام : ١٥٢)

وأما فيما يتعلق بالاعتدال فى المأكل والمشرب والنفقة يقول عز من قائل :

« والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (الفرقان : ٦٧)

وأما ما يتعلق بالعدل مع النفس فيقول عز من قائل :

« وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين » (المائدة : ٤٢)

---

(١) راجع كتاب « نحو ثقافة اسلامية » للمؤلف ·

والتربية الاسلامية تهتم بالتركيز على التوازن بين اشباعات النفس ومطالبها ، وبين عفتها وقناعتها ، وهذا وارد فى قوله تعالى :

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط »
(الاسراء : ٢٩)

وسياسة الاعتدال فى العملية التربوية ، انما تتركز على علاج النفس من الأهواء والشهوات ، فاذا مالت الى الاغترار عولجت بالتواضع حتى يتم الاعتدال أو يتم التوازن ، واذا مالت الى الهوى كان علاجها الاستقامة ، واذا استمرأت التسلط والتجبر كان علاجها الزهد ، واذا انحرفت الى طريق الأنانية والشره ، كان علاجها فى الايثار ، فأى من العيوب والآفات النفسية انما هى ثمرة فجة للتربية الخاطئة ، أو النقص فى الأدب والأخلاق .

وكل شيء فى هـــذا الوجود يســير على هدى من الاعتدال والتوازن والاتساق والتناسب والتناسق ما عدا الانسان .

فالانسان وان كان فى الأصل فى خلقه على الفطرة السليمة ، الا أنه يبتعد عن هذه الفطرة ، اذا ما افتقد الى التربية الاسلامية الصحيحة ، وهنا يخلط بين اشباعاته ومطالبه ، فيطالب بحقوقــه ويتغــافل عن واجبــاته ، وبذلك ينحــرف عن طريق القوامــة والاستقامة ، والتى جعلهــا الله تعــالى أساسا لشرعة الاســلام ومنهــاجه :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا »   (البقرة : ١٤٣)

فالوسط الاسلامى هو التوازن فى الفكر والسلوك والتطبيق، يقول عز من قائل :

« **قال أوسطهم** » **(القلم : ٧٨)**

وأوسطهم هو أفضلهم رأيا وأكملهم عقلا وأتمهم حكمة ، فاذا سلك الانسان مسلكا وسطا ، لا مغالاة فيه ولا تقصير ، فان ذلك يعنى أنه اعتدل أمره وقصد الطريق المستقيم ، الذى ليس فيه عوج ولا جنوح ولا انحراف • ولم يترك الاسلام شيئا يبين التوازن والاعتدال فى الجسم والنفس ، والعلاقــــة بين الناس بعضهم وبعض الا وطرقه ، وبين ما يجب على المسلم أن يقتدى به ، حتى فيما يتعلق بالآداب العامة ، أو السير فى الطريق العام يقول عز من قائل :

« **وأقصد فى مشيك** » **(لقمان : ١٩)**

فقد نهى الله تعالى المسلم أن يسير مسرع الخطى وهو يلهث، كما نهاه أن يبطىء فى مشيه وهو خامل كسول ، انما عليه أن يتوسط فى مشيه فخير الأمور اواسطها •

فاذا وضعت أسس التربية على أساس من التوازن والاعتدال، كما أوضحتها النظرة الاسلامية ، لأعتدل الأمر ، ومـــــا تحولت الوسائل الى غايات ، وما أنحرفت بنا الطرق بين غلو وتقصير ، وافراط وتفريط •

الايثـــار

الايثار بـذل وجود وعطاء ، وسخاء وكرم فى النفس النقية الورعة التقية ، وهو ضد الانانية والبخل والشـح والتقتير ، تظهر فيه أرق المشاعر الانسانية ، وهو من أجمل الفضـائل البشرية ، يتأكد به معنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر ، وهو احسان صادر من نقاء النفس واخلاصها فى العمل والعبادة لله :

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئـك هم المفلحون » ٠ (الحشر : ٩)

ان الايثار طبع المؤمن وأخلاقه ، فهو يؤثـر غيره على نفسه ولو كان محتاجا الى ما يقدمه الى أخيه من بذل وعطاء ، فالأخوة الاسلامية جعلت نفسه طيعة لله ، مخلصة له تعالى ، متجهة دوماً الى خدمة الاخوان ، ومساعدة المعوز والفقير وزيارة المريض ، ومعاونة الضعيف وتحمل الشـدائد ، ومناصرة المظلـوم والمسكين ٠٠

والمؤمن يفعل كل ذلك عن طواعية واختيار ، بلا تكلف أو عنت أو رياء ، ويقدم أخيه على نفسه ، ويسعده ذلك ٠٠ حيث أن قلبه مشرق بالمحبة قد زال عنه الحسد ، ومسح عنه الحقـد والعداوة والبغضاء وحل محلها الايثار والصفح الجميل ٠

والايثار تزكية للنفس ، وتصدق للخير ، والنفس اذا تركت لاهوائها بخلت وشحت وقترت وظلمت ، بل وطلبت المزيد من

المال والشهوات واللذات طمعا وانانية وعدوانا ٠

وإذا كانت الأنانية شره وتكالب على الدنيا ، فانها بذلك تدفع صاحبها الى طلب الشهوات واتباع الاهواء ، وموافقة غواية الشيطان وتحسين الأعمال المستقبحة ، واقتراف المحرمات وهى طبع الملحد والكافر والمشرك ٠

اذا كانت الأنانية شره وتكالب على الدنيا ٠٠ فان التظاهر بالايثار أشد خطرا وافتك بالنفس من الشح والبخل ، لأنه نفاق ، والنفاق استظهار للايثار واخفاء للأثرة ٠٠ فيخفى المنافق ما فى نفسه الأمارة من طلب للشهوات والرغبات الدنيئة ، ليظهر امام الناس التضحية والجود والسخاء ، حتى يقال عنه انه المحسن التقى النقى ٠ ثم انه اذا امتحن عند الشدة ، وجرب عند الحاجة ، ظهرت نفسه الأمارة على حقيقتها ، وبدت طباعه الشرسة تغلب على فكره وسلوكه وأخلاقه ، ويتبدل البذل الى العدوان ، والسخاء والجود الى البخل والشح ، والعفة والكرم الى الشره والنذالة ٠

واذا كان طبع النفس وديدنها الايثار لم تتبدل عند الشدائد ، ولا تتغير عند الاختبار ، وانما يبقى حالها من السخاء والجود والعطاء والبذل والتضحية فى كل حال ، وهذه هى اخلاق المسلم المؤمن ٠٠ يحسن لأخيه لانه يعلم أن احسانه لله ، ويعطى فى كرم ومروءة ، لأن شريعته السمحاء ودينه القيم علمه ورباه على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد اقتدى بأخلاق الرسول « صلى الله عليه وسلم » وسار فى طريق الله تعالى ٠٠

والايثار ليس تطبعاً أو تكلفاً ، وانما طبعا راسخا وخلقا ملازما للمسلم المؤمن ، وبه يتميز عن غيره من أصحاب العقائد المنحرفة والمذاهب الضالة الخارجة عن الاســـلام • اذ أن تلكم العقائد أو المذاهب انما توافق الأهواء النفســـية والمتطلبات الحسية التى لا تشبع ، وبذلك يحيا الانسان فى أنانية بغيضة ، وشره لا يسكن أبدا •• ولذا يسقط فى اليأس والضياع دنيـا وآخرة ••

ان الايثار بالمفهوم الاسلامى هو الطريق الوحيد الموصـــل للسعادة فى الدنيا والآخرة ••

العبودية لله لا الحرية

أصبح مفهوم الحرية فى الفكر الغربى المعاصر ، هو أن يفعل الشخص كل شىءفى حدود القانون المتفق عليه ، والقانون المقصود هنا هو القانون الوضعى الذى سنته بعض العقول بناء على رغبة الجماهير ، أو قننته السلطة المفوضة كتعبير عن أهواء الحكام ، أو نزعات المجالس النيابية أو الشعبية ، سـواء كان ذلك فى الأنظمة الديمقراطية أو الاشتراكيات ، أو فى الحكم الديكتاتورى ، وفى جميع هذه النظم لا يتحقق فى مفهوم الحرية العدالة والاخاء والمساواة والأمن للفرد والمجتمع ••

ان أكثر دول العالم مناداة بالحرية الفردية وهى انجلترا ، لا تفهم معنى الحرية الحقة ، فلقد سن بها قانـــون جديد يبيـــح العـــلاقات المحرمة بين الجنس الواحد كتعبير عن الحـــرية

الشخصية ، ولم يجد الديمقراطيـون تفريغا لها الا فى اباحة الشذوذ الجنسى الذى تأباه الفطر السليمة ، ويرفضه العقل الرشيد ، والنفس السوية المعتدلة المتوازنة ..

وفى أمريكا وجد بعد بحوث دامت سنوات ، أن الخمر ضارة بالصحة وسبب مباشر للجريمة التى يئن منها المجتمع الامريكى .. وبناء على استفتاء للجمهور سن قانون بتحريم تداول الخمور .. لكن الذين وكل اليهم صياغة هذا القانون ، كانوا يجلسون وقد وضعوا امامهم الخمور داخل زجاجات « البيبسى كولا » ، وبذلك ولد القانون ميتا اذ أعتبر سيفاً مسلطاً على الحرية الشخصية لـدى طبقة المدمنين والتى تمثل أغلبية شعبية ..

ان مفهوم الحريـة كما يتصوره الفكر الغربى الحديث ، هو الانفكاك عن القيم الخلقية والمبادىء العليا ، والتحلل من المثل وقيم الدين .

لقد قاست أوربـا فى عصورها المظلمة ، من تسلط آباء الكنيسة النصرانية ، الذين فرضوا على الناس نصوصـا دينية ألفوها لتحقق منافعهم الشخصية ، وادعوا أنهـا من عند الله ، وانهم المفوضون من قبله تعالى لتنفيذها ، وبذلك ألغوا العقول المفكرة واستعمروا قلوب الناس بدعاوى ما انزل الله بها من سلطان .. ولقد ثار فريق من دعاة الاصلاح فى اوربـا على الكنيسة ، ورفضوا الانصياع لتعاليمها وحرضوا النصارى على الخروج على التعاليم الكنسية ، وكشفوا لهم زيف البطاركة فى

مزاعمهم وأباطيلهم فى الغاء التكفير وسلب العقل قدراته وجعل الناس عبيدا لهم ..

ونجح هؤلاء ،وتقلصت سلطات البابوات ، ومهد ذلك لنشوء الفكر الحر ، وظهرت العلمانية كبديل للنصرانية ، وأصبحت الحرية والعدالة والمساواة هى شعارات الحضارة الغربية ..

ولم تقف الحضارة الغربية عند حد تحرير العقل من غلواء النظام الكنسى ، بل انحرفت به فى زهو وغرور ، لتجعله اله يعبد من دون الله ، وبذلك بعد عن العدل والحكمة والاستقامة ..

وأصبح مفهوم الحرية عند العلمانيين الغربيين ، هو أن تفعل ما تشاء ولو كان ذلك على حساب الفضيلة ومكارم الأخلاق ، وغدت الحرية هى التعبير الواقعى لأنانية الافراد ففى المجال الاقتصادى : الحرية هى تحقيق أكبر منفعة ممكنة ، ولو كان ذلك على حساب الآخرين ، ولو كان ذلك استغلالا واحتكارا وظلما للناس ، وأما الحرية بالمعنى الأخلاقى فهى اشباع أكبر لذة ممكنة ، وتحقق المتطلبات الجنسية والشهوانية ، ولو كان ذلك مما تشجبه الفطر السليمة والقيم العليا ، والأديان السماوية .

لقد وصلت الحضارة الغربية بمناهجها العلمية التجريبية الى حافة الهاوية ، ويصور الفيلسوف الألمانى شيفتر هذه الهاوية التى تردت فيها الدول الاوربية الحديثة فيقول :

« نحن نعيش عصر انهيار الحضارة ، نحن نعيش بين الحضارة والبربرية » .

ويتضح من هذا العرض السريع ،أن مفهوم الحرية عند الغرب لا يصلح كمصطلح لنعبر به عن أمانى الانسان المسلم ، اذ أن هذه الحـــرية قد خرجت عن الوسط العدل الاســـلامى وابتعدت عن الفطرة الســـليمة ، وانسلخت عن الاديـــان السماوية .

ان الاسلام يفهم الحرية بمعنى مختلف تماما عما استهدفه الغربيون منها ، كما يرفض استعباد الانســـان كما فعل آباء الكنيسة النصرانية ، وفى ذلك يقول الفاروق عمر رضى الله عنـــه :

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحـــرارا »

والاسلام ينكر الحرية المطلقة،التى تبناها أصحاب الحضارة المادية الحديثة ، اذ أن غاياتها الفريدة هدم القيم والأخـــلاق والتحرر من كل قيد ، واباحة كل فعل ولو كان منحرفا وشاذا وضلالا مبينا ..

ان هذه الحرية اذا قيست بمعيار الدين القيم ، ووزنـــت بميزان الشريعة الغراء ، لوجد أنها تمثل عبودية المال وعبودية الجنس وعبودية الهوى ، ويكفى أن نحكم عليها بحديث رســـول الله صلى الله عليه وسلم :

« تعس عبد الدينار »

ونحن نقول قياسا على ذلك :

تعس عبد الهوى ،

تعس عبد الشهوات واللذات ..

ان الحرية الحقة كما يراها الاسلام هى العبودية الحقة لله ، اذ أنها منتهى غاية السالكين الى طريقه والتوكل عليه ، والصبر لقضائه تعالى ، وذلك بالاخلاص فى طاعته ، والرضا بما يرزق به من خير وشر .

والحرية بهذا المعنى ليست فى موافقة أهواء النفس واشباع الحاجات الانانية ، واتباع الشهوات وغواية الشيطان ، اذ هذه الحرية بهيمية تهبط بالانسانية الى الحيوانية التى يستحل دماؤها ..

فاذا ادعى الغربيون أن شعار الحرية هو السائد فى مجتمعاتهم ، فان على المسلمين أن يعرفوا أن مصطلح الحرية هو بعينه عبودية الدينار والدرهم فى المجال الاقتصادى ، وعبودية الشهوة فى المجال الاخلاقى ..

الاحســــــان

أجمل الفضائل هى فضيلة الاحسان ، اذ أنها سلوك انسانى عظيم يتأكد به الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠٠٠ والاحسان ايثار ، وهو ثمرة طيبة للنفس النقية المخلصة فى العمل والعبادة وفى ذلك يقول الله تعالى :

« ان احسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها » (الاسراء :٧)

والاحسان يبدو فى الأعمال والأفعال ، فاذا أتقن الانسان عمله ، وما كلف بأدائه من حقوق وواجبات . واذا قام بأفعال البر ، وأحسن الى الغير ، أو عمل عملا خيرا ، فانه ينسب اليه هذا الفعل وذلك العمل ، ويلقى من الله أفضل الجزاء ٠٠ لأنه احسان ، وهذا يتأكد بالآية الكريمة :

« هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (الرحمن : ٦٠)

والاحسان فوق العدل ، لأن العدل انصاف وقسمة وقسط ، والاحسان ايثار وتضحية ، عطاء وبذل للغير عن طواعية ورضا ، لأن المحسن لا يطالب بثواب يستحقه فى الدنيا ، وانما يتركه اختياراً لله تعالى الذى عنده الجزاء الأوفى على احسانه ٠٠ وفى هذا يقول تعالى :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان » (النمل : ٩٠)

ومفهوم الاحسان فى الشريعة الاسلامية أن لا يعطى الانسان وهو كاره أومجبر ،ولا هو متعجب أو راض عن نفسه ، لأن ذلك احسان ظاهرى ، اذن فهو تظاهر بالاحسان ، اما استعراضا

أو استعلاء على الآخرين ،أو احساسا بالعظمة والغرور ، وهذا بطبيعة الحال يناقض معنى الاحسان ، لأن الاحسان نوع من عبادة المؤمن لله ، وفى حديث الرسول « صلى الله عليه وسلم » :

« أعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فهو يراك » (١)

وفى الحديث اشتمال على جميع وظائف العبادة ·· من عقود الايمان ، وأعمال الجوارح ، واخلاص السرائر ، والتحفظ عن موافقة هوى النفس ، حتى أن كثيرا من علوم الشريعة راجعة اليه ، ومتشعبة عنه · (٢)

فبالاحسان يشعر المؤمن شعوراً ملآزماً ، أن الذى يعطى هو الله تعالى وحده ، وأن المال والصحة والجاه وكل ما فى الدنيا ، انما هو منه ·· واليه ، فلا يحس المؤمن فى الاحسان بذاته الا كوسيلة اختارها الله تعالى لفعل الخير ، وعمل المعروف ··

فالاحسان بهذا المعنى امداد واستمداد من الله الى عبده،وليس وقفا من العبد على غيره ، لأن فى الوقف اعتراض ومشاركة للربوبية ، وهو نوع من الشرك الخفى ، فالله تعالى هو مصدر الخير ·· والمحبة ·· والجود · والسخاء ، وأى احسان بخلاف ذلك يخل بمعنى الاحسان على الاطلاق ··

الاحسان أن تعطى وأن تعرف أن ما تعطيه هو من الله

---

(١) عن أبى نعيم فى الحلية من فريد بن أرقم وذكره السيوطى فى الجامع الصغير وزاد عليه « وأحسب نفسك مع الموتى ، واتق دعوة المظلوم فانها مستجابة » ·

(٢) الشيخ السراج الطوسى ـ اللمع : ٤٤ ·

ولله٠٠ فلا تشعر لنفسك فضلا وأنت تعطى ، وأن تؤمن أن الله هو المعطى على ألحقيقــــة ، الموكل لك فى العطاء ، سواء كــان ما تجود به علمــاً أو برا فى العقيدة أو العمل أو الخير ، وبهذا يكون الاحسان ايمانا يرفع النفس الانسانية درجات فى التكامل والسمو والرفعة ٠٠

أصاب المسلمون أياماً قحط شـــديد ، فى عهد أبى بكر أمير المؤمنين ، فقــــال رضى الله عنه : (١)

« انصرفوا وأصبروا ، فانى أرجو ألا تمســوا حتى يفرج الله عنكم » ٠٠٠

وجاء لعثمان فى نفس اليوم بضاعــة فى ألف بعير ، فجاءه المسلمين ، فقال عثمان :

« ما تريدون ؟ » ٠٠

قالـــوا :

« بعنا هذه البضاعة » ٠٠

فقــــال :

« حباً وكرامة ، كم تربحونى على شرائى » ٠٠

قالـــوا :

« الدرهم درهمين » ٠٠

قال عثمان :

« أعطيت زيادة على ذلك » ٠٠٠

---

(١) الشيخ المحب الطبرى ـ الرياض النضرة فى مناقب العشرة ج ٢ ص : ١٤٦ ٠

فزادوا حتى وصل الدرهم الى خمسة دراهم ..
فقال عثمان :
« أعطيت زيادة » ..
فقالوا :
« من أين لك هذا وما فى المدينة من تجار غيرنا ؟ » ..
قال عثمان :
« ان اللـه أعطـانى فى كل درهم عشرة ، فهل عندكم زيادة ؟ » .
قالـوا : «لا » ...
فقـال :
« انى أشهد اللـه أنى جعلت ما حملت هذه البعير .. صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين » ..

ثم أخذ يوزع بضاعته ، فما بقى من فقراء المدينة من أحد الا وأخذ ما يكفيه وأهله .

هذا هو معنى الاحسان فى أجمل صورة ، وأسمى معانيه ، أراد به عثمان ـ رالله عنه ـ وجه الله بلاتردد .. لأنه الأعز .. والأشرف والأربح والجزاء الاثمر ، اذ أنه ايصال واتصال بين العبد وربه ، لا يرى فيه العبد لنفسه فضلا ولا يستهدف منـه الا وجه الله تعالى ...

أتى غلام للخليفة المأمون بفعل أغضبه وهم بعقابـه .. فقال الغلام : (١)

(١) الشيخ أبو نعيم ـ حلية الاولياء

«ياأمير المؤمنين ٠٠ والكاظمين الغيظ » ٠٠

فقال المأمون :

« كظمت غيظى » ٠٠

فقال الغلام :

« والعافين عن الناس »٠٠

فقال المأمون :

« وعفوت عنك » ٠٠

فقال الغلام :

« والله يحب المحسنين » ٠٠

فقال المأمون :

اذهب فأنت حر لوجه الله (١) ٠٠

ان قاعدة الاحسان التى تسمو فوق قواعد العدل النظرى التى تستمد سلطتها من العقل » ٠٠ نجد أن الاحسان يسير قواعده سيرا بعيدا عن أحكام القصاص ٠٠ فيختار الرحمة والسلم والايثار ٠٠ متشبها بعدل الله ، وطريق الله ، وسبيل الله فى مسابقة الى نور الايمان ، سالكا ومطبقا معنى الاحسان ليس عن ضعف أوخوف ٠٠ وانما عن قدرة وورع وتقوى ورجاء فى الله ٠٠

وليس الاحسان عدلا تؤيده الفطرة السليمة فحسب ، وانما الاحسان قوة أعظم ، لا يقدر على سلوكها الا فحول الرجال من

(١) الاية الكريمة : «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » (آل عمران : ١٣٤) ٠

أصحاب البصائر المشرفة . والمعرفة النـــافذة ، أهل السكينة والأمن والطمأنينة ، وهذه القوة من الله منة وفضلا .

والحاكم المحسن لا يوقف أحكــام الشريعـــة ولا يتجاهل حدودهـا ، انمـــا المحسن ينتقل من قاعدة الى قاعدة أشمل ، فالقصاص قاعدة اسلامية . ولكن العفو قاعدة اسلاميـــة أكثر خيرا وصلاحية .. العفو يرتفع عن القـاعدة العامة الجامـدة الآسرة الى قواعد أكثر رحابة وأعمق اثرا ، وأسلم غاية وهدفا .. العفو ينطلق من العدل النظرى الى الاحسان العملى،ومن القانون الشكلى الى الرحمة الحقيقية .. ومن العقل الخالص الى القلب النورانى ..

وليس هناك من اختلاف بين الطريقتين الا من حيث الدرجة ، اذ يستهدف القصاص والعفو فى نهاية الأمر العدل والحق .. فى الطريق الى التشبه بالحق تعالى .. الغاية اذن واحدة ، فالأمر بالمعروف احسان ، والنهى عن المنكر احسان . وتحقيق النظام والأمن والعدل فى المجتمع احسان ..

وفى قصة المأمون ـ رضى اللــه عنــه ـ تعديلا فى المواقف فحسب .. أو تغييرا الى الأفضل أوللخير الفاضل .. وتظهر فى مواقف ثلاثة :

١ ـ حدوث الغيظ نتيجة تقصير الغلام ، أو بمعنى آخر وقوع الغلام فيما يوجب القصاص ، فقد حدث منه مايستوجب

---

(١) ذكر هذه القصة الامام أبو نعيم فى حلية الاولياء ..

الغضب عليه ‥ والكراهيـــــة لما أتاه ‥ خروجا عن الأدب ، ثم تسامى المأمون وارتفع عن الشـهوة الغضبية ، الى تطبيق التشريع الالهى الأسمى الذى يحض على الصبر ، وكظم الغيظ ، وكتمان الغضب مصداقا لقوله تعالى :

« والكاظمين الغيظ »   (آل عمران : ١٣٤)

وهذا التسامى تعديل فى موقف المأمون يريد أن يحقق به فى النهاية ‥ غاية عظيمة ‥ وهو مقام الصبر ، الذى هو ضد الانفعال الطبيعى الذى يحركه الغضب ‥ هذا موقف يعطى فرصة للعقل للتعقل والتبصر قبل الاقدام على اقامة الحد ‥والقصاص من المسيء ، ولاشك أن الصبر كمسلك أخـلاقى ، أو بمعنى آخـــر يسكـــن ســـورة الغضـــب فى الانســــــان ، أو بمعنى آخــــر يسكن بالصبر الغضب ‥ فيوقف تنفيذ القصاص العاجل فى الشخص الذى سببه ، فاذا سكن الغضب فلا تنفيذ للقصـــاص أو الجزاء ، وذلك بكظم الغيظ وبذلك يرتقى الانسان سلماً أفضل ويسلك طريقا أرحب يرتفع به عن السلوك الحيوانى ، والنزوع العدوانى ، والرغبات الأنانية ، التى يسلكهـا أغلب الناس فى معـــــالجة أمورهم ، وذلك بالغضب على المخطىء والمسيء ، وتطبيق الجزاء الرادع ، واقامة الحد ، والذى ربما لا يحقق عدلا حقيقيا ، قد استهدفه المشرع الأعظم تعالى ‥ وانما هو طريق للعدل فحسب ، وشريعة للعقل مثل قاعدة ـ العين بالعين ، والسن بالسن ـ ٠ ولا شك أن

مجال عملها القانون النظرى ، الذى يستهدف المساواة فى الحقوق والواجبات دون اعتداد بحالة كل منهم .. وظروفه .. وتوبته ..

٢ ـ أما اذا ارتقى الانسان الى مدارج الحكمة ، وغلبت نفسه المطمئنة نفسه الأمارة ،وصدق قلبه مع عقله ، فانه يمكن أن يرتفع من العدل الى التسامح ، ومن القصاص الى العفو ، وهذا ما نجده فى قصة المأمون ـ رضى الله عنه ـ مع غلامه ، فبدلا من معاقبة غلامه وتوقيع الجزاء عليه عفا عنه وسامحه ، ويمكن أن يقال هنا أنه انتقال فريد الى الضد ، دون مخالفة لطريق الله .. أو الخروج على احكامه تعالى ..

فأين الوسط ؟ .. أو بمعنى آخر : كيف ينتقل من الشيء الى ضده ؟ ...وأيهما أحق بالاتباع ؟ ..

اذا ارتقى الانسان وأوصل نفسه بمعنى الاحسان ، فان هذا الوسط يتغير فى الاحسان ويصبح الحكم غير الحكم ، والسلوك غير السلوك فليس معنى الاحسان القطع الحاد والميزان الدقيق ، بين كفة وكفة أخرى فى الأفعال والاعمال ...

وانما الاحسان ميل طبيعى للخير ، وغاية سامية للتقرب الى الله عن طريق التشبه بأفعاله فى معاملته لعباده ، فليس الجزاء الأخروى باستخدام منطق العقل وحده ، وانما الأعمال ـ أيضا ـ بحسب النيات ..

يقول تعالى :

« الا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء : ٨٩)

وقوله تعالى :

« لا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » (الاحزاب : ٥)

فهناك درجات اذن ٠٠ بين العقل والقلب ، العقل يود تطبيق قواعده على الواقع من الأفعال ، والواضح من الأعمال ، أما القلب يستهدف القصد والنية والباعث ، ثم أنه يرى الخير غاية ، والمحبة هدفا ، والتسامح سلوكا ، فيصدر أحكاما رحيمة كرحمة الله فيها حلاوة الايمان ٠٠

لقد لجأ الخليفة المأمون ــ رضى الله عنه ــ الى قاعدة رحيمة ، فقال لغلامه : « عفوت عنك » تشبها بأفعال الله فى العباد ، فلو عامل الله عباده بشريعة العدل فى الحق والباطل ، والخطأ والصواب ، ما نجا منهم أحدا ، وما دخل باب عفوه انسان ، لكن الله رؤوف بعباده ، عالم بما فى جبلتهم من نقص وغفلة ونسيان ، عليم ببواطنهم ، حكيم فى حكمه عليهم ٠

ففى علمه تعالى أن الاحسان أفضل من العقاب ، والعفو أثمر وأينع من الجزاء ، فاذا تشبه الانسان بأفعال الله ، فهو محسن ، وهنا درجة عليا من درجات الايمان ٠٠

٣ ـ المعنى الثالث بعد كظم الغيظ .. والعفو .. الاحسان وهو الانتقال من الغضب الى العطاء ، ومن الغيظ الى البر ، ومن الانتقام الى الاحسان فهو أولا تربية للنفس ، وثانيا رقى لها ، وثالثا بذل وايثار وتضحية ، فبعد أن تستبدل شهوة الغضب بكظم الغيظ ، يستقر فى القلب أمن وسلام . وهذا المحسن يرقى بنفسه الى ان يصل الى تغيير سلوكه الظاهرى ، الى التخلق بأخلاق الله ، وفى ذلك تشبه بطبيعة الهية بها تكتمل للانسان فضائله ، فيصبح محسنا بالطبع ، لا بالتطبع ، متخلقا بأخلاق الكرام ، ثم انه احسان يرقى به الى الكمال الانسانى ..

هذه هى الشريعة الاسلامية بثرائها الذى لا يحصى وعمقها الذى لا حدود له .. وجذورها الممتدة الى الفطرة الأولى ، النامية مع حياة الانسان عبر الزمان والمكان .. فى سلم يترقى فيه حتى تكون شريعته حقيقته ، وحقيقته شريعته ليحقق معنى الاحسان ..

ان معنى الاحسان نجده أيضا فى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ فالعدل يقتضى القصاص من أخوته ، الذين رموا به الى الجب قاصدين قتله ، واستمروا فى كراهيتهم له ، حتى أتاه الله نصرا مبينا وأصبح أقوى بالله منهم جميعا .. وتولى الوزارة وفوض على كنوز الأرض ومفاتيح الحكم والعدل ، فهل عاملهم بقاعدة العين بالعين ؟ وكان فى مقدوره بل وحقه .. وكان يستطيع ذلك بكل سهولة ويسر ، ويؤيده فى ذلك منطق

العدل لكنه عندما قدر وتقوى بالله عليهم ٠٠ عاملهم بأخـلاق الحق تعالى ٠٠

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس»
(آل عمران : ١٣٤)

ثم بالاحسان ٠٠

قال لهم :

« لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »
(يوسف : ٩٢)

ولم يكن احسانه بغية نفع عاجل ، ولا عن عزة فى النفس ، أو استعلاء عليهم ليستظهر احسانه ، ولم يكن غرورا واستكبارا ، انما كان ذلك لطهارة قلبه ، وصفاء نفسه ، وخلوها من الضغينة والكراهية والغضب ، حتى أنه طلب الى الله أن يغفـــــر لهم خطاياهم ويرحمهم برحمته ، ويمن عليهم برضـــــوانه ، رغم ما فعلوا به من ظلم وعدوان ٠

فاذا طبقنا حكم العدل على ما فعلوه به من ضرر واضرار ، لجاء الرد القصاص الرادع :

« العين بالعين ٠٠ والسن بالسن » ٠٠

ولكن يوسف ـ عليه السلام ـ صفح عنهم الصفح الجميل ، وطلب المغفرة لهم ، فكان التسامح حكما بديلا عن العدوان ٠٠

وهو أجمل وأعظم وأكرم ٠٠ اذ أن النفس المتسامحة ٠٠ قادرة على توقيع الجزاء وتطبيق احكام القصاص العادل ٠٠ لكنهـــا تنشد الخير فهى نفس محسنة . والاحسان درجة عليا أفضل من القصاص والعقاب ٠٠

ولولا ذلك لفعل يوسف ـ عليه السلام ـ بأخوته ما فعلوه به ، ولكنه كان خيرا بطبعه ، محسنا بفطرته ، رحيما بقلبه ، عارفا بطريق الله ، فاختار ما هو آبقى على ما هو أدنى ، أختار حب الله ، ونعم الله ، وعلم الله وتدبير الله ، وهــذا آيضـــا ما فعله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما غلب « قريش » وأصبح أعظمهم ايذاء له ، وأشدهم عداوة ، وأكثرهم بأسا ، مغلوبا ، مهزوما ، مقهورا ، مدحورا فقال لهم :

« ماذا تظنون آنى فاعل بكم ؟ » ٠٠

فقالوا :

« خيراً ٠٠ أخ كريم وابن أخ كريم ٠٠ »

فقال :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » (١) ٠٠

ويجمل بنا أن نذكر فى ختام هذا الموضوع بعض المعـــانى

---

(١) هذا الحديث متواتر ومتفق عليه

المختلفة للاحسان ، ونحن اذا عددنا معانى الاحسان ، لوجدناها فى كل فعل حميد وعمل شريف . وسعى مشروع وعبادة صادقة ...

فالايمان احسان .. لأنه يرتبط بمعنى الاحسان برباط وثيق ، وقد ورد هذا المعنى فى قوله عز من قائل :

فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين » . (المائدة : ٨٥)

والصلاة احسان .. فهى تطهير للنفس وايثار ، والايثار احسان ، فالصلاة تقرب الى الله فهى احسان ، والصلاة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ احسان ، تصديقا لقوله تعالى :

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (الانعام : ١٦٠)

والتهجد احسان .. فالذى يقبل على طريق الله .. ويعبده فى صدق ولا يأمل فى سواه فهو محسن ، ولقد ورد الاحسان بمعنى التهجد ، وذلك فى قوله تعالى :

« انهم كانوا قبل ذلك محسنين » (الذاريات : ١٦)

والتصدق احسان .. فالاحسان تصدق على الفقراء والمحتاجين وانفاق المال وتزكية النفس بأعمال البر والصدقات ، كما ورد فى قوله تعالى :

« وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » (البقرة : ١٩٥)

وخدمة الوالدين والبـــر بهما احسان ·· ومســـاعدة المحروم ·· احسان ، ومعاونة المريض والمحتاج احسان كما ورد فى قوله تعالى :

« وبالوالدين احسانا » **(البقرة : ٨٣)**

ويقصد بالاحسان كذلك العفو عن الخطائين كما قال الله تعالى :

« والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »
(آل عمران : ١٣٤)

والاحسان بمعنى المجاهدة ، أى التسابق فى بذل النفس فى سبيل الله والجهاد فى طاعة الله . كما ورد فى قوله تعالى :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم ســـبلنا ، وان الله مع المحسنين » **(العنكبوت : ٦٩)**

والطاعة احسان ، وذلك فى قوله تعالى فى أنواع الطاعة :
« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » **(يونس : ٢٦)**

والاخلاص احســـان ·· فالمخلص غير المرائى يعمل تقربا الى الله ، ولا يستهدف منفعة ذاتية ، أما المـــرائى فيعمل ليأخذ أجراً عاجلا عن عمله والا فأنه يغضب ويثور ··

والاحسان يعبر عن معنى الاخلاص (١) ، وهو العلامة المميزة

---
(١) راجع « ألفاظ الصوفية ومعانيها » للمؤلف

لصدق العبد مع ربه ، ورجوعه اليه شريعة وحقيقة ، اذ الشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشـــــهده ، والمخلص لا يقدر عليه الشيطان ·· مصداقا لقوله تعالى :

« قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين »
(ص : ٨٢ ، ٨٣)

والعطاء ايثاراً واحتساباً عند الله احسان ، والاحســـان بمعنى العطــاء ، أى ايثــار الغير على النفس وتفضيلهم ·· مع حاجتك الى ما تعطيه ، فهو بهذا المعنى بذل وتضحية تشبها بالله تعالى ، وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى :

« وأحسن كما أحسن الله إليك »   (القصص : ٧٧)

أعمال البر احســان ، ونجدة الضعيف والمظلوم احسان ، فالنجدة احسان الى المحتاج والمظلوم ، مصداقا لقوله تعالى :

« ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم »   (الاسراء : ٧)

والمعرفة احسان ··· فهى توحيد لله ، ومعرفة مقامه تعالى ، وهو الغنى على الحقيقة ، المحسن على الدوام ، فبالمعرفة يميــز العبد بين مقامه كعبد ، ومقام الله كرب ··

ويقرن الاحسان بالمعرفة والعلم ، فعندما يحسن الانسان ، يحظى بمعارف لم تكن عنده ، وبعلوم تقذف الى قلبه ، فيغدو عارفا بثوابه ، كثمرة لاحسانه فيشعر بحلاوة معرفته ، منة من الله وفضلا ، مصداقا لقوله تعالى :

« هل جزاء الاحسان الا الاحسان »   (الرحمن : ٦٠)

الوفاء .... ذلك المعنى الاسلامى العظيم

الوفاء أجمل لحن يعبر سحابات الغيوم الداكنة فى الليل البهيم ... ويظلل بأوراقه الوارفة الفيافى والقفار ، ويعين قلوب المحرومين والبؤساء والحيارى على مواجهة مصاعب الحياة وتقلبات الأيام ، فيعيد الى قلوبهم بسمة الأمل ، ونور الايمان ويزيد النفوس ثقة بالله ... حيث توقن أن لحياتها معنى وغاية ، وأنها لم تكن هباء منثورا ....

وفى ظلمة الجحود ، وتحجر القلوب وقسوة البلاء المخيم ... ينبعث الوفاء انبعاثا ينثر الحب ، وينير بضيائه جوانب الدجى ، فيملأ بأريجه الطيب كل الدروب ، فيوصل ما أنقطع ، ويربط الأرحام والاشقاء والمتآخين فى الله بعروة وثقى لا أنفصام لها ، وينشر بينهم معانى الايثار والمودة والحب فى الله ....

والوفاء يجعل الخوف رجاء ، واليأس أملا ، والحزن غبطة وسرورا ، فهو البلسم الشافى والدواء الناجع للأفئدة الجريحة ، والنفوس القانطة من رحمة الله ، والعلاج الحاسم لظنون الشك والريبة .

واذا دخل الوفاء بيتا من بيوت الأرامل والثكالى ، أشرقت جنباته بعد طول عتمة ، وانشرحت صدور أصحابه بعد الكآبة والغمة ، واذا غمر الوفاء بلمساته الحنون نفوس المحرومين

والصابرين والمظلومين ، كان بمثابة البشرى التى تخلد بهـــا أفئدتهم الى السكينة والأمن والطمأنينة والأمان .

ان الوفاء مع قلته فى هذا الزمان ، يعطى لوجود الانسان على هذه الأرض معنى عظيما ، ورحلته فى الدنيـــا هدفا وغاية ، ويجعل لعمره القصير فيها ، رسالة لا تدانيها رسالة .... الا التوحيـــــد .

فبالوفاء تعلم النفوس الحائرة معنى الايثار ، وبه تلهج القلوب المتعطشة الى رحمة الله بالشكر والحمد والامتنان ، كما تقوى على مواجهة المصائب والابتلاءات ...

والوفاء بذل مع ما فيه من عناء ، وجـود مع ما فى النفس من أنانية وحـــب للذات ، وتضحية ... رغم أن طبيعة النفس الحرص والشره وحب المتاع ...

والوفاء ايثـــار النفس الخالصة من شـــوائب الهوى ، ويقظة القلب النقى من موافقة الشر ، وتجنب لمهاوى الأنانية واقبال على سرمدية الجود والسخاء والعطاء ...

لقد بلغ ابراهيم عليه السلام الغاية العظمى للوفاء لله ، فأقدم على ذبح فلذة كبده ، وأحب الناس اليــه ، عند علم يقينا أن ذلك مطلبه تعالى ، فأمتحن بهذا الابتـلاء الذى يعجـز عن تحمله اصحاب العزائم والصالحون الا قليــلا ....

« وابراهيم الــذى وفى » **« النجم : ٣٧ »**

ومن يقرأ قصة ابراهيم عليه السلام مع ربه ، لابد وأن يشعر بضآلته أمام هذا الانسان العظيم ، ولا بد أن يتقوقع داخل نفسه من جلال هذا المشهد الذى لا يمكن أن يتكرر وابراهيم يهم بذبح ابنه عليهما السلام .

وكما كان ابراهيم عليه السلام وفيا لربه ، مخلصا له تعالى ، كان ربنا أكثر وفاء ، وأعظم اخلاصا ، فأكرمه وأحسن اليه الاحسان الأوفى :

« وناديناه أن يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ، ان هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، كذلك نجزى المحسنين » .   « الصافات : ١٠٥ — ١١٠ »

والانسان الصادق اذا وضع نفسه فى تجربة ابراهيم عليه السلام ، لخر راكعاً لله خاشعا له تعالى ، ألا يمتحنه بهذا الابتلاء العصيب وذلك الاختبار الرهيب ، فمهما كان اخلاصه فانه مع ذلك ضعيف ، ومهما كان ايمانه فهو انسان يئوس قنوط ...

الوفاء اذن اخلاق الحنيفية السمحاء ، والشريعة المحمدية الغراء ، اذ يرتبط بها ارتباطا وثيقا ، فهو منحة ربانية للمخلصين ، ورحمة الهية للمحسنين ، واذا كان الوفاء مما يحض عليه تعالى المؤمنين ، فأنه يعد قاعدة اساسية للقواعد الأخلاقية فى السلوك والتربية الاسلامية التى تميز المسلم عن غيره ...

ان الوفاء بهذا المعنى ينسحب الى العلاقات الانسانية ،

فالوفى الى أخوانه قد استمد وفائه من وفاء الله تعالى ، والوفاء له تعالى ثمرة من ثمار الاخلاص اليانعة ، والاخلاص ثمرة نقاء القلب وطهارة النفس ، ودليله الاحسان .

والاحسان أعظم الفضائل البشرية قاطبة ، يحظى به أصحاب النفوس المطمئنة ، والقلوب العامرة بذكر الله ....

والعجيب أن يضرب المثل بوفاء الكلب ، وهو حيوان أعجمى لا يفقه ولا يعقل .... فكيف يتسنى له ان يتفهم معنى الوفاء والوفاء اخلاص واحسان ....

يلوح لنا أن الله تعالى بواسع حكمته وكمال علمه ، قد وهب بعض الحيوانات فضائل يتعلم منها الانسان الجاهل ، ويحاكيها الغافل ، لأنه أصبح كالانعام بل هو أضل سبيلا :

« أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »
« الأعراف : ١٧٩ »

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام »
« محمد : ١٢ »

وهكذا نجد بالاضافة الى وفاء الكلب ، قوة التحمل فى الحمار ، والشجاعة فى الأسد ، والحب فى العصفور ، والنجدة فى النمل ، والايثار فى النحل .

وكما نجد بعض هذه الفضائل فى الحيوان ، نجد فيه أيضا رذائل كثيرة كالغدر فى النمر ، والخيانة فى القط ، والدناءة

فى إلذئب ، والخبث فى الضبع ، والغضب فى الكلب ، واللواط فى الخنزير ....

وقد شغف بعض أبناء أوربا وأمريكا حبـــا ، بأنواع من الحيوان ولازموها ملآزمة الظـل بدعـوى مفتـراه ، تزعم أن الحيوان أفضل كثيرا من الانســان ... وذلك لعمرى ليس له ســند ولا دليل من الحق ، انما ينطبق عليه قول الحكمـــاء الأقدمين من أن الشبيه يدرك الشبيه ، ويصدق فيهم قول عـز من قائل :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام »
« محمد : ١٢ »

والوفاء كفضيلة كبرى وعمل صالح ، يقصد اليه الانسان المؤمن ، من أخلاق الله وخلق نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة فهو القدوة فى الوفاء ، والنموذج الانسانى الكامل فى الاخلاص والاحسان .... أما الكافرون فانهم يجعلون من سلوك بعض الحيوان ، وطبائع البهائم والانعام مثال يقتـدى ، فيتبادلون مع الحيوان وفاء بوفاء واخلاصا باخلاص ، ويبكون عليه اذا مات ويصنعون له مقابر مشيدة ، ينفقون عليها آلاف الجنيهـات ، وتزار من حين الى حين ، ثم انهم يضعون عليها أكاليل الزهور ويضيئونها بالشموع ، والله أعلم ان كانوا سيحشرون مع تلكم الحيوانات الصديقة .

ان محـــاكاة الحيوان وتقليد ســـلوكه ، تبدأ مع بداية

الانسانية عندما قتل قابيل هابيلا ، وعجز عن موراة سوءته ، حتى رأى الغراب يبحث فى الأرض ليوارى غرابا ميتاً ، قال كما ورد عن الله تعالى :

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فاصبح من الخاسرين ، فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه • قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين »

« المائدة : ٣١ »

ان تقليد الانسان للحيوان الأعجمى لا يتأتى الا من قبيل الزجر والوعظ والوعيد له ما دام غافلا عن ربه ، جاهلا بما ركبه فيه تعالى من مواهب ، وما حظى به من ميزات الخلق والخلق التى ميزه بها عن سائر الكائنات ، من عقل وارادة وقلب وجوارح •••

لذلك فان الجاهلين يحاكون الأنعام فى طباعها دون وعى ، وهذا يدل على عدم رسوخ الفضائل فى نفوسهم ، كما يدل من ناحية أخرى على مسايرة غريزة الحيوان ، وموافقة الهوى ومتابعة الشهوات ، وذلك من خصال الأنعام وأوصافها •••

ان الفضائل الكبرى ، ومنها الوفاء ، أوصاف يمتاز بها الانسان المؤمن المخلص المحسن ، الذى يدرك بقلبه السليم ، ويفهم بعقله الرشيد ، ويوفق بنفسه المستقيمة الى أفعال الخير وصالحات الاعمال ••• فيقبل على الفضائل عن طواعية

واختيار ، وقد رسخت فى عقله وقلبه ونفسه جميعا دون تكلف أو رياء أو تقليـد .... ولا يقدم عليها نفـاقا أو رياء أو استظهارا أو تملقا أو حبا فى عرض زائل ، أو شهوة طارئـة أو استجلابا لمدح الناس له والثناء عليه ... انما يفعل ذلـك ابتغاء وجهه تعالى لا يريد من الناس نفعا ولا ضررا ....

أما الجاحد بآيات الله ، فلا عهد لـه ولا وفاء ، لا يستظهر الخير طمعاً أو شرها أوطلبا لشهوات نفسه أو اتباعا لهواه ... يخيل اليك أنه حزين على صاحبـه الميت ، فينفق عن سعه على أرملته وهو شره فيها يكاد يقتنصهـا لو وجد الى ذلك سبيلا ، فيظهر طبع الحيوان الأليف ويخفى أنياب الذئب الكاسر ، حتى اذا ما امتحن عند الشدة ظهرت دناءته وكشف عن سوء طويته :

« كذلك يؤفك الذين كانوا بآيـات الله يجحـدون »
(غافر : ٦٣ :)

الوفاء اذن من اخلاق المؤمن ، وسماته الطيبة .

واذا كان لنا أن نضرب الأمثال فى الوفـاء فما أكثر ما نجدها فى خصال المسلم ، وتاريخ الاسلام العظيم خير شاهد على صدق ما نقول ....

« حضر بعض المتخاصمين الى مجلس الفـاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنـه ، ليحكم فى قضية أتهم فيها أحد المسلمين بالقتل ، ودارت المحاكمة ، وفصل فيها عمر بأقامة

الحد وهو القتل عندما رفض أهل القتيل قبول الدية ....
الا أن المحكوم عليه طلب امهاله اياماً ثلاث حتى يوفى لكل ذى عهد عهده ويرجع اليهم بعدها ليقام عليه الحد ... عند ذلك طلب أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ضامنا له من بين المسلمين ، فضمنه أحدهم ولم يكن يعرفه ، فلما سئل فى ذلك ، قال : انى أشتم رائحة الصدق فى كلامه ...

وسمح للرجل بالرحيل ومر اليوم الأول والثانى وبدأت علامات اليوم الثالث فى الأفول ، ولم يحضر الرجل ، فأقتيد الضامن ليقام عليه الحد بدلا من الفاعل الأصلى .

وشاهد الجمع على البعد رجلا يجرى نحوهم ويصيح بأعلى صوت هأنا حاضر .. حتى اذا ما قرب منهم حط رحاله وهو يلهث فاذا به المحكوم عليه ... لقد وفى بعهده ... عند ذلك تنازل أهل القتيل عن حقهم فى دمه ، لوفائه وصدق وعده ... وأخلى أمير المؤمنين سبيله » ...

هكذا هى خلق الوفاء التى يمتاز بها المسلم عن غيره ، ويتفوق بها المنهج الاسلامى فى السلوك العلمى ، على جميع النظم والعقائد والتشريعات البشرية والانسانية ...

فأى منهج أو نظام أو قانون بشرى يستطيع أن يغرس فى نفوس مواطنيه معنى الوفاء .... تلك الفضيلة الكبرى وذلك الخلق الرفيع ...مثل ما غرس ويغرس وسيغرس الاسلام فى قلوب أبنائه معنى الوفاء .

التزهد وصلاح النفس

ان الاحساس بالغربة فى هذه الدنيا ثمرة جهاد واجتهاد ، وفهم رشيد لحقيقة وجودنا فيها ، وايقان ان راحلتنا ستحط بنا الى ديارنا فى النهاية أما الى النعيم المقيم او الشقاء المبين .

لا شيء يدوم فى ضيافة الدنيا فالوجوه تتغير باستمرار كتغير فصول السنين ، هذا ربيع يتحول الى خريف تتساقط فيه الأوراق الخضراء ، وهذا يتحول بدوره الى صيف كالسعير ، يسكب فيه الانسان العرق ليقاوم حرارة الطقس القائظ ، ثم يأتى الشتاء بثلجه وبرده ليتلوى الانسان من الصقيع (١) .

ولو كانت الدنيا ربيعاً دائماً لزهد فيها الانسان ، ولو كانت حراً قائظاً لهرب منها الى الجبال ، ولو كانت برداً قارصا لهبط الى الوديان .. لكن من فضل الله آنه لا شيء يدوم فى الدنيا ، والتغير دالة البدء والانتهاء ، والحركة تعنى استمرارية الحياة التى ستتوقف حتماً بعد حين ..

ورغم كل هذه العلامات الدالة على أن الدنيا لها مكان وزمان فى الوجود السرمدى ، وأنها كالطفل يبلغ رشده ثم يهرم كالعجوز ، ثم يذبل كأوراق الخريف لتتلاشى عن الأبصار ..

رغم علامات الموت المحقق ، فانه يحلو لبعض الغافلين افتراش مائدة الدنيا ليحشروا فى جوفهم الغث والثمين ،

---

(١) لمزيد من الاطلاع راجع الشريعة الحقيقية للمؤلف

والصالح لهم والطـالح ، ويفقدون القـدرة على التمييـز بين ما ينفعهم فى دنياهم ، وما يضرهم فى آخرتهم •• وينتهى بهم الأمر الى التكالب على متع الحياة الرخيصة ، ويبـذلون الغالى والرخيص، ويجهدون أنفسهم فى الحصول على الحظوظ واللذات المتوهمة وهم غافلون •

لو صدقوا مع أنفسهم ، ولم تعشعش الأوهام فى عقولهم ، ولم يتناسوا رسـالاتهم ، ولم يتغافلوا عن حقيقـة اليقين ، لتغـير الأمر ، وسلكوا سلوك الغرباء فى ذهابهم وايابهم ، فى مأكلهم ومسكنهم ومشربهم •• فى ما لهم وما عليهم •• لكن الأمر ليس كذلك ، اذ يصبح الضيف بين عشية وضحـاها ، صاحب البيت وهماً وافتراء ، ويستبد به الوهم فيظن أن كل شىء فى حيازته هو ملك خالص له •• ولا يتردد فى أن يقاتل غيره ليحصـل على أكبر منفعة ممكنة ، ويظفـر بنصيب الأسد فيما يعتقـد أنه يسعده ويغنيه •• وتشد ساقية الدنيا كل من تستطيع أن تشد اليها ، وتحكم الغمامات على أعينهم ، ثم تربطهم فى حبائلهـا وتدور السـاقية ويدورون معهـا ثم يتعب منهم من يتعب •• ويتساقط الواحد تلو الواحد ، ليربط صيداً جديداً •• حتى اذا ما عصرته الدنيا عصـرا سحبته من ساقيتها وألقـت به فى الوادى السحيق •

والعجيب أن الانسان فى هذه الحالة ، مثله كمثل الفراش يرى النار المحرقة فيحسبها نورا واشراقا • فيتكالب عليها ليسقط قتيلا •• ولا يتعلم الانسان كما لا يتعلم الفراش من تجارب من سبقوه ، وما لاقوه من ضـراوة الدنيا ، وظلمهـا لمن فتنته من الناس والعباد •• ان صـداقة الدنيا لأمر مستحيل ، وطـول

الأمل فيها وهـم لا طائل من ورائه ، واتخاذها دارا ، خـداع للنفس وكذب وبهتان على الحقيقة ..

مادام الأمر كذلـك فما هو السـبيل الحق ؟ .. وما هـو الطريق الذى يتوجب على الانسان فى الدنيا اتباعه ؟

عاش نوح عليه السلام ألف عام الا خمسين .. ولما سئـل عن الدنيا أجاب : ما وجدت الدنيـا الا دارا دخلت فيها من باب وخرجت من آخر » (١) ومن هذه الموعظة الحسنة لنبى معصوم ، خاض التجربة الدنيوية مئات السنين ، يتبين للمتأمل انه لا أمل له فى توثيق عرى الصداقة مع الدنيا ، اذ لا أمن معها ولا أمان لهـا ..

ويقتضى الأمر اعادة التفكير فى أمر دنيانا واتخاذ القرار المناسب لتحديد التعامل معها ، واستخدام الأسلوب العملى الملائم للدفاع عن أنفسنا ضد فتنتها واغراءاتها ..

ولا سبيل الى ذلك الا باعتبار الدنيا مخيم مؤقت فى رحلة قصيرة ، وأننا عابـرو سبيل ما نفتأ أن نشد رحالنا الى مكـان بعيـد ..

ان الاحساس بالغربة فى الدنيا يجب أن يسود كل حياتنا ، وبذلك نتخلص من فتنتهـا وشهواتها ومائدتهـا التى لا تشبع أحـداً ..

وللغريب أوصـاف وخصائص ومواصفـات ، فهو يتخلق

(١) احياء علوم الدين ـــ الامام الغزالى ج ١٣ « كتاب الشعب »

بخلق الأنبياء ، ويتسلح بزهد الأتقياء ، ويتقوى على الدنيا بالأفعال الصالحة وأعمال البر النافعة ..

وموائد الغرباء فى الدنيا قليلة ، فلا يأكلون الا جوعى ولا يشربون الا عطشى ، ولا ينامون الا لماماً ، حياتهم جهاد ، نهارهم عمل دائب وليلهم ذكر دائم ، أياديهم تمسك بالدنيا وقلوبهم دوما مع الله ، وهم بين الخوف من وعيد الله ، والرجاء فى وعده تعالى قانتين . لا يرون لأنفسهم فضلاً على أحد وان أمضوا جل حياتهم فى تقديم العون وخدمة الناس والعباد ..

العابرون من الدنيا الى الاخرة يجتازونها كأنهم فى قارب نجاة ، من تحتهم موج متلاطم ومن فوقهم رب رحيم ، يخافون أن تشدهم الدنيا فيغرقون فى مفاتنها ، ويقعون فى خطاياها ، ويسقطون فى هاوية الغافلين . .. ويرجون أن ينتهى مقامهم فى قارب النجاة على خير حال ويصبحون وقد وصلوا الى شاطىء الأمن والأمان ليجدوا فى انتظارهم رباً كريماً غفوراً رحيماً .

وربما يضحك الغافلون على سلوك الغرباء ، ويسخرون من تصرفاتهم حيال الحياة الدنيا ، ويتهمونهم بالسلبية والانعزال لتباعدهم عن الناس والعباد ، وتقربهم الى حياة التأمل والذكر والتعبد لله ..

لكن الذين يسخرون منهم اليوم سيندمون فى الغد القريب ، حيث يقولون انا كنا من الغافلين وهؤلاء كانوا من المخلصين الصادقين .. سيمرون كعابرى سبيل فى الجنة ليروا المخلصين وقد نعموا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب

بشر .. لقد أصبحت الجنة سكناً دائماً لهم ، وأنسـا مقيما .. وراحة أبدية يتنعمون فيها .

لا يحزنون أبداً ولا يغتمون ولا يألمون ولا يمرضون .. استقرت حيـاتهم بلا زمـت ولا حصـر ولا قلق ولا فـراق ولا وداع .. سعدوا بلقاء ربهم وهو نعم الأنيس الكريم ..

يمر أصحاب الدنيا من الغافلين ويعضوا على أناملهم من الغيظ .. ليروا الجنة ونعيمهـا وهم يقولون : يا ليتنـا سمعنا وأطعنا .. يا ليت دنيانا لم تخدعنا .. يا ليت ترجع حياتنـا الدنيا ، لنخلص لله كما اخلص المخلصون ، ونرجع عن غينـا وقساوة قلوبنا وضحالة أفكارنا وبعدنا عن الحق المبين .

لكن الدنيا فى الآخرة حلم مضى وولى ، وذكرى مفرحة لمن اتقى ، وأليمة لمن غفل وضل ، يقول الظالم لنفسه : يا ليتنى كنت عاملا لله ، ويقول الصالحون : الحمد لله . اننا لم نشرك بربنا أحـدا ..

ألا يجدر بالغافلين وهم ما زالوا يعيثون فى الأرض فسادا وافسـادا أن يصحـوا من غفـلاتهم ، وأن يهبـوا من نومهم ، ليفعلوا ما يصلح لدنياهم وآخرتهم ..

ان لحظـات العمر قليلة ، تمـر مر السـحاب ، وتنقضى مثل السراب ، كحلم مزعـج أو سـراب يحسبه الظمآن ماء .. ثم تأتى الساعة على حين غرة فترتعد القلـوب الغاشية ويموت الظالمون كمدا ورعبا .. ويجرى يوم الحشر العظيم ، أصحاب الدنيا ، هنا وهناك لعلهم يجدون سبيلا ينقـذون به جلودهم ،

من محارق الاخـرة ، لكنهم يجـدون دنياهم قـد ضاقت عليهم وأصبحوا فى قبضـة الرحمـن ‥ لا ملجـآ لهم الا اليـه ‥ ولا مهرب لهم من العذاب الأليم ، فيقذفون فى سعير جهنم وقوداً لنارها المتأججة ‥ حتى اذا ما تلاشوا فيها اعيدوا اليها وألقوا فيها من جديد ‥

أما الصابـرون فقد تحققـت لهم كل مباهـج النعيـم ، وأفردت لهم موائـد مما يشتهون وما يحبـون . واستجيب لهم ما يطلبون وما يرغبون ‥ يقولون قد صدق ربنا ما وعدنا حقاً اذ قال : « وبشر الصابرين » ‥

الطـاعة

يقال في اللغة ، شخص طـائع ٠٠ ومطيع ٠٠ والطـوع ضد الكره ، أى الاستجابة والانقياد ، وكلها بمعنى ٠٠ لان ٠٠ وانقـاد ٠٠

فاذا مضى الشخص مؤتمـرا بأمـر ٠٠ فقـد طاوعه ٠٠ واذا وافقه فقد اطاعه ، وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى :

« وله أسـلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها »
« آل عمران : ٨٣ »

وقوله تعالى :

« ويقولون طاعة » **" النساء : ٨١ »**

كما ورد هذا المعنى فى قوله تعالى :

« سمعنا وأطعنا » **" البقرة : ٢٨٥ »**

وكل هـذه الآيات الكريمة تـدل على معنى الطاعة الـذى يخالف طبـع النفس التى جبلت على عمـل المخالفات ، وحـب المعاصى والانقياد الى حظوظها وشهـواتها والنزوع الى اللـذة وكراهية الصبر على الألم ٠٠

فالنفس الانسانية تجد لذتها فى فعل المحظورات ، كشرب الخمر ، والزنا ، والفواحش ، وكلها علامات الغواية والضلالة ، وهذه النفس تثقل عليها الطاعة والعبادة ولا تجـد حلاوة لها فى القلب ، بل تسهل عليها المعصية ، وتجد حلاوتها فى نفسها ٠٠

ومعنى ذلك أن الانسان لم يصدق فى توبته ، لأنه لو صح الأصل لصح الفرع ، ولو تبصر الانسان لأطاع مولاه عز وجل ، كما يطيعه خادمه ، فاذا ما كان له خادم فيجب أن يجده عاملا من أجله ناهضا لخدمته ، بل يجب منه الطاعة ، ويطلب منه أن يسرع الخطى لقضاء حاجاته ، ويتعجل دائما تنفيذ ما يأمره به .

لو طبق الانسان طاعة خادمه له ، وأطاع ربه مثل ما يطيعه خادمه ، لكان ذلك فضلا وخيرا .

لكن الانسان كثيرا ما يقف على أبواب الخلق مهانا ذليلا ، ومع ذلك لا يرجع لخالقه لأنه مشغول بغيره ، ولو تبصر ما وجد من يستحق الطاعة غير الله عز وجل ..

كما تميل النفس أيضا الى المعصية والتى نجدها ممثلة فى الفاجر .. والفاسق والكافر .. والمعاصى على هذا النحو ، أفعال واضحة جلية ، يحكم بها صاحبها بالخروج عن آداب الدين ، ويتهم بالتقصير فى السنن الواجبة والآداب ، ويقتص منه اذا خرج عن الشريعة الاسلامية ، وذلك باقامة الحد عليه ..

أما الطاعة لله ، فالحكم على صاحبها جد عسير ، لأن هذه الطاعة باطنة خفية ، اذ يظن بعض الناس أن الطاعة لله هى ورع ظاهر وخشوع وتقوى ظاهرة ، فيتقربون الى الله بالصوم والصلاة والتزهد فى الحياة الدنيا .. ولكنهم فى الحقيقة يخفون فى قلوبهم المريضة نفوساً أمارة .. وقلوبا جاحدة .. وظلمة وحقدا وحسدا .. واعتراضا على خلق الله وميلا الى العدوان ..

وليس من اليسير أن تنكشف سريرة هذا الشخص ، ويتضح

أمره ، اذ أنه يتستر بالطاعة بغية تحقيق شهوات نفسه المريضة ، ويستظهر تقوى كاذبة لله أمام الناس ، أما قلبه المظلم فمنشغل بغير الله ، وهو يقوم فى ظاهره بالطاعات وآداء التكاليف وأعمال البر ، الا أنه يقصد من ذلك اهتمام الناس به واقبالهم عليه ، وثناءهم على ورعه وتقواه ٠٠

وهدفه من ذلك مدح الناس له ووصفهم له بالاستقامة والصلاح ، كما انه يرغب من تلك الطاعات فى الشهرة والجاه وحب الظهور ، فيرضى بذلك نفسه المريضة وقلبه المحجوب عن الحق ٠

واذا أردنا ان نمتحن ايمان ذلك الشخص ، فاننا نجده يتبرم ، اذا لم يثن الناس على أفعاله ، ويحزن اذا لم يمتدح الناس تقواه وورعه وخشوعه ، بل أنه يهاجم من يقصر فى احترامه ، ويعتدى على من يتراخى فى تبجيله ، ويتوعد من لم يسرع الى خدمته والعمل على راحته ، فهو يعتبر نفسه مستحقا لثناء الناس ومدحهم وهو فى واقع الأمر مريض النفس ٠٠ ليس تقيا ولا طائعا ، ولا مخلصا ٠٠ انما هو مصاب بداء عضال يصعب تقويمه وعلاجه ، لأن مرضه خفى مستور ، يستعصى على غير العارف معرفته ، لأنه يحتاج الى فراسة وبصيرة ، بل ومعرفة بخفايا النفس وخواطرها ، اذ أن هذا الشخص ٠٠ يتخفى تحت ستار الطاعة وهو عاص مشغول بهوى نفسه ليحقق لذاته وشهواته النفسية ٠

أما الفاسق والعاهر والفاجر ، فانه من اليسير الحكم على سلوكهم ، وأخلاقهم الدنيئة وذلك من خلال أقوالهم وأفعالهم ٠٠

بخلاف مدعى الطاعة والصلاح والايمـان والولاية فانهم جميعا يظهرون غير ما يبطنون فيظهرون الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ويهرعون الى أعمال البر وآداء التكـاليف والعبادات ..

ومن هنـا لا ينكشـف أمرهم الا بطـول تأمل ، ولا يتضح فسادهم الا باختبارهم فى الرياضات والمجاهدات ، فهم أصحـاب الرياء الخفى الذى يستغلـق على كثير من الناس معرفته ، وهـو نوع من الشرك الخفى ، لان صاحبـه يعتبر نفسه صاحب مقـام عال .. فنفسه غرورة ، متكبرة .. تنازع الله سبحانه وتعـالى فى جبروته وملكوته ، وتعتبـر أن من يجهل درجتها فى العلـم والولاية انما هو جاهل .. يستحق التأديب والتربية .

لذلك تنزع هذه النفس التى هذه حالها الى التوعد والوعيد لكل من يقصر فى حقها وهذه دعوى كاذبة .. كما تدعى انهـا نفس قريبة من الله سبحـانه وتعالى ، مرادة له تعـالى ، وأن من لا يعرف ذلك عنها فهو عدو الله ..

ويرى بعض الأئمة أن المراد بالطـاعة فى القلب ، ويقـول فى ذلـك :

« أعلم أنه اذا ثقلت عليك الطـاعة والعبادة .. ولم تجـد حلاوتها فى قلبك ، وسهلت عليك المعصية ، ووجدت حلاوتها فى قلبك ، فمعنى ذلك انك لم تصدق فى توبتك لأنه لو صح الاصل ، صح الفرع » ..

ثم يقـول :

« فيا ليت تطيع مولاك كمـا يطيعك خادمك ، فأنت تحـب

عاملك ناهضا على خدمتك ، بل أنت تحب منه الطاعة ، وتطلب منه دائما أن يسرع فى قضائها كأنك « أبدا » فى عجلة من أمرك » (١) .

ويمكن التمثيل لمعنى الطاعة بقصة ذلك الملك الذى كان يؤثر أحد عماله على غيره من المساعدين والخدم ، مما سبب فى حقدهم على هذا العامل .. وتعجبوا كيف يقربه الملك اليه ويؤثره عليهم ، وهو أقلهم شأنا ، وأضعفهم حيلة ..

ولما علم الملك منهم ذلك ، طلب ان يعد رحلة صيد .. واستصحب معه أكثر حاشيته .. ولما وصل الملك الى مكان الصيد اتجه بنظره الى الجبال من حوله .. وكان يقف عامله المقرب الى قلبه بجانبه .. واذا به يغيب .. وبحثوا عنه فلم يجدوه .

وبعد مدة من الزمن حضر حاملا بين يديه قطعاً من الثلج .. فلما سألته حاشية الملك عن سبب استحضاره الثلج ولم يطلب منه الملك ذلك .. رد الملك عنه قائلا :

« هذا سبب محبتى له وقربه الى قلبى ، فهو لا يكف عن ملاحظتى لأنه مشغول بى دائما .. ومن كثرة اهتمامه بأمرى ، يعرف ما يدور بخلدى .. أما انتم فمشغولون بحظوظ أنفسكم .. » .

وسألت بعض الحاشية العامل :

---

(١) راجع للمزيد « الشريعة والحقيقة » للمؤلف

(٢) التنوير فى اسقاط التدبير ـ ابن عطاء السكندرى ص ٩٣

كيف عرفت ان الملك يريد شيئا من الثلج ؟

فقــال :

« لما نظر الملك الى قمم الجبال ·· ونظرة الملوك لا تخيب ·· ولا يمكن أن تكون بلا دلالة ، ألهمت آن الملك يريد شيئا من ذلك الثلج ·· فذهبت واستحضرت قطعا منه ·· »

والذى يهمنــا فى هذه القصــة ارتباطها بالاخــلاص ·· ودلالتها العميقة فى معنى الطــاعة ·· وتعالى الله عن التشبيه والتمثيل ·· ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ··

فالطاعة الحقة هى القائمة على الانشغال بالله ، والعمل على ارضائه واســقاط التدبير معه تعــالى ·· فلا ارادة للعبــد مع الرب ·· وهنا يحظى بقربته ، ويلهم من لدنه علمــاء ويفيض عليه بنعمه وعطاياه ·· فضلا ومنة ··

فالعامل الذى قربه الملك لانشغاله به ، انما استحق ذلك عن جدارة لاخلاصه وطاعته ·· فما بالك بالتقرب الى مالك الملــوك وانشغــال العبــد بــه ·· وطاعته لــه ·· ألا يحبــه ويرضى عنه ·· ويمن عليه بما لا عين رأت ·· ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلــب بشــر ··

القنــوت

ما أعظم ذلك الفرق بين القانت والقانط ، بين الطائع لله ، وبين يائس من رحمته ، بين الصادق مع الله ، والكافر بنعمته ، بين الصابر لله وفى سبيل الله ، والمعترض على حكمته والمتحدى لبلائه وابتلائه ...

أنه لجد فرق عظيم حقــا بين أهــل الدنيا ، وأهل الآخرة ، بين أصحاب الجحيم واصحــاب النعيم ... يقول تعالى عن أبى الانبياء :

« ان ابراهيم كــان أمة قانتا لله حنيفــا ولم يكن من المشركين »
« النحل : ١٢٠ »

فالقانت موحد بالله ، صــادق الوعد معه تعــالى ، لا يطلب من حوائج الدنيا وحظوظها الزائلــة ... الاما قد قسمه اللــه له ، ولايطالب بحاجة لم يقسمها الله تعالى ولا يحتج عليها ...

والقانت طائع لله ، والطاعة دليل العلم بالله ، والعمــل لله والاخــلاص له تعــالى ... والقنوت منتهى الطاعــة (١) ، والطاعة هى مخالفة لطبع النفس الأمــارة التى جبلت على حب المعاصى ، والانقياد وراء الشهوات ، والنزوع الى طلب اللذات ، وولوج الطرق السهلة واليسيرة طلبا للراحة وحبا فى الكســل الخمول ... وهذا كله من غواية الشيطان والضلال المبين ..

---

(١) راجع المزيد « الشريعة والحقيقة » للمؤلف

ولم تجد حلاوتها فى القلب ، والنفس اذ تركت لأهوائها دون تربية أو هدايه ثقل عليها معنى الطاعة ، وسهل عليها أتيان للمعصية ، وأقتراف الفواحش ، ووجدت حلاوة ذلك فى القلب ، فاذا لم يكن الانسان تائبا التوبة النصوح لم يكن طائعا ولا قانتا لله ٠٠٠

« فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله »

« النساء : ٣٤ »

لو أطاع الانسان ربه ما غوى وما عصى ، ولا وقف بباب الخلق يلح فى الطلب والرجاء مهانا ذليلا ٠٠٠ لو أطاع الانسان لوجد أنه تعالى وحده المجيب لطلبه ورجائه على الحقيقة ، المعين على الدوام ٠٠٠ المنعم عليه على الاستمرار ٠

ان هذا الكون الفسيح العريض ، بما يحوى من أرض وسموات تسبح بحمد الله ، أناء الليل وأطراف النهار لاتعرف توقفا ولا راحة ولا مللا ، تشكره تعالى على نعمائه ، اذ لا تعرف معنى الاعتراض أو العصيان أو التحدى لأمر الله وعلم وحكمته ٠٠٠ فالكون كله مطيع لله ، قانت له تعالى ٠٠٠

فما بال الانسان يغفل ويتغافل ، وينسى ، ويدعى ويزعم ، ويجادل فى الحق ٠٠ الذى ٠ يرضى به تعالى ، كما حذره من طريق الباطل وغواية الشيطان ٠٠ الا أن الانسان مع ذلك يعصى الله كثيرا ويطيعه قليلا ،

ولماذا يكون الانسان هو المخلوق الوحيد الذى يقنط من رحمة الله ، ويعترض على أمره ، وييأس من عدله ، ويتحدى

علمه وحكمته .... لماذا يفـرح الانسان عنـدما يأتيه الخير وينسبه الى نفسه ويقرنه بعلم عنده ويباهى بقدراته ، وينكى عمله .. وينسى خالقه الذى يسر له ذلك الخير ، وويسط له يد النعمة . وأكرمه بها ... فاذا ما تغير الحال وقبض تعالى يده عنه ، وأمتحن بالمحن والصعاب ، وأبتلى بالنقص فى المال أو الولد أو العافيـة ، وأختبر ببعض المصـائب والبلايا ، فما بالـه على حين غرة ... تتغير نفسه . ويسود قلبه ، ويضعف الأمل عنده ويضيع رجاؤه فى الله ، فيمرض حزنـا وكمدا ، معترضـا على على حكم الله يائسا من عدلـه ، شاكيا طالبـا رفع الظلم عنـه ، وازالة المصيبة التى أحيطت به ، ومازال على هذا الحال قانطـا يائسا الى أن يتوفاه الله ، أو تنزل به رحمـة منه تعـالى ...

« لايسئم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيئوس قنوط »
« فصلت : ٤٩ »

واليأس أعلى درجات القنوط ، والقنوط انقطاع الأمل فى الخير ، واليأس منه ، واليأس صفة ملازمة للمشرك والكافر ... لأنه يظن الدنيا يجب أن تسير وفق هواه ، وتمضى الأمور بحسب ما يرغب وما يرغب وما يهوى ... فاذا جاءت بخـلاف هواه ، ضاق وتبرم ويأس من رحمة الله وفضل الله وحكمة والله .. اذ هو شديد اليأس فى الخير والبركة ...

« ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون »
« الحجر : ٥٦ »

ان الله تعالى يمتحن عبـاده بالابتـلاءات . ويجرب صدقهم بزيادة المال ونقصه ، وبكثـرة الولد وبقلته . ليعرف القانتين منهم والقانطين ...

ويبدو القانط خاملا متبطلا بليدا مفتور الهمة ، مسلوب الارادة ، ضعيف النشاط والحيوية ، كأنه ابكم لا يتكلم ، أصم لا يسمع ، دائم الخوف والفزع ٠٠٠ يعيش فى رعب دائم ، وفزع مستمر :

« ولئن أذقنا الانسان منا رحمه ثم نزعناها منه انه ليئوس كفور » « هود : ٩ »

والقانط بهذا المعنى تتبلد حركته ، ويخمد جسمه ، وتسود الدنيا فى عينه ، وتكتنفه الهواجس والوساوس ، ويسحقه القلق والزمت ، ويعتريه شعور بالحقد على الغير ورغبة جامحة فى العدوان على الأخرين ٠٠٠ وأحيانا تؤرقه هذه المشاعر الأليمة ، والأحاسيس المبغوضة ، فيوجه يأسه الى نفسه ويقنط فيقدم على الانتحار ٠٠ وبذلك يضيع دنياه وآخرته ٠٠٠

ما أعظم الفرق بين الفرق بين القانت والقانط ، فالأول يحيا فى امن نفسى ، ويعمر قلبه الأمن والطمأنينه والسكينة ، فلا يشكو ولا يتبرم وانما يحافظ أبدا على حقوق الله ، ولايترك فرضا من فروضه ، ولا يهمل تكليفا من التكاليف الشرعية ٠٠٠ ولا يتكاسل عن واجب أمر به تعالى أو رسوله صلى اللهعليهوسلم، ولا يؤخر عملا من أعمال البر أو أفعال الخير ٠٠

أما القانط من رحمة الله ، فهو عدو لنفسه وربه جميعا ، فقد فى قلبه الرحمة بفقد رحمة الله وضل ضلالا بعيدا ٠٠٠ اللهم اجعلنا من القانتين حتى نعبدك حق عبادتك ٠

الباب الثالث

(وسائل التربية الاسلامية)

الفصل الأول :

١ ــ القــدوة

٢ ــ المحاكاة

٣ ــ التكلف

٤ ــ الطبع والتطبع

٥ ــ التعلم الشرطى

الفصل الثانى :

١ ــ الترغيب والترهيب

٢ ــ التخلى والتحلى

٣ ــ الوعظ والموعظة

٤ ــ التوجيه والارشاد

٥ ــ التمثيل بالقصص

مقـدمة :

يعتبر العلم أهم خاصيـة يمتاز بها الانسان المسلم المؤمن ، ذلك لأن نقيض العلم هو الجهل • والجهل هو عدو الاسلام الأول، والجاهل عدو نفسه والناس جميعـا •• وأفضل العلم ما اقترن بالعمل ، وافضل العمل ما أقترن بالاخـلاص ••والعـالم الذى يبخل بعمله مثل دودة القز التى تنشغل طوال حياتها بغزل خيوط الحرير ، وتكد فى ذلك كدا عظيما ، ثم مـا تلبث ان تلفـة حول شرنقتها فتموت اختناقا فلا استفادت ولا أفادت غيرها •

أما العالم الذى يجود بعلمه فقد أكرم فى الحـديث النبوى كثيرا •• وزكاه الله تعالى فى آياته البينات :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات »
« المجادلة ١١٢ »

« فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أمتى »(١)

« فضل العالم على العـابد كفضلى على أدناكم » « من حديث للترمذى عن أبى أمامة » (٢)

ولاريب ان نجاح التربية مقترن باخلاص العلماء ، وتطبيق منهج الله فى السلوك والعمل ، والاخلاص فى االعلم ، ويمكن أن ينشأ جيل من الشباب المسلم يحمـل الرسـالة ، ويؤدى الأمانة ، وبذلك يتكون المجتمع الطاهر المتحضر النقى التقى •

---

(١) ذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » مع تغير فى اللفظ وقال انـه ضعيف ، كما ذكره الخطيب عن أنس
(٢) قال عنه السيوطى فى جامعه انه حديث صحيح

فالتربيـة الاساسيـة فى الاسـلام اذن ، تقوم على العلم ، وليس العلم المقصود هنا العلم المادى فحسب ، وانما العلم المادى والروحى جميعا .. وهما يسيران جنبا الى جنب فيغذى الروحى المادى بأهدافـه ومقوماتـه الاسلاميـة ، وينشط العلم المـادى فيدفع الروحى الى الايجابية والجهاد والسعى من أجـل الرزق ، فلا تتحكم الماديـة فتصير افراطـا ، ولاتتحكم الروحيـة فتصبح تفريطاً وشحا .

وهكذا تختلف وسائل التربية الاسلامية عن وسائل التربية فى جميع النظم والفلسفات التربوية الغربية والشـرقية ، ذلك لأن تلك النظم تركز على جانب واحـد فى الانسان امـا الجانب المادى أو الروحى .. وهذا ما ينشأ عنه الصراعات والقلق والخوف من ناحية ، وللامبالاة والشهوانية والأنانية والعدوان من ناحية أخرى ويفتقد التوازن والاعتدال والقسط فى ضمير الفـرد والمجتمع جميعـا .. وقد استخـدم العلمـاء المسلمون طرقـا وأساليب تربوية ، سبقوا بها الانظمة الغربية والوسائل التربوية الحديثة بقرون عديدة نعرض لها فى الصفحات التالية ....

(أ) التربية بالقدوة :

وهى فى اختيار الشخصية المتكاملة ، التى يمكن أن يتخذها الطفل أو الشاب قدوة له ، فتصير الأنموذج المثالى للشخصية التى يود ان يتشبه بها فى عمله وسلوكه وأخلاقه .. ولا شك أن اعظم شخصية على الاطلاق وفى كل زمان ومكان هى شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يأت الزمان بمثله ، ولم يرفع عند الله احد مثله ، لقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، ورباه تربية ربانية ليكون للعالمين نبياً ورسولا الى ان تقوم الساعة .

والرسول الكريم صلوات الله عليه ، حياته ومماته وتاريخة وسيرته ، مدونة ومتواترة ومؤيدة من مصادر عديدة ، فليس هناك غموض ولا التباس ، ولا ظن أو تأويل عن شخصيته وأخباره وأقواله وأعماله ، كما نجد ذلك فيما سبقه من الرسل ، الأمر الذى يؤدى الى التشكك والبلبلة كما هو الحال عند بعض النصارى الذين يزعمون ان شخصية المسيح عليه السلام وهمية وغير حقيقية ، أو يتصور بعضهم انه اله نزل الى الأرض لفترة من الزمان ، ثم قتل وعاد الى السماء .

ان الاقتداء بشخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان خلقة القرآن فقد عمل به ، وسلك طريقة وتأدب بآدابه فى مأكله ومشربه وغدوه ورواحه وكلامه وعمله .. ان الاقتداء به لهو الطريق الموصل الى التربية السليمة ، فهو كالسراج المنير الذى يشرق به قلب المسلم ، فيتعرف بسهولة ويسر على ما يجب فعله ،وما يجب الانتهاء عنه من أفعال وأعمال .

وهذه هى المكرمة التى كرم بها الله تعالى أمه الاسلام ،

فأوحى الى النبى العربى الأمى ، وبعثه نبيا ورسولا ليدعو الناس كل الناس الى الوحدانية ، واتباع شريعة الله والعمل بكتابه القرآن الكريم ·

فأى قدوة يجدها المسلم أفضل من هذه القدوة ، وأى تربية يمكن أن يربى عليها أفضل من التربية المحمدية ·

ان فى السير على منهج الرسول الكريم علماً وعملا ، لهو الطريق الموصل حقا الى السعادة فى الدنيا والآخرة ··

ولقد سار أصحابه الكرام الأبرار على هديه ، واتبعوا سنته ، وطبقوا تعاليمه وأحاديثه وأقواله ، دون أن يخرجوا عنها قيد أنملة ·· فتعلموا كما لما يتعلم أحد بعدهم ، وتربوا كما لم يرب أحد مثلهم ، وأخلصوا العلم والعمل ، فلم يسبقهم أو يجاريهم أحد فى الآداب والعلوم والسلوك والأخلاق ·

وهكذا أثمرت التربية الاسلامية ، عن طريق الاقتداء بشخصية الرسول ثمارها ، وأزدهر المجتمع الاسلامى ، وفتحت البلدان والدول ، وانتشر العلم فى كل مكان من هذا العالم ، بفضل هؤلاء الصادقين المخلصين العاملين بعلمهم ··واشرقت اوربا بالعلم الاسلامى بعد الظلمات ، وأخذوا عن المسلمين علومهم وحضارتهم ، واستفادوا من التابعين وتابع التابعين ، الذين تأدبوا بالآداب الاسلامية ، وتربوا على منهج الله القويم ·

ان التربية بالقدوة الحسنة ممثلة فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، لهى السبيل المشرق للاجيال المقبلة ، وان ترك الاقتداء به ، لهو الطريق المسدود الذى يصل اليه الشباب ، التعس الضائع ·

ولاشك أن الدعاوى المغرضة ، التى تبثها سموم أصحاب الغزو الفكرى الالحادى ، هى التى جعلت الأمة الاسلامية على هذا الحال من التخلف والأمية ، اذ اقتدى المستغربون والجاهلون بمنهج التربية الغربية ، وأصبح أسلوبهم فى الحياة ، وطابعهم المميز فى السلوك ، وآنبهروا بفنون الغرب ، فقلدوا أفعالهم وتشككوا فى الاسلام واتهموا اصحابه بالجمود ٠٠ ونسوا دين الله واتخذوا الالحاد والوثنيات الحديثة ٠٠التى تدعو الى عبادة الجنس ، والسجود للعقل ، وتألية الماديات والحسيات ، وتنكر خلاف ذلك اسلوبهم ٠٠ اتخذوا الفصل بين الدين والعلم شعاراً لهم ، حتى يتمكنوا من ارواء شهواتهم ٠ وتلبية مطالبهم الدنيئة وزعموا أن الحرية الفوضوية هى طريق التحضر والمدنية ، والقوة المادية هى سبيل البقاء والنجاح والسعادة ٠

ولقد تفشت هذه المزاعم اللا أخلاقية ، وزحفت من الغرب قاصدة تدمير مقدسات المسلم ، والقضاء على أخلاقياته وقيمه ومثله العليا ٠

لذلك وجب على كل مسلم ومسلمة الجهاد من أجل نشر التربية الاسلامية والاقتداء بالسنة المحمدية ، والعمل لايقاف هذا الزحف الهدام ، وذلك بالتمسك بالشريعة السمحاء ، وولوج كل طريق للدعوة للرسالة المحمدية ٠

ولاشك أن القدوة تؤثر تأثيراً خطيرا فى المقتدى ، وتبدأ من الوالدين ، فاذا كانا ذا أخلاق حسنة وتربية قويمة ، فان ابنائهما يحاكون ويقلدون أفعالهما وأعمالهما ، اذ الطفل يحسن الظن بأبويه ويثق فى كلامهما ثقة عمياء ٠٠وتؤثر فى نفسيته

نصائحهما وتوجيهاتهما وارشادهما ، ومن ثم وجب أن يقوما بتوجيه الطفل توجيها مستقيما ، فلا يستخدمان القسوة والغلظة ، ولا اللين الشديد والتسيب ٠٠ بل يجب أن يكونا فى لين مع الحزم ٠٠ وان يرشداه الى الطريق الحق ٠٠ ويعاوناه على تفهم دينه القيم ، ويساعداه على معرفة المفاهيم والقيم الاسلامية ٠

ثم يأتى بعد ذلك دور المدرسة ، ويعتبر المدرس أمام التلاميذ القدوة الحسنة ، فهو الذى يقومهم ويؤدبهم ويعلمهم وقد كفلت له طبيعة وظيفته ، أن يكون قيماً عليهم ، موجها لهم ، ومن ثم وجب أن يقوم بهذا الدور الخطير بامانة واخلاص ، وقد أصبح للتلاميذ قدوة ، فاذا تخلى عن رسالته افسد جيلا ، وخان أمانته ، وضيع حياته الدنيا سدى ، وفى الآخرة له عذاب عظيم ٠

ان التربية فى الدول المتقدمة تكنولوجيا وماديا ٠٠ تعاون على تنشئة المواطن الممتثل للقوانين والأنظمة ، الحريص على اتباع ما نشرته الدولة من قواعد ولوائح ، تحرم تصرفات وتبيح تصرفات ، وتمنع عنه اشياء وتبيح له اشياء ٠

فاذا أباحت تلكم القوانين الربا ، سعى الانسان لتحقيق أكبر ربح ممكن ٠

واذا أباحت العلاقات غير المشروعة أعطى لنفسه هذا الحق ليحقق أكبر لذه ممكنة ٠

واذا أباحت الرأسمالية الاحتكار ، عمل على أن يحق لنفسه مركزا ماليا قوياً ، حتى ولو كان ذلك على حساب الآخرين ٠٠ ولو عاش هو ومات الآخرين ٠٠ وكان قانون الغاب هو الذى

يحكم تلك العلاقات بين الناس والذى مؤداه : « فلأعش أنا وليمت الآخرين » .

وقد عملت الصهيونيـة العالميـة على ترويج شعـارات اللامبالاة والحرية الفوضوية ، حتى تنهار القيم والأخلاق ، ومن ثم يمكن السيطرة المادية على اقتصـاديات العالم ، وجعله منقاداً لأفكارها التدميرية ورغباتها المادية التى لا تشبع •• ولهذا فقد جندت بعض أعوانهـا من العلماء الغـربيين للترويج لكل فكـر فاسد ، ومذهب منحل ونظرية كاذبة ومزعومة •• وقد فضح كل ذلك كتابهم « بر توكولات حكماء صهيـون » فتقرأ فيه دعاويهم المغرضة وأهدافهم الرخيصة التى منها :

« يجب أن نعمل على انهيار الأخلاق فى كل مكان من العالم لتسهيل سيطرتنا عليه » ••

« ان فرويد منـا ونحن منه » ، وسيظل يعرض العـلاقات الجنسية فى ضوء الشمس •• لكى لا يبقى فى نظر الشباب ثمـة شىء مقدس •• وليصبح كل همه ارضاء شهـواته الجنسية •• لقد روجنا لفرويد ورتبنا له ، ليصبح كل هم الشباب التحلل من الدين •• ولا شك أن الأثر الهدام الـذى يحدثه الفكر اليهودى واضـح لنا بكـل تأكيـد •

لقد نجحت الصهيـونية فعلا فى القضـاء على الايمـان من قلوب غالبية المسيحيين ، ولم يبـق بين النصـارى الا المتشكـك والملحد والكافر بالله •• الا أن الصهيونية لم تكتف بالقضاء على الايمان بالمسيحية ، فلن يشف غليلها الا القضاء على الاسلام من

قلوب أبنائه ، وهذا التخطيط يستهدف منه اخلاء العالم من الايمان ، ليسهل السيطرة عليه بعد تقويض عرى الدين ·· وافساد الأخلاق ··

انه لمن الغريب حقاً أن نجد التلمود ، وهو كتابهم المقدس المحرف ، يدعو الى القتل والابتزاز والاستغلال ، وابتداع الأيديولوجيات اللاأخلاقية التى تعاون على التصارع الدموى ·· ولا يهم اليهود الكثرة العددية ، بقدر ما يهمهم السيطرة على مراكز المال والاقتصاد وتوجيه الاعلام ·· وبهما حققت الصهيونية اغراضها الدنيئة فى توجيه السياسات فى الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى ، من أجل دعم مجد اسرائيل ، واسرائيل وحدها ·

لذلك فان واجبات المشرفين على مؤسساتنا الثقافية ، أن يضعا المنهج الاسلامى الواجب الاتباع ، وان يتفحصوا كل ما يقدم لابنائنا من أفكار ومذاهب ونظريات غربية كانت أو شرقية ·· وأن لا يقبلوا الا ما يطابق شريعتنا ويواكب أخلاقياتنا ومفاهيمنا ومثلنا العليا ونظرتنا الى الحياة ·

فتقليد مناهج الغرب الحياتية ، وتقليد آرائهم وأفكارهم بدعوى أنهم سبقونا فى العصر الحديث فى النواحى الحضارية والتمدين قول مرفوض وزعم باطل ، ذلك أن الاسلام نبع فياض ، والقرآن الكريم شامل كامل جامع لكل ما يحتاج اليه المرء فى حياته وآخرته ·

ولكى لا نشعر بهذه العقد ، التى تنمو فى بعض عقول

مثقفينا الذين لم يتعبوا أنفسهم بمقارنة المنهج الاسلامى بالمناهج الوضعية والنظم البشرية ، نقول لكى لا نشعر بهذه العقد ، علينا أن نتدارس علومنا القرآنية ، وتراثنا الاسلامى العظيم ، وسنجد مما لا شك فيه كل ما نصبوا اليه من معارف ، وما نحتاج اليه من النظم التربوية والأخلاقية والاقتصادية ، وسنعثر على ضالتنا فيما يتعلق بالعلوم الانسانية والحياتية ٠

ان النظريات التربوية والأخلاقية التى آتى بها الغرب فى هذا العصر تسمم افكار شبابنا وتعبث بمقدساتنا ، وتظهر لأنصاف المثقفين أنها يقينية ومؤكدة ٠٠ والحقيقة أن ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب المقيم ٠

ان علينا أن نرجع الى تراثنا ، وأن نسعى لربط ديننا بعلومنا الحياتية والانسانية ٠٠

علينا أن نقتدى بامامنا ، وهو رسولنا صلى الله عليه وسلم ، فقد كان خلقه القرآن ، وأن فى تربيته وأخلاقه وسيرته ، ما يغنينا عن استيراد المذاهب الغربية والشرقية فى التربية جميعا ٠

وأهمية القدوة انما فى اختيار الأنموذج المثالى لها ، وبعد الاختيار يتبع ذلك مرحلة المحاكاة والتقليد ٠٠فاذا كان الاختيار طيبا كانت ثمرته طيبة ٠

٢ ـ المحاكـاة

يتحصل الانسان على مادته العلمية نتيجة للتكـرار والتكلف والعادة والتعلـم الشرطى ، وبدونهـا لا يحيط الانسـان بشىء علمـا ..

والطفل الصغير انما يحاكى أبويه ، أو القائمين على تربيته من موجهين ومعلمين .ويراهم القدوة له فى سلوكه وأخلاقه ومثله العليا ، ويحسن الظن بهم ، ويثـق فى أعمالهم وأفعالهم ، فهـم بمثابة النبراس الذى يضىء له طريق الحياة ..

وأول ما يتعلمه الطفل عندما يشب عن الطوق ، هو القدرة على التمييز بين ما هو صحيح وما هو خطأ ، ثم بين ما هو صالـح وما هو طالح ، وما هو مفيد وما هو ضار ، وما هو حق وما هـو باطـل ..

وبذلك يبدأ فى تكلف الأشياء النافعـة ، ويحاول أن يقلـد أبويه فيما يظن أنه نافع وصـالح ومفيـد ، سـواء كانت نفسه بذلك راضية أو غير راضية ..

والواقـع أن النفس الانسـانية لا تقبـل الا على ما يلـذ ، ولا تنفر الا مما هو مؤلم ، ولا تبحـث فى أول أمرها عن الحـق والصلاح والصواب ، وانما تبحث عن اللذيذ والممتع والسار من الأفعال وتهجر خلاف ذلك (١) .

---

(١) احياء علوم الدين ـــ أبو حامد الغزالى ـــ « كتاب العلم » جـ ١٣

اذن فالتكلف فى الأفعال والأعمـال الصالحة ، أمر تقبـل عليه النفس بملل وضيـق فى أول امر ، الى آن تتعود على هـذه الأفعال الرشيدة ، فتصبح سلوكا وطريقاً وغاية ، بعد أن تألفهـا النفس وتتعود عليها بالتطبع ، اذ يصبح فيما بعد عادة .

واذا مااعتادت النفس على هذا الطريق ، فانها تستخدم العقل كمحك ومعيار لما يعن لها من موضوعـات وأفعال ، فيحكم العقـل عندمـا ينضج ، يحكـم على الأشياء بالصـواب والخطأ ، والحـق والباطل ، بل يستطيع التمييز بين ما هو مفيد وما هو ضار ..

ولكن بعض الناس يشبون وهم يحملون معهم بعض الاعتقادات الكاذبة ، والآراء الزائفـة ، التى تكون قد غرسـت فى نفوسهم بطريق المحاكاة والتقليد ، أو نتيجة العقيدة والوراثة والتربية ، ولا شك أن هذه الآراء والأفكار ترسخ فى قلوبهم ، فتصير حجابـاً بينهم وبين ادراك الحقائق ، وهذا ما نجده عند كثير من المتعلمين من أصحاب المذاهب الفاسدة ..

والواقع أن الانسان لكى يكون عالما حقا ، عليه أن يحصـل على العلم بالاعتماد على علوم متباينة ، لأن كل علم لا يحصل الا من علمين سابقين ، ومن ازدواجهما يحصل الانسان على علم ثالث ، والانسان اذا لم يضع المرآة فى موضعها الصحيح فانـه لا يـرى وجهه ولا تظهر صورته كما ينبغى ..

وكذلك العلم يجب أن يوضع فى موضعه الصحيح والا عجـز الانسان عن اقتناص العلوم ...

واذا كان الانسان محتاجا احتياجاً ضرورياً الى العقل وأدواته

للتعرف على مختلف العلوم بطريق السماع والابصار ، والتمييز بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ وهذا هو المفتــاح الوحيد ضد الجهل ، والذى لا يمكن للعالم الاستغناء عنه ، ولكن الاقتصار على منطق العقل ، أو الزيادة فيه ، انما يؤدى بالانسان الى مواطن الغرور والتعجب ، بل الى الضــلالة والتهلكة ، نظراً لأن العقــل لا يقدر أن يغوص في الحــق ولا يستطيع التحكم فيما هو فــوق طاقته ، ولا الى معرفة كنه الأشياء • ومهما أوتى من علم فهــو عاجز بالضــرورة عن تحصيل مختلف المعــارف ، فهو درجة في طريق العلم وليس درجة تنتهى اليها المعارف •

ويمكن القــول أنه كما لا يستطــاع الاستغناء عن القلــب بالعقل ، فكذلك لا يمكن الاستغناء عن العقل بالقلب ، لأن العلوم العقلية انما هى غذاء الانسان ليتعرف بها على الاشياء الظاهرة ، والموضوعات المتحيزة ، والمشاكل المختلفة ، فيحكــم على صحتها ، وذلــك بالتجربــة والوصــف والملاحظة ، ويعقــد لها البراهــين والاستدلالات التى يستنبــط منها مسلمات وأوليات ضــرورية ، ولا يمكن أن يسمى الانسان عالما أو عاقلا ، الا اذا كان حاصلا على هذه العلوم ، رغم وجود اختلاف بين العلمــاء •

التكلف

اذا أراد شخص ما أن يتعلم صناعة ما ، ولتكن الكتابة مثلا ، فان عليه أن يمارس ـ عن طريق اليد ـ التدريب على الكتابة ، ويواظب على ذلك مدة طويلة يحاكى فيها الخطوط الحسنة ، ويقلد الكتابة الحاذقة ، عند ذلك يتشبه بالذين يحسنون الكتابة ، ويبدأ ذلك بالتكلف والجهد والتعب أول الأمر ، ويجهد نفسه فى ذلك ، ثم ما يزال يواظب على الممارسة لهذا العمل حتى تصير الكتابة الحسنة صفة راسخة فى نفسه ، فيتصف آخر الأمر بأنه صاحب خط حسن ، وتبدو بعد ذلك هذه الصفة فى طبعه ، بعد أن كانت فى البداية تكلفا ومشقة وجهدا كبيرا ..

فكأن الخطوط الحسنة هى التى جعلت من خطه حسنا ، ولكن ذلك كان فى أول الأمر تكلفا ، ثم أصبح بعد ذلك طبعاً فيه ، حيث ارتفع منه أثر الى القلب (١) ، ثم تحرك من القلب الى الجوارح ، فصار يكتب الخط الحسن مبتكراً دون تقليد أو محاكاة .

وكذلك الحال بالنسبة الى العلم ، فاذا أراد الانسان أن يصبح عالما فى شىء ، فعليه أن يمارس أعمال العلماء ، وهو يبدأ بمحاكاته لهم ، وترديد أقوالهم وتحصيل ما حصلوه ، حتى يصير ذلك فى قلبه طبعا فيسمى عالما ، مع وجود الفطرة السليمة ..

---

(١) احياء علوم الدين ـ ابو حامد الغزالى . كتاب العلم ج ٨ ص ١٤٤٦

وكذلك الامر بالنسبة لاكتساب مكارم الأخلاق ، فاذا أردنا اكتساب صفات السخاء والعفة والحلم والتواضع مثلا ، فلا بد فيها جميعا في البدايات ، من الممارسة والتقليد والمحاكاة لأفعال أصحاب الكمالات الاخلاقية ، حتى يصير طبعا فى نفسه ولا علاج للانسان من أمراضه الا بهذا الطريق ، وبتلك المجاهدة ..

وعلى المريض ألا ييأس من نيل هذه المرتبة ، كما أنه لن ينالها إلا بالمكابدة والمعاناة ، ومخالفة النفس ، يوماً بعد يوم ، اذ أنه مطالب بتطهير النفس وتزكيتها من الآفات والانحرافات ، وتحليتها بالأعمال الحسنة ، وذلك لن يتحقق الا بمداومة الصدق ، فلن يكتسب صفة طيبة بعمل يوم واحد ، ولن يتأخر عن اكتسابها بعصيان يوم واحد ، ولكن المهم هو الاستمرار بلا توقف ، والمداومة بلا خمول ..

واذا اعتاد الانسان على الكسل وخلد الى الراحة مرة بعد مرة .. مالت النفس الى البلادة ، وركنت الى الراحة ، واستمرأت الخمول ، وبذلك تهجر التحصيل والدرس ، فيفوتها بذلك فضيلة العلم ..

كذلك الأمر بالنسبة لمحاسبة النفس وتربيتها للتخلص من الآفات والمعاصى ، فان الغفلة والاعتذار لها بشتى الأعذار ، يفوت على الانسان السير فى طريق الايمان ، فيسقط فى الزلات ، وما يزال يقع فى الأخطاء والعيوب والمثالب ، حتى تكون طبعا فيه ، يصعب أن يتخلص منه .. اذ أن الاستمرار فى اتيانها يفوت على الانسان الالتفات الى الايمان ، ومن ثم يسقط فى الضياع والضلال ..

طاعة يوم واحد اذن ، لا تكفى لتطهير النفس وتحليتهـا فى الحال بالصفات المحمـودة ، ولكن ينبغى ألا يستهـان بقليـل من الطاعـات ٠٠ اذ أن استمرارها يذكى النفس ، ويطهرهـا فى النهـاية ٠٠

أما الذى يستهين بصغائر المعاصى والذنوب ، ولا يتوب عنها باستمـرار ، فانها تتراكـم عليه ، فيصعـب عليه المجاهـدة ، ويتقاعس عن الرياضة النفسية ، ويتعذر عليه التوبة ، فيصير قلبه مقيداً بسلاسل الشهوات ٠٠ لا يستطيع منها خلاصا ٠٠

والحقيقة ٠٠ أن الانسان يستزرع فى نفسه بنفسه الأمراض النفسية ، وذلك عندما يتبع ميله الغريزى الى الهوى ، وينقاد الى نفسه الأمارة ، وهنـا فقط ينقلـب الى عدو كاسر عـدوانى ، لا يسهل ترويضه واصلاحه ٠٠

الطبع والتطبع

تهتم التربية الاسلامية ، كما تهتم كل العلوم الحياتية ، بعملية التطبع مثل علوم النفس والاجتماع والاخلاق ٠

ويرى بعض العلماء المحدثين : ان عملية التطبع ، هى الطريق الذى بواسطته يتعلم فرد ما تقاليد وعادات ومفاهيم المجتمع أو الجماعة ، حتى يستطيع التكيف معها والتعامل مع أفرادها ، ويقول Sherif انها عملية تحويل الانسان من كائن بيولوجى الى كائن اجتماعى (١) ٠٠٠٠

وبهذا المفهوم للتطبع نجد أنه يشتمل على تعلم أنماط السلوك ، واستيعاب وجهات النظر ، والأراء الاجتماعية والقيم والشعائر والمشاعر والأحاسيس للمجتمع الذى يعيش فيه الفرد ٠٠٠٠

وبعملية التطبع يوجه الطفل ويؤدب ، ويتخذ نهجا لحياته ، ودورا أو عدة أدوار اجتماعية ، يتطلب منه أن يلعبها بصورة تتلاءم مع أخلاقيات المجتمع ، وتقاليده وشعائره وقوانينه وأعرافه ٠٠٠٠

وبهذا الصدد يقول الامام الغزالى فى « الاحياء » فى تربية الصبيان :

« اعلم أن الطريق الى رياضة الصبيان من أهم الأمور

---

(١) سيد عثمان : علم النفس الاجتماعى التربوى ١٩٧٤ ص ١٩ وما بعدها

وأوكدها ، والصبى أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ، مائل الى كل ما يمال به اليه ، فان عود الخير وعمله ... نشأ عليه ... وان عود الشر وأهمل ، شقى وهلك به ، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والولى له .... »

ثم يشير الغزالى الى أهمية الأصدقاء والرفاق فى عملية التطبع ، وأنه من الضرورى ابعاده عن أصدقاء السوء فيقول فى ذلك :

« ونرى ابعاد الطفل عن الصبيان المنعمين المترفين ، فالطفل يجب أن يعد للحياة ... بما فيها من سعادة وشقاء ، ونرى ألا يسمح له بمخالطة هؤلاء المدللين من الأطفال ، لأنهم لا يصلحون للحياة التى تنتظرهم ... »

وينتقل الامام الغزالى فى آرائه التربوية الى عملية التطبع الاجتماعى ، والتى سبق بها سيرز وماكوبى وليفين من علماء التربية المحدثين ... فيتحدث عن الطريقة المثلى فى تربية الطفل بعامة ، وعملية التطبع الاجتماعى للطفل بخاصة ... فيرى أن كثرة العتاب فى كل حين ، يهون على الطفل سماع الملامة ، وركوب القبائح واقتراف الأخطاء ... ثم أنه يسقط مفعول الكلام ، ويهون من وقعه على قلبه ، وعلى الأب أو الولى أن يكون حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه الا قليلا ... ثم يركز على ضرورة معرفة ما يعانى منه الطفل ويسميها « أمراض » ويتوجب التعرف عليها عند تأديب الأطفال ، كما يركز على معرفة سن الطفل لاعطائه العلاج المناسب لأمراضه النفسية ...

وهذا الرأى الذى أشار به الغزالى ، يتفق تماماً مع أحدث

اساليب التربية الحديثة فى عملية التطبع الاجتماعى ٠٠٠٠ فان علماء التربية يرون أن العقاب أو العقوبة هى أسلوب فنى لتدريب الطفل وليست وسيلة للتعبير عن مشاعر مكبوتة ٠٠٠٠ اذ هى وسيلة تربوية تدار بحكمة وتعقل ، حتى تؤتى بالثمرة المرجوة منها ٠٠٠ وهى تطبيع الطفل كما يراد له أن يتطبع ٠٠

أهمية المعلم فى عملية التطبع :

يبين الامام الغزالى ان دور المعلم يأتى بعد دور الوالدين ، وأنه من الأهمية بمكان فى عملية التطبع الاجتماعى للطفل ٠٠٠ ويقرر الغزالى أن الطريقة المثلى التى يجب أن ينهج المعلم عليها تتلخص فى النقاط الآتية :ـ

(١) استخدام الشفقة مع المتعلمين وعليه آن يعاملهم معاملة أبنائه ٠

(٢) أن ينصحهم فى كل مناسبة ، وينتهز الفرص لارشادهم وتوجيههم ٠

(٣) أن يزجر سيء الأخلاق بطريقة مباشرة ما أمكن ، وبالرحمة لا التوبيخ ٠

(٤) أن يخاطب التلاميذ على قدر عقولهم ٠

(٥) يجب أن يراعى الفروق الفردية والصحية بين تلامذته فى خطابه لهم ٠

(٦) أن يقرن علمه بعمله ٠٠٠ فلا ينصح احدهم بشيء وهو لا يعمل به ٠

(٧) أن يكون وصفه وتشخيصه لأمراض الطفل النفسية دقيقاً ، فكل حالة لها ما يناسبها ٠

وظاهر أن أسلوب الغزالى فى معالجة موضوع التطبع الاجتماعى يسير وفق أفضل وأحدث المناهج التربوية الحديثة ، وأن أكثر التربويين يركزون الآن على ضرورة معاملة الأطفال على قدر عقولهم ، وعدم توبيخهم باستمرار ، وأن يكون المعلم قدوة حسنة لتلاميذه ٠

ولابن سينا المفكر الاسلامى العظيم ٠٠٠ آراؤه التربوية الرائدة فهو وان توفى (٤٢٨ هـ ــ ١٠٣٧ م) ٠٠٠ فان ما قاله عن تربية الأطفال ، يعد أصلا من الأصول التربوية التى ينتهجها علماء التربية المحدثين ٠٠٠ ولقد كانت كتبه جميعا تدرس بجامعة السربون حتى آواخر القرن التاسع عشر ٠٠٠ وكانت هناك قاعة تسمى قاعة ابن سينا ٠٠٠

يبين ابن سينا أن الانسان يختلف عن الحيوان ، فحياة الحيوان تسخيرية غريزية ، ولذلك توحدت حاجاته ومتطلباته ، أما الانسان فقد تنوعت حياته ، واختلفت صناعات مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ٠٠٠ وكثرت بذلك أغراضه ومقاصده ، مما يستلزم تعاون الأفراد بعضهم مع بعض لتلبية هذه المتطلبات ، الأمر الذى لا يتم الا باختلاف وتفاوت فى الكفاءات والمهارات بين أفراد الانسان ٠٠٠ ولذلك كان التطبع الاجتماعى ضرورة يحتمها حفظ النوع الانسانى ٠

نظرية التعلم الشرطى

عنـد الامـام الغـزالى

لا يسعنا فى هذا المقام ، أن نستعرض نظريات علم النفس عند العلماء المسلمين ، لان ذلك يقتضى كتابـة عدة مؤلفات عن تاريخ علـم النفس فى الاسلام ، انمـا نود أن نشـير الى بعض الممارسات فى العلاج النفسى ، وبعض النظريات السيكولوجية عند مفكر اسلامى واحد ، لنبين أن العلماء المسلمين ، قد ظفروا بكثير من أصول ذلك العلم قبل أكثر من ألف عام .

ولكى نثبت ذلك ، نود الاشارة الى نظرية واحدة من نظريات علم النفس الاسلامى ، عند عالم من علماء الاسلام هو أبو حامـد الغزالى ، وهذه النظرية ، هى نظرية الفعل المنعكس الشرطى .

ومما يؤسف له حقا ، أن غالبية العلماء العرب المعاصرين ، قد أغفلوا التأريخ لعلم النفس الاسلامى ، كما اغفلوا التأريخ فى العلوم الحيـاتية والعملية ، التى نبغ فيها أسـلافهم ، وتابعـوا الغرب فى تعصبـه لغربيته ، حتى أنهم دافعـوا عن النظريـات الغربيـة بوعى أو بغـير وعى ، أكثر ممـا يدافع عنها كثـير من العلماء الغربيين .

وهذا هو سـر عدم اطلاعنا على التراث الاسلامى العظيم ، فهناك اهتمـام بالغ بالفلسفة اليونـانية ، وعلى الأخص بفلسفة أرسطو ، ثم بعد ذلك يتحدث المفكرون عادة عن عصر النهضة ، أو عن الفكر الغربى الحديث والمعاصر ، دون الاشارة من قريب أو بعيد ، لآراء المفكـرين المسلمين ، أمثال الكندى ، والفـارابى ،

وابن سينا ، والغزالى ، والحسن بن الهيثم والخوارزمى ، وغيرهم كثير ٠

تخلو كتب علم النفس ، من أى اشارة الى المفكرين المسلمين ، والى نظرياتهم وآرائهم فى علم النفس ، وهذا ما يجعل الباحث فى ذلك العلم ، يلقى صعوبة كبيرة فى ربط علم النفس الحديث بعلم النفس الاسلامى ، وكأنه ينحت فى الحجر الصلد ، حتى اذا صادف حجراً كريماً ، بعد طول عناء ، كان ذلك بمثابة اكتشاف كنز مخبوء ٠

وما قصة نظرية الفعل المنعكس الشرطى ، التى أثبتها الامام الغزالى ، ثم تلقفها من بعده بعض علماء الغرب ، ونسبوها الى أنفسهم ، الا سلسلة محكمة الحلقات ، لكثير من الدراسات التى قام بها العلماء المسلمون ، واغتصبت اغتصاباً ، دون الاشارة حتى الآن ، الى من اغتصبت منهم ، فلقد أوضح الغزالى مثلا ، هذه النظرية وكررها فى أكثر من موضع فى مؤلفاته المتعددة ، ولو أنصف الكتاب والمؤرخون ، ورجعوا بأبصارهم الى منتصف القرن الخامس الهجرى ، لوجدوا الامام الغزالى ، جالساً يناقش العلماء فى هذه النظرية التى يرجعها علماء النفس اليوم ـ بغير حق ـ الى أصحاب المدرسة الشرطية الاقترانية ، وبخاصة « بافلوف » ، والذى حاز نتيجة لانتسابها اليه ، حاز على جائزة نوبل سنة ١٩٠٤ م ، دون الأخذ فى الاعتبار ، أن الامام الغزالى ، هو الذى كشف قانونها ، وهو الذى قررها ، ولا نعلم ان كان الذين أعطوا لبافلوف جائزة نوبل ، قد جهلوا ذلك أو تجاهلوه ٠

لقد أثبت الامام الغزالى بما لايدع مجالا للشك ، نظرية

الفعل المنعكس الشرطى ، شكلا ومضمونـا ، وبرهانـا وتمثيـلا بالأمثلة الحسية والواقعية ، وما اكتشاف لهذا النظرية ، الا اثبات أن العلماء المسلمين قد سبقـوا عصرهم بقرون عديـدة ، وأن الغربيين مايزالوا يطبقون الآن نظرياتهم ، وعلينا اذن ألا نخدع بالحضارة الغربية الحديثة ، اذ لابد لنا كعلماء مسلمين ، مداومة البحث والتمحيص عن تراثنا ، وآثار أسلافنا العظماء ، والكشف عن نظرياتهم التى دفنت فى القبـاب والدهـاليز ، أو غمرت فى قاع النسيان ، علينا أن نكشف الآن الأقنعـة الزائفـة ، لنظهر الحقائق كاملة ، ونبين للناس ما قدمه الاسلام والمسلمون ، من نظريات مايزال الباحثون يحاولون دراستها تجريبيا وعلميا .

ان كتاب « المستصفى » الـذى يعتبر من أنفس كتب الغزالى فى باب « الأصـول » ، وهو يعتبر آخر كتـاب ألفـه فى حياتـه القصيرة ، وترجع أهمية هذا الكتاب ، الى أنه عرض فيه نظرية الفعـل المنعكس الشرطى ، وقد أسـماها : « بصـدق الوهم الى العكس » ، وهى تعد من مباحث فلسفة القيم .

وقد ربط الامام الغزالى بين فلسفة القيم والوهم الاقترانى وآثاره ولقد كان السبب الذى خرج به الغزالى بهذه النظريـة ، يرجع الى مناقشته للمعتزلة ، حول مسألة الحسن والقبح العقليين من الأشياء . خرج الغزالى من هذه المناقشة ، مبينا للمعتزلة أنهم قد انساقوا لآرائهم الكلامية ، وحكمهم على الحسن والقبح الذاتيين فى الأشياء ، انساقوا وراء أوهام اقترانية تخيلوها أحكاما عقلية .

ويبين لهم الغزالى أن ما نراه حسنا لذاته ، هو فى الحقيقة ليس كذلك ، وانما ثبت فيه الحسن لسبب مصـاحبتـه الملازمة

لغرض من الأغراض ، فالحسن والقبح يتصفان بذلك ، لاقترانهما بأغراض الناس ومصالحهم ، وفوائدهم ومنـافعهم ، ومصاحبـة هذه الأمور الاقترانية لها ·

ويخلص الامام الغزالى من ذلك ، على أن الأحكام التى تطلق على الأشياء ، ليست الا من الأمور الاضافية على الذات ، اذ انها لا تعد من الصفات التى اقترنت بها ، ومن ثم لايمكن أن تسمى الا أحكاما اعتبارية فحسب ، أو احكاما نسبية غير ثابتة ولامطلقة ·

وينتهى الامام الغزالى الى أننا نربط بين ذواتنا وبين الأمور الاضافية المصاحبة لها والملازمة ، ونستمر فى هذا الارتباط وذلك الاقتران ، حتى نظن آخر الأمر ، ونتوهم أن معنى الحسن والقبح قد غدى كامنا فى ذات الأشياء لا ينفصل عنها ·

وهذا ما يدفع المشاهد لأمثال هذه الأشياء المقترنة الى الحكم ، بل والتأكيد على تلآزم هذا الاقتـران وضرورته ، وكأنه حقيقة لا شك ولا ريب فيها ·

ومعنى ذلك أن اقتران أمر من الأمـور ، لشىء من الأشياء ، ثم اقتران هذا التلآزم والمصاحبة مرات متعددة ، تدفع من يشاهد هذا الأمر ويراه الى الاعتقاد أو الحكم بأن هذا الاقتران ضرورى ، وأن هذا الارتباط حتمى فى جميع الحالات ، ويغفل على أن الأمر الخاص فقط ، هو الذى يكون مقروناً بالأمر فى جميع الأحوال ، باعتبار أن الخاص جزء من العام ·

أما اقتران الأخر العـام بالخـاص ، فهـو غير ملزم وليس ضروريا ، ويضرب الامـام الغزالى أمثلـة عديدة ليوضح ذلك :

نفور الانسان من الثعبان ، بشكل طبيعى وعادى ، فى كل الأحوال ، لانه يذكره بالأذى ، خاصة اذا لدغه ثعبان من قبل ، وهذا مايسمى اليوم بالاستجابة غير الاشتراطية ، فاذا رأى الانسان فى يوم من الأيام لعبة تشبه الثعبان فى شكلها ، فانه سينفر منها ، وهذا الاستجابة تشبه استجابته بالنفور من الثعبان الأصلى الذى لدغه ٠

والفرق بين الاستجابة الثانية ، وهو النفور من اللعبة والأولى أن الاستجابة الثانية ليست طبيعية أو عادية ، وانما هى استجابة وهمية لعدم وجود الثعبان ، أو ما يسمى بالمثير الأصلى ، صاحب الخصائص الطبيعية فى الأذى واللدغ والنهش ٠

ويسمى الامام الغزالى (١) الاستجابة الثانية بالوهم الاقترانى ويسميها علماء النفس اليوم بالاستجابة الشرطية أو الاقترانية حيث أنها اقترنت فى ذهن الشخص أو الانسان بالثعبان كمثير أصلى ، وحينما رأى مايشبه المثير الأصلى من حيث اللون أو الشكل ، توهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى مما دفعه الى التفور والابتعاد عنها ٠

ويقرر الامام الغزالى أن كل أمرين متصاحبين ان لم يكونا متساويين فى الخصوص والعموم ، كأن يكون احدهما خاصا والآخر عاما فان العام منها هو الذى يصبح مثيرا صناعيا بديلا (مثل اللعبة فى المثال الذى ضربناه) ٠

ويعطى هذا المثير البديل الاستجابة الوهميه او الشرطية

---

(١) بحث قدم الى ندوة علم النفس والاسلام ـ كلية التربية ـ جامعة الرياض ١٣٩٨ هـ «نظرية الفعل الشرطى عند الغزالى ـ دكتور فايز محمد على الحاج

فمثلا اذا كانت اللعبة عبارة عن شكل ثعبان مبرقش ،فمعنى ذلك ان كل مبرقش هو امر عام يمكن ان يوجد فى اللعبه او الحبل أو غير ذلك ، ولكن الثعبان الاصلى هو أمر خاص وان البرقشة خاصيه ملازمة له ، ذلك فان كل لون برقشة فى اى جسم يذكر بالثعبان أو بالجسم الخاص المعروف بهذه الصفة اللونية فى الاذهان ، وعندما يرى الشخص ذلك الشىء أو الجسم المبرقش فأنه يثار ويبتعد عنه لأن فى النفس ذكريات مؤلمة تذكره بالأذى ٠

ربط الغزالى اذن ربطأ مقنعا ليدلل به على حدوث التعلم الشرطى ، فقرن بين مؤثر جديد ومؤثر يستثير استجابة ما بشكل طبيعى ، وعندما تطبق هذه التجربة مرات ومرات يتوصل المثير الجديد الى استجابة معينة ٠

وبهذا يكون قد تم للغزالى اكتشاف طريقة جديدة للتعلم والتعليم الشرطى او تعلم السلوك الاستجابى كما يسميه (سكنر)(١)، ويؤكد سكنر على تجربة الغزالى حين يقرن مثير محايد بمثير معاكس،فيستنتج استجابة معينة٠ويكون فى هذه الحالة امام حالة اشتراطية ٠ ومعنى ذلك أن أى مثير يكون موجوداحين حدوث عقاب أو اذى فأنه يتاح له الفرصة لأن يصبح مثيرا اشتراطيا للاستجابة الانفعالية بالنسبة للعقب ، وان هذه المثيرات الاشتراطية تنتج استجابات انفعالية فى غياب العقاب الاصلى،ومثال ذلك فان رؤية الصبى الصغير ، الذى تعود فى المدرسة ان يضرب بالعصا ، ان رؤيته للعصا التى تعتبر مثيرا اشتراطيا تحدث له استجابة انفعالية ومن ثم يتذكر العقاب وكأن العقاب مازال موجودا ٠

---

(١) نظرية الفعل الشرطى عند الغزالى بحث مقدم من د / فايز محمد على الحاج .(ندوه علم النفس والاسلام ١٩٧٩ . الرياض)

وكأن سكنر ومن قبله بافلوف وكذلك واطسون الذى اقتبس من بافلوف ، كأنهم جميعا قد اخذوا عن الامام الغزالى هذه النظريه ثم عززوها بالتجارب العملية والمعملية،واذا كان هناك فرق بالنسبة لهذه النظرية فأنه فرق فى التسمية فحسب فالامام الغزالى سمى هذه النظرية بسبق الوهم الى المنعكس وأسماها المحدثون بالاستجابة الشرطية او رد الفعل الشرطى كما يسميها بافلوف ·

ففى تجربه بافلوف اصبح لعاب الكلب يسيل استجابه لصوت الجرس (١) · والاضافة التى أضافها الغزالى بعد ذلك لنظريته فى سبق الوهم الى العكس من نفور الانسان من الحيوان المؤذى ، فيرى الامام الغزالى ان هذه الاستجابة ليست استجابة فطرية انما هى استجابة مكتسبة حيث اكتسبها الانسان من خبرة سابقة مع ذلك الحيوان ، ويدلل الغزالى على ذلك بأن الصبى اذا دخل عليه وحش أو حية فأنه ربما لايخاف الوحش أو الحية،بل ربما يلعب بالحية أو مع الوحش ، ولا يحدث الخوف الا اذا كان معه أحد الكبار وخشى على نفسه فهرب عند رؤيته لها ·

عند ذلك يحدث الخوف للصبى ثم يصبح استجابة مكتسبة ، وهذا ما أجمع عليه العلماء المعاصرون من أن رؤية الكلب للذى سبق أن عضه كلب تصبح مثيرا شرطيا للخوف اذ ان هذا الحادث قد اكسبه خبرة ، اذ أن رؤية ذلك الكلب تسبب الخوف ·

---

(١) اجرى بافلوف تجربته بان وضع قطعة من اللحم فى قفص الكلب ووضع على باب القفص جرس فعندما يسمح للكلب بالطعام يدق الجرس ويفتح الباب فيجد الكلب اللحم · وكرر بافلوف هذه التجربه مراراثم امتنع بافلوف فجأة عن تقديمة قطعة اللحم الا انه دق الجرس فى ميعاد تناول الكلب لغذائه فأذا بالكلب يهرول قافلا الى القفص وأعاد التجربه فكان يحدث نفس الشىء كل مرة ولاحظ بافلوف ان الكلب يسيل لعابه عند دق الجرس وبذلك اكتشف انه يمكن تدريب الكلب بهذه الطريقة الاقترانية ·

وما الهروب الا تخفيف للخوف من الأذى المتوهم ٠

والخلاصة ان عملية الاشتراط هى اقتران وربط بين الاستجابة والمثير وهذه الاستجابة ليست فطرية وانما هى مكتسبة متعلمة عن طريق الاقتران الشرطى ٠

وبذلك يمكن أن نقول ان الغزالى هو بحق صاحب هذه النظرية التربوية التى يمكن استخدامها فى مجال التعليم فى المدارس والمؤسسات الثقافية والعلمية ٠ وهى تستخدم الآن بنجاح كبير عن طريق تقديم الحلوى والهدايا للاطفال الذين يتفوقون فى تحصيلهم العلمى ، كما يمكن ان تستخدم فى مجالات الحياة العامة كحوافز ايجابية أو سلبية كدالة للثواب والعقاب ٠

الترغيب والترهيب

من الموضوعات الشائعة التى تهتم بها التربيـة الاسلاميـة ، هو موضوع الترهيب والترغيب ، ولذلك فان النفس البشرية اذا تركت على هواها فانهـا تقبل على كل عمل خفيف وتتكاسـل عن بذل ما تراه على النفس ثقيلا ٠

لذلك فان الترهيب يجب أن يتبع فى علاج السلوك المنحرف ، فاذا لم تؤدب النفس وتخالف ما تظن أن فيه لذتها ، انقـادت الى الأهواء وفسدت فى طبعهـا ، وأصبح الترهيب فى هذه الحـالة ضرورة ما بعدها ضرورة ، اذ يفرض على النفس التى تميـل الى التسويف والتقصير والراحة والخمول وتأجيل استيفاء الحقوق ، الالزام بان تقوم بواجبـاتها وحقوقها وردعهـا بسيف المخالفة والتخويف من العقاب الالهى ، فاذا لم تخف هذه النفس لهلكت وهلك معها كل من شاكلها فى ارتكاب الآثام والذنوب والنقائص ٠

ومن طبع النفس النسيـان والغفلة ، لذلـك فان الترهيب يصبح نوعا من التذكير بما آلت اليه النفس من ارتكاس ونكوص ووقوع فى الرذائل والآثام ٠

لكـن النفس الانسـانية اذا ما قسوت عليهـا بالتخـويف والترهيب والتحذير (٢) لتسير فى طريق الله ، عندما يكون هذا الأمر فى بداية الاصلاح ، فانها تمل من الزجر والوعظ وربمـا

---

(١) « الغنية » الامام عبد القادر الجيلانى ص ١٤٠

(٢) احياء علوم الدين ـ أبو حامد الغزالى ج ١٣ ص ٢٣٣٣ وما بعدها « كتاب الشوق »

تتمرد وتضيق ذرعـاً بالتوجيه والارشـاد ، وكأن هذا الأمـر لا يعنيها ، فتعيش حياة اللامبالاة والظلم ، فتخسر الدنيا والآخرة جميعـاً ٠

لذلك يجدر بالمربين ألا يقسوا على الانسان فى بداية طريقه الى الله انما يجب أن يتدرجوا معه درجة درجة ، حتى ينصلح أمره ويبتعد عن غيه ، وذلك بالترهيب تارة وبالترغيب تارة أخرى ٠

والترغيب يكمـل الترهيـب ، حتى تتـوازن النفس ، فان الترغيب معناه الأمل فى وعد الله ، والرجاء فى نعمه تعالى (١) ، فكلما عملت النفس عملا خيرا كان على المربى أن يبين له ثمـراته اليانعة ، وما يتحصـل عليه من فضائـل وعطايا ومنـح ، فيتجه لسيره فى طريق الله ٠

راجع ألفاظ الصوفية ومعانيها » للمؤلف

التخلي والتحلي

من الوسائل التربوية الاسلامية الفريدة فى نوعها ، استخدام وسيلة التحلى والتخلى ، ويقصد بالتحلى أن تتحلى النفس البشرية بالأوصاف المحمودة ، كبديل للأوصاف المذمومة التى اعتادت عليها ، وبذلك يكون التخلى هو أن يتخلى الانسان عن تلكم العادات السيئة ، التى كانت سببا فى انحرافه عن الطريق المستقيم .

ولا يسلم انسان من بعض مألوفات العادات اذ الانسان عبد عوائده ، ومن ثم يجب اقتلاع هذه المألوفات من جذور النفس ، حتى يكتسب الطالب الصحة النفسية .

وعندما يتخلى الطالب عن الوصف الذميم ، ويتحلى بالوصف الحميد،فان ذلك معناه أنه يسلك طريق الحق ويعزف عن الآهواء ، ويبتعد عن الشهوات ، وينفر من الحظوظ الزائفة ، واللذات الكاذبة ، وتعرف نفسه أنه لا رغبة لها الا فى سلوك طريق الاستقامة ، والبعد عما يشغلها عن توخى الحقيقة ، فبالتخلى تتجنب النفس العوارض الشاغلة وتؤثر ملآزمة طريق الحق تعالى ، وبذلك يتحلى الطالب بارادة الخير ، ويحول بينه وبين المحاكاة لأصدقاء السوء والاقتداء بالقدوة السيئة ، فيسلم من الجنوح ، الى اقتراف الرذائل وينجو بنفسه عن اتيان الفواحش وبذلك يصبح صحيحا معافيا .

تقديم التخلي على التحلي :

يرى بعض الأئمة المسلمين (١) انه يجدر بالمربى أن يهتم

(١) الامام ابو حامد الغزالى ـ الاحياء ـ ج ٨ ص ١٢٤٩ وما بعدها كتاب الشعب »

بالتخلى قبل التحلى ، فان وجد الطالب فيه رعونة أو كبر أو عـزة نفس غالبة عليه ، فعليه أن يأمره بالبذل والعطاء والمواظبة على الأعمال البسيطة والتـافهة ، وذلـك حتى ينكسر كبـره وعزة نفسه • اذ أن الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة •

فاذا وجد الطالب يهتم بالنظافة الظاهرة ، واقتناء الثياب ، ثم رأى قلبه مائلا الى ذلـك ، فرحاً بنفسه ، فان عليه أن يأمـره بكنس المواضع القذرة ، وارساله لقضاء بعض الحاجات البسيطة • اذ أن الـذى يهتم بالمظاهـر ، ويزيـن ثيـابه بالكماليـات مثل العروس التى تزين نفسها طول النهار ، فلا فرق بين ذلك الشخص وبين عابد نفسه أو عابد الصنم ، لأنه يهتم بما هـو دون الله ، فهو ملتفت للمظاهر الكاذبة، مشغول بنفسه محجوب عن الله •

وهذا التخلى هو نوع من العلاج بالأضداد ، فلا يمكن أن يترك الطالب الرعونة رأساً أو الكبر فوراً ، ان لم يسعفه المربى بضدها ، وذلك لامكان نقله من الخلق المذموم الى الخلق المحمود ، مثل الذى يزيل البقع بمادة كاوية ، ثم بعد ذلـك يغسل ذلك كله بالمـاء • فالمـاء لا يزيل البقـع التى تعلق بالثـوب ، وانمـا يزيلها مادة كيميائية ، ثم يمكن ازالة آثارها بالماء •

كذلك الأمر بالنسبة للصبى الذى يلعب بالكرة ، ثم يهتـم بعد ذلك بفاخر الثياب والزينة ، ثم يرغب فى الريـاسة وطلب المراكز ، ثم بعد ذلك يرغب فى الآخـرة التى هى خـير وأبقى • فعملية التربية انما تتم بالتدريج ، ولا يمكن مثلا أن تجبره على ترك الجاه دفعة واحدة ، انما يمكن أن يتخلى عن بعضه ويبقى له بعضه ، ثم يخفف فى طلب الجاه تدريجياً حتى يمكن أن ينقل الى

ما هو أفضل له فى الدنيا والآخرة .

فاذا كان الشخص شرهاً فى الطعام والشراب ، أمره المربى بأن يقلل من الطعام ، أو يلزمه بالصيام وفى نفس الوقت يكلفه بصناعة الأغذية اللذيذة وهو صائم ، وأن يقدمها الى غيره ولا يأكل منها ، حتى تقوى نفسه ، فيتعود الصبر وتنكسر حدة الشره عنده .

واذا كان الشاب محباً للمرأة ، متشوقاً لها وهو عاجز عن الزواج ، فعلى المربى أن يأمره بالصوم وربما لا تسكن شهوته بالصوم ، فعليه أن يأمره بأن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء ، ويمنع عنه اللحوم حتى تذل نفسه ، وتنكسر شهوته . ولا أنفع لهذا الشاب فى علاجه من الجوع .

واذا وجد المربى أن الطالب يميل الى الغضب (١) وأنه سريع الانفعال ، ألزمه بالحلم والسكوت عندما يشتد الظلم عليه ، وفى نفس الوقت يسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء الخلق ، حتى يمرن نفسه على الاحتمال فيتكلف الصبر وكظم الغيظ حتى يصبح الحلم عادة له .

وكان من عادة بعض الصوفية ، أن يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ، حتى أصبح الحلم عادة له وصار يضرب به المثل . وكذلك من كان يجد فى نفسه الجبن وضعف القلب ، فكان يركب البحر فى الشتاء عند اضطراب الأمواج .

---

(١) « قوت القلوب » أبو طالب المكى جـ ١ ص ٣٦٤

وكذلك فى الأمور كلها . فمن وجد فى نفسه حب المال ، يعالج ذلك بأن يبيع ما عنده ، آو ينفقه فى وجه الله . أو التكاسل عن آداء التكاليف الشرعية ، ألزم نفسه القيام طول الليل . فالتخلى عن الخلق الذميم لا يمكن أن يتم طفرة ، انما مرحليا وعن طريق الضد وكل ما تهواه النفس وذلك وارد فى قول عز من قائل :

" وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى " **« النازعات : ٤٠ ، ٤١ »**

ان المهم فى عملية التخلى والتحلى الوفاء بالعزم (١) ، اذ أنها عملية مجاهدة للنفس ، فاذا عزم الشخص على ترك الشهوة فقد تيسرت له أسباب النجاح فى تسكينها ، وتحتاج هذه العملية الى الصبر والمداومة ، واذا تعود الانسان على اهمال ترك العزم ، وجنح الى التأجيل والتسويف ، ألفت نفسه ذلك ففسدت وعطبت .

لذلك يتوجب على الطالب الذى ينقض عزمه ، ويتكاسل فيما تعهد بالقيام به ، يتوجب عليه أن يلزم نفسه بعقوبة على تكاسله عن تأدية ما افترضه على نفسه من مجاهدات ، والذى لا يخوف نفسه بعقوبة ، غلبته نفسه ، وبذلك تتحالف الشهوات فى نفسه فتفسد وتعطب .

---

(١) التعرف ، للكلاباذى . ص ١١١ وما بعدها

الوعظ والموعظة

ان القـدوة الحسنة الصـالحة ، من الأهمية بمكـان فى العملية التربوية ـ كما سبق الاشارة لكن القـدوة الصالحة ، ليست كافية وحدها لتجعل الطفل أخلاقيا ٠

فمع وجود القدوة الصالحة فى شكل الأبوين ، الا أننا نجد أن الطفل يجنح فى بعض الأحيان الى سلوك بعض التصرفات الشاذة واللاأخلاقية (١) ، فمع وجـود الأبوين الصـالحين يمكـن أن يتلفظ الطفل بألفاظ خـارجة عن الأدب ، يلتقطها من هنـا أو هناك ، أو يفتح درج زميله بالمدرسة ليأخـذ بعض محتوياته ٠ وربما لا يكـون ذلك بدافـع السرقة ، لكنـه دافع من دوافـع الأطفـال ٠

وقد يكون الأبوان صادقان ، الا أن الطفل عندما يسئـل فى أمر من الأمور يكـذب ويتحرى الكذب ، وربمـا يكون ذلك بدافع من الشعـور بالنقص أو محاولة لتكملـة شخصيته ، أو نتيجة للرعاية الزائدة أو القسوة الزائدة ٠

لذلك لا تكفى القدوة الصالحة لخلـق الشخصية السوية ، اذ لم يكن بجانبها الموعظـة ، فالطفل الذى يخنق الحيوانـات الأليفة الصغيرة ، أو يقذف زملاؤه بالأحجار ،أو يأتى ببعض الأفعال المستقبحة ، لابد من وعظه وارشاده وزجره بل وعقوبته اذا دعى الأمر الى ذلك ٠

كما أنه لابد من وعظ الطفل ، سـواء عن طريق البيت أو

(١) محمد قطب ـ منهج التربية الاسلامية ص ٢٢٩

المدرسة ، بصفة مستمرة حتى لا يغفل ولا ينسى ، فان التكرار هام جداً فى العملية التربوية .

والنفس الانسانية على استعداد تام للتأثر بما يلقى اليها من كلمات ، لكن ذلك الاستعداد كما هو للخير ، فهو استعداد أيضاً للشر ، فاذا أردنا أن نصلح جنوح الأحداث ، فان أعظم وسيلة بعد القدوة الصالحة هى استخدام الموعظة ، ثم تكرار المواعظ على آذن الطفل ، حتى تنطبع فى نفسه ثم لا تلبث أن تصبح طبعا ملآزما لسلوكه وفكره وأخلاقه جميعا .

فالانسان الكبير مثل الطفل الصغير ، فى حاجة دائمة الى الموعظة الحسنة ، وقد يغفل عن القدوة الحسنة ، أو يتغافل عنها ، فلا تصبح القدوة كافية لتأديبه وتقويمه ، والحاكم وولى الأمر والرئيس فى حاجة دائمة أيضاً الى الموعظة ، فقد يتجبر الحاكم ، وقد يظلم ولى الأمر ، وقد يستعلى الرئيس ، وينسى جميعاً أنهم يجب أن يقتدوا بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو بالخلفاء الراشدين .

ينسى هؤلاء بما ركب فى النفس البشرية والطبيعية الانسانية من جبلات ، هى الضعف والجهل وحب المدح ، وموافقة الأهواء ومتابعة الغواية الشيطانية .

لذلك فان الموعظة والتوجيه يعتبران من الأمور الضرورية ، وذلك واضح فى قصة لقمان عليه السلام عندما يعظ ابنه فيقول كما ورد عن عز من قائل :

« واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ، يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم » **« لقمان : ١٣ »**

وربما يتبادر للذهن أن ابن لقمان كان مشركا بالله ، لكن الأمر غير ذلك ، انما يؤكد ويكرر لقمان عليه السلام ، على مسامع ولده ، أن الشرك هو ظلم للنفس بل هو أعظم أنواع الظلم، ثم يتابع لقمان وعظه لابنه فيقول له :

« يا بنى انها ان تك مثقال حبه من خردل ، فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، ان الله لطيف خبير ، يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وأصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحاً ، ان الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير » « لقمان : ١٦ ــ ١٩ »

يتابع لقمان عليه السلام عظاته ، فيبين لولده السلوك الواجب الاتباع ، فى الحياة الدنيا ، ويذكره بأن مآله الى الله تعالى .

فالقرآن الكريم ملىء بالمواعظ والتوجيهات ، وربما تتكرر فى كثير من الآيات نفس الموعظة ، حتى يؤكد الله سبحانه وتعالى على هذا المعنى ، ليجعله المسلم فكره وسلوكه وحياته ، فينطبع فى نفسه هذا التأديب القرآنى فلا يغفل ولا ينسى ، ولذلك فان الله تعالى يقول فى كتابه العزيز فى هذا المعنى عن القرآن الكريم :

« هذا بيان للناس وموعظة للمتقين »
« آل عمران :١٣٨ »

التوجيه والارشاد

لا يمكن أن تقوم التربية الا بمنهج واضح سليم ، كما أنه لابد أن يكون المربى والمعلم مؤمنا فكرا وسلوكا ، بما يلقنه أو يعلمه للطالب . والا فان الأمر لا يعد الا سفسطة لا نفع فيها ولا فائدة .

ان العملية التربوية تحتاج الى التوجيه والارشاد ، والذى يقوم بهذه العملية التربوية ، لابد أن يكون **قدوة صالحة** يتمثل به الطالب ، ويثمر عن طريق الاقتداء به ، توفيقاً فى علمه وسلوكه وحياته العملية جميعا .

والتوجيه والارشاد يحتاج الى معرفة تامة بما يتوجب على المربى أن يلقنه للطالب (١) فهو فى تصورنا تلقين وتعليم لقيم ومفاهيم وممارسات بدونها تستحيل كل معرفة وأخلاق .

وأول هذه القيم هى العبادة ، ثم ارادة الأدب أو الأدب .

العبـــادة :

أمر الله سبحانه وتعالى الناس بعبادته حتى تقوم الساعة ، وليس هذا الأمر عسفا من قبـــل الله تعالى وهو الحليم الحكيـــم الرحيم ، انما امرهم بالعبادة — وهى تشق على النفس ، وذلـــك لمغالبة الهوى والشيطان ، ومخالفة لأهواء النفس .

والنفس البشرية (٢) تأبى حســـب تركيبها ونزوعها الى

(١) قوت القلوب — أبو طالب المكى . جـ ١ ص ٢٧٠

(٢) للمزيد « الفاظ الصوفية ومعانيها » « الأدب » للمؤلف

الهوى ، تأبى العبـادة ، لذلك كانت العبـادة عملا لصـلاحها ، ومخالفة حظوظها ومنازعة شهواتها ٠

والله تعالى أعلم بجبلات النفس ، وأهدى لنزعاتها الظاهرة والباطنة ، وأعرف بالعلاج لأمراضها وآفاتها ، وما يتوجب على النفس تجنبه للابتعاد عن الأهواء والسقوط فى براثن الغواية والضـلال ٠

فالعبادة شـريعة الله فى خلقه ، أمرهم بها وهى تحتـاج الى المعاناة والمكابدة ، ودوام المجاهدة عليها ظاهراً وباطناً حتى ينتقل الانسان الى الحياة الأخرى ملاقيا ربه ، ليثاب على عمله ويلحق بالصالحين والمؤمنين ، وهذا وارد فى قول عز من قائل :

« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »   « الحجر : ٩٩ »

ويحدد الله سبحانه وتعالى غاية الانسان من هذه الحيـاة الدنيوية ، حتى يعلم الناس ، كل الناس ، لماذا خلقهم الله تعالى فى هذه الدنيا ؟

يحدد الله سبحانه وتعالى تلك الرسالة التى على الانسان أن يؤديها ، بقوله تعالى :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »
« الذاريات : ٥٦ »

وهذا التحديـد الالهى لرسالة الانسان فى هـذه الدنيا ، يجعله عارف بطريقه الواضح الفطرى السليـم ، دون لبس أو

تلبيس (١) فلقد أعلمه الله به ، فليس له على الله حجة بعدما أرسل اليه الأنبياء والمرسلين ليبشروه ولينذروه وليوضحوا له ما غمض من آمر هذه الدنيا ، بحيث يصبح كل شيء واضح أمامه ، وأنه مسئول عن آفعاله وأعماله بعد توجيهه وارشاده الى طريق الله .

وعلى المربى أن يوضح ذلك تماما للطالب ، بحيث يعرف لماذا خلق الانسان فى هذه الدنيا ؟ وما هو المنهج الحياتى الواجب الاتباع ؟ ! وما هو الثواب اذا عبد الله على الصدق والاخلاص ؟ وما هو عقابه اذا عصى وغفل عن أمر الله ؟ ! وفى ذلك يقول عز من قائل :

« فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فان الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » **« النازعات : ٣٧ - ٤١ »** .

فالعبادة بهذا المعنى هى عمل لله تعالى ، وهى الموصل على الحقيقة الى نعيم الآخرة ، وهى ليست أشكالا ورسوماً وحركات ، انما هى ايثار وعدل وصدق واخلاص وبر وطاعة وذكر لفضل الله ونعمه ، وهى كذلك رضا بالابتلاء واسقاط لتدبير العبد مع ربه ، وتوكل عليه بالكلية فى كل أمر وفعل ، كما أنها صبر على الفاجعات وصبر على المحبوب والمكروه جميعا .

والعبادة تدخل على النفس السكينة ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والاعتراض والمخالفة لأوامر الله ، وهى خوف ورجاء ،

(١) مدرج السلوك - الشيخ أبو بكر ص ٨٧ وما بعدها

خوف من وعيد الله ، ورجاء في وعده ، فاذا لم ير العبد الله ، يوقن أن الله يراه ٠

فالعبادة بهذا المعنى ليست مقصورة على التكاليف والفرائض الشرعية والمقررة ، انما هى صدق للنية واخلاص فى العمل لله ٠

ولذلك يكون المصلون فى الصلاة الواحدة ، وبين الواحد والآخر مثلما بين السماء والأرض ، اذ بينهم الطائع ، والمرائى ، والمخلص والعاصى ، فليست العبرة اذن بتأدية الصلاة بالحركات والأشكال ولا بالتمتمة بكلمات ، والقلب خال من الصدق والاخلاص ٠

فاذا ماتفهم الطالب حقيقة العبادة ، وهو ما زال يافعا صغيرا ، تربت فى نفسه المفاهيم والقيم الاسلامية ، وأصبحت طبعاً راسخاً فى قلبه ونفسه وعقله جميعا ٠

« انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، وعلى ربهم يتوكلون »
« الأنفال : ٢ »

الأدب :

يتميز المسلم بالأدب ، والأدب هنا ليس الادب الظاهرى الذى نراه فى أخلاقيات بعض المجتمعات المتقدمة ، اذ ربما يكون هذا الأدب رياء وخداعا ، أو مجاملة واسترضاء ، يستهدف مصلحة أو منفعة شخصية أو ذاتية ، انما أدب المسلم ، نابع من

كنس القلب من الغرور والاغترار ، والعجب والطمع والحسد والحقد ، والاستعلاء والازدراء والسخرية ، هذا الأدب انما هو ثمرة للتواضع لله سبحانه وتعالى ، وهو نتيجة لسلامة القلب ، وتطهره من علامات الاعتراض ، وما يحوم حوله من رغبات وشهوات وآفات ٠

فالأدب دليل على صحة القلب ، وبعده عن الأنانية وحب الذات وطلب الشهوات ، والصحة النفسية لدى المسلم ، انما تتركز على تخلية القلب من الشره والكراهية والبغضاء والتجبر والتكبر وغير ذلك من الآفات ٠

ومن هنا يتوجب على المربى ، أن يوجه الطالب ويرشده الى طريق الأدب ، ولكى يتحقق للطالب ذلك ، يجب أن يساعده المربى على الابتعاد عن الحسد والحقد ، وأن يكون كل همه الحب والود والقرب والرحمة والتسامح والطهارة والنية الحسنة ، وبذلك تتحرر النفس من سلطان الشهوة وغلبة الهوى وغواية الشيطان ٠

والأدب ارادة للصبر عند الابتلاء (١) ، وهو رضا عند المحن والفاجعات ، كما أنه توكل بالكلية على الله فى السراء والضراء ، وهذا توجيه فريد لا يتمتع به غير المؤمن ، التقى النقى الورع ، يعينه على تخطى العوائق والعثرات ، ويعاونه على الوصول الى الفلاح والصلاح ٠

لذلك يرتبط الأدب بالصدق ، كما يرتبط الصدق بالأدب ٠

---

(١) الكوكب الشاهق — الشعرانى تحقيق المؤلف — دار المعارف

لأن المربى يتعرف على طالبـه من ارادة الأدب ، ولا يمكـن أن يغوص الى اعماقه . ويتعرف على دخيلة نفسه ، الا عن طـريق كشف ما بقلبـه من خواطر ملكية أو شيطـانية ، فاذا وجـده معافياً كان أدبه الظاهر موافقا لأدبه الباطن ، أى أن هذا العبد لصادق وليس بمراء .

كما ان هنا طريقة أخرى ، يتعرف بها المربى على حقيقـة طالبه ، وهى اختباره ببعض الامتحانات ، ومعرفة هل يتقبـل الطالب تلك الامتحانـات برضى وخشوع ، أم أنه يتحـول من الأدب الظاهرى الى الفـزع والهلع ، والشكوى والتبرم وعـدم قبول الامتحانات ، وهى غالبا ما تحتـاج الى الصبر والتحمـل والمجاهدة والمكابدة (١) ، وعلى المربى تقوية قلب طالبه ، بحيث يساعده على خوض هذه التجربة ، التى تبرئه تماما من ضعفه وخوفه وفزعه ، وتجعل نفسه وقد تطهرت من كل دنس وفجور .

ولا يقتصر الأدب بالمعنى الاسلامى على التعليم والتلقـين فحسب ، انما يتعدى ذلك الى السلوك ، فهناك الأدب مع المربى وهو عنوان الطاعة ، والطاعة تساعد الطالب على التقدم فى العلم والمعرفة كما أن سوء الأدب يقطع الصلة بين المربى والطـالب ، كما تنقطع الرابطة الابوية الروحية التى تجمع بينهمـا ، حتى وان اجتمعا فى مكان واحد .

ومن علامات سوء الأدب تطاول الطالب على مربيه وأستاذه ، واعتراضه عليه وعـدم انزاله بالمنزلة اللائقـة به ، ومخالفـة

---

(١) التنوير اسقاط التدبير — ابن عطاء الله السكندرى — ص ٧ ومابعدها

الطالب لأستاذه باستمرار يدل على انتكاس الطالب ، وهذا بدوره يؤدى الى الضياع والخسران ٠

لذلك فاننا نجد أن التربية الاسلامية ، تقوم على سلوك الأدب مع المربى ، فيجب أن يستغرق الطالب بنفسه بالكلية معه ، وأن يهتم تماماً بما يصدر عن المربى من أقوال وأفعال ، وكأنه جالس ينتظر على ساحل بحر رزقاً يأتيه ، فما يرتزق به من مربيه ، يحمد الله عليه ، وهذا يعاون على اصلاح ما بنفسه من آفات ، ويحقق ما يهدف اليه من علم وصلاح وعلاج واستقرار ،

وان غلبة شهوة الكلام على الطالب ، يعد فى التربية الاسلامية من سوء الأدب ، وكذلك الرغبة فى الجدال ، اذ أنها ترد الطالب عن مقام الاستفادة ، وتهبط به عن درجة الاستزادة بالعلم والتربية ، فمن حسن الأدب أنه اذا تكلم المربى سكن الطالب ، أما اذا قاطعه الطالب فمعنى ذلك غلبة الشهوة الظاهرة على باطن الطالب ٠

وكذلك التضاحك والسخرية فى مجلس المربى تعد من أقبح الأعمال ، ولا يرجى من الطالب فائدة الا اذا تاب عن ذلك تماما ٠ فالسكينة والوقار من أساسيات الأدب مع المربى وهو زى أهل الكمال ، فاذا حضر الأدب فى مجلس العلم حضر الطريق ، واذا غاب الأدب ، فلا أدب ولا طريق ٠

التمثيل القصصى القرآنى

فى القصص تشويق للنفس ، (١) وسبحات للخيال الانسانى ، كما أن القصة الجيدة تفعل فى النفس فعلها ، فتثير النفس بمشاعر مختلفة ، من حب وحزن ورضا وكراهية وغضب ، اذ تنفعل النفس بالمواقف المتعددة التى تروى لها عن طريق الكتابة ، أو الصور المرئية أو المسموعة .

فتتقمص النفس بعض الشخصيات الموجودة بالقصة ، وتتوحد بها ، وهذا ما يسمى بالمشاركة الوجدانية .

فاذا كنت تجلس فى مسرح من المسارح ، لتشاهد عرضاً لقصة مسرحية ، فاذا بك تلحظ أن بعض الفتيات الجالسات بجوارك ، يبكين عندما يشاهدن منظر الفتى أو البطل وقد أمسك به بعض الظلمة ، وأخذوا يعذبونه بشتى أنواع العذاب . فالمشاهد وخاصة اذا كان من صغار السن ، ومن النساء على وجه الخصوص ، يتأثر سريعاً بهذه العروض ، سواء كان ذلك بالأنس والفرح ، أو بالحزن والضيق الشديد ، وكأن ذلك واقع حقيقى ، وهذا ما يسمى بالمشاركة الوجدانية .

فالقصص تؤثر فى النفس تأثيراً كبيراً لذلك فان الله سبحانه وتعالى العالم بحقيقة النفس الانسانية ، يستخدم القصص القرآنى كوسيلة للعملية التربوية ، لأنه تعالى يعلم الميل الفطرى الى القصة فى الخلق البشرى ، ويدرك بعظيم حكمته سحر القصص على القلوب .

---

(١) محمد قطب ، منهج التربية الاسلامية ص ٢٢١

فنجد القرآن الكريم يستخدم القصة التاريخية ليعرض لنا نبذة عن حياة الأمم السابقة ويربط التاريخ بالأخلاق ، فيبين مدى انحراف هذه الأمم عن الطريق القويم ، كما يعرض لبعض الشخصيات التى تمثل القدوة الصالحة ، ليختار الانسان الطريق الواجب الاتباع من خلال سماعه أو قراءته للقصة القرآنية ٠

ويشتمل القرآن الكريم أيضاً على القصة الواقعية ، التى تحكى للقارىء بعض النماذج الانسانية فى حقب مختلفة من الزمان ، وكأن هذه الشخصيات تعيش بيننا ٠ فيرسم بعض الشخوص التى تنزع الى الاسراف أو التبطل أو الجنوح ، أو الكفر أو الاغترار ، أو الطمع ٠

كما يعرض لبعض النماذج البشرية التى تتمثل فيها القدوة الحسنة كشخصية الحكيم ، والصابر ، والتقى ، والأواب ، والصادق ، والمحسن ، والعالم ، والمؤمن ٠

وهذه الشخصيات الطيب منها والخبيث ، يمكن أن تكون موجودة ، فى أى مجتمع بصورة من هذه الصور وفى كل عصر من العصور ٠

قصص الأنبياء ، وقصص المكذبين بالرسالات يعرضها لنا القرآن الكريم مبيناً نصر الله سبحانه وتعالى لأنبيائه ، وموضحاً ما أصاب أعداء الله من عقوبات من جراء تكذيبهم لكلام الله ، مثل قصة موسى وفرعون ، عيسى وبنى اسرائيل ، هود وعاد ، وشعيب ومدين ، لوط وقومه ، نوح وأهله ، وغير ذلك كثير ٠

وكذلك يمثل القرآن الكريم بين شخصيتين أحدهما مؤمنة والآخرى مكذبة ، مثل صاحب الجنتين الذى دخل الى جنته وهو ظالم لنفسه :

« .... ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة .... » « الكهف : ٣٥ ـ ٣٦ »

ويرد عليه صاحبه المؤمن فيقول له :

« أكفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلا » « الكهف : ٣٧ »

هذه المناقشة بين المؤمن والكافر ، يمكن أن تحدث فى أى عصر وفى أى مكان ، بين شخصيتين ، أحدهما مؤمن والآخر ملحد ، وعلى القارىء أو المستمع صاحب الفطرة السليمة والعقل الرشيد ، أن يتعلم من هذه القصة أن طريق الكفر يؤدى بصاحبه الى الخسران المبين ، كما حدث لصاحب الجنتين ، كما أن طريق الايمان يؤدى الى التوفيق والسداد والنعم الظاهرة والباطنة .

وهناك قصة يوسف عليه السلام ، وزليخة زوجة العزيز ، التى راودته عن نفسه :

« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » « ص : ٣٠ »

فالله سبحانه وتعالى يبين للناس فى هذه القصة ، كيف أن الشيطان يغوى الانسان لارتكاب الفحشاء ، ويبين لنا أن النفس

الانسانية متى استجابت للغواية ، أصبحت نفساً أمارة تدعو الى الفساد والافساد ، كما هو واضح من شخصية زليخة .

ومن ناحية أخرى يوضح لنا الله تعالى فى هذه القصة أن الانسان الصادق مع الله ، الصابر فى الله يمكن أن يلتجأ الى الله ليعينه عندما يشعر بضعفه أمام اغراء المرأة اللعوب ، فيضعف أمام مطالب الحس ، بما جبل فيه من حب للشهوات .

وعندما يتقرب الانسان لله بالدعاء فى هذا الموقف ، فانه يأخذ بيده ويساعده وينصره على طريق الحق والرشاد ، وهذا ما حدث تماماً ليوسف عليه السلام فى هذه القصة .

ويستفيد القارىء أو السامع من هذه القصة ، ومن مثيلاتها بما يقصه الله تعالى على الناس ، يستفيد السامع والقارىء أن الطريق المستقيم ، هو الموصل حقيقة الى النجاح والفلاح فى الدنيا وفى الآخرة ، وأن الانسان اذا تقرب الى الله شبراً ، تقرب اليه ذراعاً ، وأنه لولا الله لفسدت نفسه وعقله وقلبه جميعاً .

فالقصة هامة جدا فى العملية التربوية ، لذلك فلا بد من ان تهتم المؤسسات الثقافية فى الدول الاسلامية بالقصص الذى يحض على التمسك بأهداب الدين القيم والشريعة السمحاء ، ولا بد أن يكون بطل القصة شخصية حكيمة تدعو الانسان الى محاكاتها والتطبع بأخلاقها ، والتمسك بقيمها ومبادئها .

كما أنه يجب أن تظهر الشخصية المنحرفة والجانحة عن

الحق فى صورة باهتة ، تجعل القارىء أو السامع ينظر اليها ببغض واحتقار شديد ، خاصة عندما يظهر له من العرض القصصى ، أن النهاية التى تنتهى اليها الشخصيات الانحرافية ، هى نهايات مظلمة ، حيث تلقى الشقاء والتعاسة فى الدنيا والآخرة ·

وبذلك يمكن أن تكون القصة فى خدمة العملية التربوية ، فتهدى الشباب والكهول الى طريق الاستقامة ، حيث تبغض لهم ارتكاب الرذائل والفحشاء ، وتبشرهم من ناحية أخرى بالنعيم والجنات التى تنتظرهم اذا ما ساروا فى طريق الله ·

ويتوجب على المؤلفين والمشتغلين بأجهزة الاعلام المختلفة ، اختيار القصص الذى يدعو الى مكارم الأخلاق وينبذون الجنوح والانحراف عن جادة الصواب ، فيبتعدون عن العروض الرخيصة ، والصور التى تدعو لنعرات الجنس ، ودعاوى الالحاد ···

ان على المهيمنين على المؤسسات الثقافية والاعلامية ، رسالة ضخمة عليهم أن يؤدوها بأمانة واخلاص ، ألا وهى الدعوة الى دين الله ، والعمل بما أمر الله والنهى عما نهى عنه ، ولا عذر لهم فى عرض الصور المرئية والمسموعة على المشاهدين والسامعين والقارئين ، قد شحنت بالاثارة للشهوات والنعرات التى تحض على ارتكاب المعاصى والضلالات ·

لا عذر لهم ، فان النفس الانسانية تقبل الطيب ، كما يمكن أن تقبل الخبيث ، وعليهم تغذية النفس بالطيبات ، وزجرها عن الخبائث والضلالات ·

الباب الرابع

(الأسس النفسية لتربية النشء في النظرة الاسلامية)

الفصل الأول :

١ ـ معرفة الحلال والحرام ·

٢ ـ الايمان بالغيب ·

٣ ـ جهاد النفس ·

الفصل الثانى :

تربية الاحساس الفنى والجمالى ·

الفصل الثالث :

أثر المسجد فى العملية التربوية ·

مقـدمة :

نود فى هذا الباب ، أن نتطرق الى بعض الموضوعات التى تتعلق بتربية النشء • ولقد كثر الجدل حول بعض المسائل ، التى تتطلب من أهل الحل والعقد أن يدلوا برأيهم فيها •

وهـذه الموضوعـات ، ربما لم تكـن من قبل تحتـاج الى المناقشـة ، واجتهـاد من العلمـاء • الا أنـه قد جـاء الوقت لمناقشتها ، وبيـان مدى موافقة الشريعة الاسلامية عليهـا من عدمها ، فهل هى تعد من المحرمات أو من المباحات •

ومن تلكم الموضوعات ، الصور المرئية والعروض المسرحية والأعمال الموسيقية والفنون المختلفة •

ويقف المسلم فى هـذا العصر حائـرا ، بين الأخذ بهـذه المستحدثات والمستكشفـات ، وقد أصبحت ملازمة للنـاس فى الأمكنة العـامة والخاصة على السـواء ، وبين نبذهـا وتجنب مشاهدتها او الاستمتاع بها باعتبارها من المحرمات •

ويترتب على الأخذ بهذه الفنون والعروض المسـتحدثة ، استخدامها كوسائل لتربيـة النشء فى العمية التربوية ، كمـا يترتب على تحريمها اعتبارها من الممنوعات والمحظورات ، التى يعاقب على مشاهدتها او الانصات اليها •

ومعنى ذلـك انها ستصبح سـلعة ، تروج فى الخفـاء ، يقبل عليها نفر من الناس فى غيبة من القانون ، وهذا ما يكون له من الآثار السيئة أكثر مما لو كان قد أبيحت ممارسته •

ان موقف المسلمون من التقدم الحضـارى موقف عجيب ،

فهم يقلدون ويحاكون الفنون الغربية ، بلا فحص أو تمحيص ، لما يقدم اليهم من الحلال والحرام ٠

وفى نفس الوقت نجد بعض المتزمتين يرفعون أصواتهم ، ويجهرون بالقول ، بأن كل ما يقدم من الحضارة الغربية يدخل فى باب المحرمات ، فيرون أن التلفاز هو وسيلة شيطانية ، وأن العروض المسرحية بدعة وضلالة ، كما أن الموسيقى هى من المحرمات ٠

هذه الموضوعات وهذه المشاكل ، لم يبت فيها حتى الآن برأى صائب ، يبين للمسلم طريقه ، ويرشده الى ما ينفعه فى دنياه وآخرته ٠

اننا نحتاج فعلا الى تطوير المسجد ، وادخال بعض المستحدثات فيه ، ليقبل عليه العباد وطلبة العلم والدارسين ، فلا يغلق أبوابه بعض الصلاة ، انما يصبح منارة للعلم وبابا لحل المشاكل الاجتماعية والنفسية ٠ كما أننا نريد ان تكون وسائل الاعلام ، وسائل لتربية الاحساس الفنى والجمالى ، ومعرفة الحلال والحرام ، كما يجب أن تكون وسيلة لتثبيت ايمان المؤمن ، وليست وسيلة لاثارة النعرات ، وموافقة الشهوات ، وتقليد أصحاب الأهواء من الملحدين والظالمين الطرق التربوية لا توصل الى التكامل الأخلاقى ، ولذلك يتوجب لأنفسهم ، والمسرفين فى التبرج والسفور واللاأخلاق ٠

لقد جربنا الوسائل المختلفة التى يستخدمها الغربيون فى تنشئة ابناءهم ، ولقد وجدنا بالتجربة أن هذه الأنظمة وهذه

علينا أن يكون لنا منهجنـــا التربوى ، الذى نستقى أصـــوله من المنبع الذى لا ينضب ، والذى هو كلام الله وسنة رسوله ، ونعمل بما أمرنـــا به وننتهى عما نهانـــا عنه · ومن اصـــدق من الله حديثـــا ·

الفصل الأول

١ ـ معرفة الحلال والحرام :

ان الاسلام دين الفطرة واليسر والرحمة ، ليس على المؤمن به أى مشقة أو عنت أو عسر فى اتباعه ، فلا تشتمل القواعد القرآنية على طقوس معقدة أو طلاسم غامضة ، أو ممارسات شاقة تثقل على النفس ، وتبتعد بها عن مواكبة العقل الرشيد والقلب السليم والنفس المستقيمة ·

فالدين انما يواكب الفطرة السليمة وقواعده ميسرة للعامى والعالم على السواء ، ولا يحتوى على تناقضات أو متضادات ، انما هو يتمتع بالأصالة والبساطة والرحمة واليسر فى السلوك والتطبيق ·

والحلال بين والحرم بين، كلاهما ظاهر للنفس المستقيمة، اذ هو يتوافق مع العدل النفسى ، والبعد عن الجور والظلم والشرك ، وبذلك تواكب الفطرة السليمة العدل ومعرفة الحلال والحرام ·

ولا شك أن العدل هو مقصد الرجل المستقيم المقتصد فى الأمور (١) ، وهو الذى يتجنب الافراط والتفريط ، والاسراف والتفريط ، ايثارا لما يصبو اليه من غايات سامية وقيم عالية ·

فالحلال هو نقيض للجور ، والجور ضد القسط والقصد ، وهو حق ، لأنه ضد عدم قيام الشىء فى موضعه ، فالحلال يوافق العدل لأن قلب الأشياء عن مواضعها هو سقوط وتجور

---

(١) المعرفة عند الحكيم الترمذى ـ عبد المحسن الحسنى ص : ٢٣٥ ومابعدها

وان الم يعدل الشيء فقد تجور ، كما يقال قد تجور الشيء ، أو تجور العدل ، أى انقلب ولم يعدل (١) فالحلال ضد الحرام ، لأن الحلال معناه الاعتدال والاستقامة والموازنة ، والدين استقامة للنفس وللأشياء فى مواضعها ، وبذلك يتحقق للنفس أمنها واستقامتها ٠

وأما الحرام فهو ظلم وجور وسقوط وانحراف وميل ضد طبيعة الأشياء ، فهو نقيض العدل لأنه ظلم ، والظلم من الظلمة ، أى ذهاب النور ، والظلم نقص فى الشيء ، ولذلك يقال ، ظلم الشيء او لم يظلم من جانب ، أى لم ينقص من جانب ، فاذا لم يوضع الشيء فى غير موضعه فقد ظلم ، كأن يحفر انسان أرضا فى غير موضعها فهو بذلك قد ظلمها ٠

وكما أن الحلال هو استقامة وتناسب واقتصاد وعدم افراط ، أو تطرف ، فان الحلال يقصد به اذن العدل وهو الوسط ، والوسط هنا هو الاختيار الأمثل ٠

وكما يمكن تطبيق فكرة الحلال والحرام على النفس باعتبارها الوسط العدل بين الافراط والتفريط ، وباعتبارها الفطرة السليمة التى فطر الانسان عليها ، اذ أنها تعبر عن حقيقة الدين ، الا أنه يمكن كذلك تطبيق فكرة الحلال والحرام فى مجال السياسة واجتمع ٠

وبذلك يصبح دستور المجتمع وقانونه ، الذى يشتمل على العرف والتقاليد من مصدر صادق جميل ، أى مصدر صادق

---

(١) راجع الشريعة والحقيقة ٠ للمؤلف

لاريب فيه ولاشـك ، يستمد وجوده من التشريع الاسـلامى ، ويشتمل على معنى واحد وغاية واحدة هو اقامة العدل بحسـب أمر الله ، وبذلك يخضع لقواعده جميع طبقات المجتمع (١) ٠

وكما يستهدف الحلال والحرام مصلحة النفس الانسانية ، فان الحلال والحـرام هو عدل ، يستهدف عنـد تطبيق قواعده مصلحة المجتمع الذى يحكم به أيضـا ، وهذا العدل يحتـاج الى مرونة فى تطبيق قواعده ، وان لم يفقد أصوله ، الا أنه يواكب بمرونته كل مجتمع بحسب اختلاف طبائعه ، وبيئته وظروفه الحياتية ٠

والحلال والحرام هما قاعـدتين أساسيتين لحماية الفـرد والمجتمع ، وحقوق الله وحقوق الناس ، فى المحافظة على الأموال والأعراض بحسب ماتأمر الشريعة الاسلامية ٠

ومن ناحية أخـرى فان مقتضى العدل هو مطالبة الأفـراد أيضا ، بأداء الواجبـات نحو الله ٠ وان الاخـلال بها يعد من المحرمات ، كما يعد الاخلال بالمبادىء الأخلاقية والاجتماعية ، نوعا من المحرمات أو المستكرهات فى التشريع الاسلامى ٠

والدين الاسلامى يفرق بين العمل المحرم والعمـل المباح ، مستهدفا فى ذلك تحقيق فكرة العدل درجة درجة فى الطريق الى العدل الشامل ، أو العدل الكلى أو العدل النهائى ٠

والانسان يحب مما لا شك فيه العدل المطلق ، ذلك العدل

---

(١) المعرفة عند الحكيم الترمذى ص : ٢٣٦

الذى يواكب الفطرة السليمة ، ويميزه العقل الراشد ، وهذا العدل لا يخضع لمصطلحات أو تعبيرات أو تفاسير . اذ أنه فى جارحة كل نفس ، وهو لا يتغير ولا ينسخ ، ومثال ذلك العدل المطلق الفطرى ، نجده مثلا فى عدم الاساءة لمن يسىء الينا . أو الايمان بنوع من الالتزام نحو الانسان ، أو عدم الاعتداء على من يعتدى عليك ٠

وهذا العدل المطلق ، انما هو العدل الالهى ، وأن الانسان عندما يصبو بفطرته السليمة فانما هو يحاكى فيه عدل الله ، الا أن الانسان لا يمكن أن يصل الى عدل الله ، وبذلك لا يمكن الا نادرا ، أن يتحمل الاعتداء بدون أن يرد عليه ، أو لا يسىء لمن أساء اليه ، أى أن الانسان لا يمكن أن يكون الهيا فى عدله الا تمثلا فحسب ، وأما سلوكا فانه يصبح فى غالب الأمر من الأمور العسيرة ٠

لذلك كان للعدل درجات تبدأ بمعنى التسوية أو بمعنى التوازن أو الاستقامة (١) بحيث تشرع القواعد للحكم على صالح الأمور من فاسدها فيعاقب المعتدى ، ويعزر المسىء ، بحسب قواعد العدل الظاهرى ٠ ونضرب لذلك مثلا ، بأن المعتدى يقدم للمحاكمة ، ويقام عليه الحد بحسب جريمته بمقتضى قاعدتى الحلال والحرام تحقيقا للعدل ٠

لكننا لا يمكن أن نخضع المعتدى ، ونحن بشر ، الى قواعد العدل الالهى ، ذلك لأن هذا العدل ، انما هو عدل مستقل عن كل

---

(١) معجم الفاظ القرآن الكريم ج ٢ ص ١٨ ٠ ١٩

شيء ، عن النفس والافراد والعــرف والتقاليد ، اذ انه عــدل يرقى فوق معنى العقل (١) •

ويؤيد رأينا هذا قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام فى قوله كما ورد عن الله سبحانه وتعالى :

« انك لن تستطيع معى صبراً »   « الكهف : ٧٢ »

بمقتضى العدل الظاهرى ، ارتأى موسى عليه الســلام ، أن ما أرتكبه الخضر عليه السلام ، هو من المحرمات ، مثل خرق السفينة وقتل الغلام •

ومن ناحية أخرى ، فان بناء الجدار كان يستحق الخضــر عليه أجرا من أصحابه ، فنجد هنا أن فكرة العدل التى طبقهــا موسى عليه السلام على ما وقع أمامه من احــداث ، تنحصر فى العدل المطلق ، لكن هذا العــدل لا يتعدى العقل ، لكن العــدل الالهى ، وحكمه على ما يجرى من أحداث ، يتجاوز علم موسى عليه السلام ، لذلك فقد أنكره ، ولم يستطــع أن يصبر عليه ، بل اعتبره من الأمور المنكرة أو من المحرمات •

لذلك فعلى الانســان أن يحكم بالعــدل ، بحسب التشــريع الاسلامى وبحسب أمر الله ، فيطبق قاعدتى الحلال والحرام كما أمر بهما الله سبحانه وتعــالى ، دون أن يتجاوز ذلــك ، لأنه غير مأمور الا بتطبيق أمــر الله تعالى ، لأن ذلك انما هــو ما يصلح

---

(١) المعرفة عند الحكيم الترمذى ص : ٢٣٧ وما بعدها

للانسان بحسب طبيعته ، التى فطره الله عليهـا ، والحلال بين والحـرام بين .

واستهداف الانسان للعـدل ، يجعله مستقيمـا متوازنا ، لا يميل ولا ينحرف يمينـا أو شمالا ، وبذلك يظفـر الانسان بالتوفيق والنجاح والسداد .

٢ ـ الايمان بالغيب

ان الالتـزام بالنسبة للماركسى ، هو أن ينتج أو يفكـر أو يقوم بنشاطه الأدبى أو الفنى ، وفق محركات وأسس وضعتها ثلة من الشيوعيين ، فالالتزام معناه أن يفكر بعقله ، وأن يبذر ويرعى حقله ، حسب التعليمات والأوامر التى وضعها زعمـاء الحزب ٠٠ فاذا خرج عن تلكم الحدود المرسومة ، أعتبر خارجا عن النظام مهما كان عمله رائعا عظيما ، وتلصق به تهمة عدم الالتزام ، ويحاكم ويعـزل من مناصبه ، وربمـا يرمى به فى صحراء سيبريا القارصة البرودة ٠٠

لقد طغى سلطان الوجـودية بين الشباب الأوربى ، بعـد نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأصبح مفهوم الالتـزام فى دول أوربا الغربية غامضا ، لدرجة أنه يمكن أن يقال ان الألتزام هو ألا تكون ملتزما بشىء ، وهذا هو غاية الالتـزام فى نظرهم ، فالفنان الوجـودى عندما يتمـرد على الواقع ٠٠ ويثـور على المفاهيم والتقاليد والمثـل التى يعتقد المجتمـع فيها ٠٠ نقول عندما يتمرد ويثور على المجتمع ، فانه فى تصـورهم فى موقف الملتزم ، بمعنى أنه ملتـزم بمفاهيمه النـابعة من ذاته هـو ، وملتزم بالثورة والتمرد ضد الواقع والمجتمع ٠٠ الخ ٠

اننا نرى أن ذلك انما هو نـوع من السفسطة العرجـاء ، لكنها تلبس ثوبا جديدا ، ذلك أن الوجودى كانسان غير ملتزم بشىء على الاطـلاق ، ما دام قد تمـرد على الفضائل ومكـارم الأخلاق ، فأصبح فنه عبثا وفكره لعبا ولهوا ٠٠ تحركه الخيالات ،

فيصيغ أمانى النفس وأضغاث الأحلام شعرا أو نثرا ، أو رسما أو صورا ، كأنها حقائق لاريب فيها ولاشك فى صدقها ، والغريب أن يروج لهذه الفنون الرخيصة والآداب الهابطة ، أصحاب دور النشر والمنتجين ، والمخرجين والنقاد حتى يسطع اسم الفنان الى أعنان الفضاء ٠٠ وذلك لأن انتاجه شاذ ومثير للشهوات لا لسبب آخر ٠

ان الالتزام بهذه التيارات الالحادية ٠٠ وهذا الفكر الفج الرخيص ، وهذا الفن الداعر البغيض ، انما هو التزام بالشرك وعبودية للهوى وغرور بالعقل الجانح عن الحق والصواب ٠٠

اذا تأملنا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، لوجدنا أنه يقتضى بالفنان أو المفكر المسلم ، أن يرتبط فى سره وعلانيته ارتباطا وثيقا بأمر الله وعلم الله وحكمة الله ٠٠ وهذا الارتباط هو قول باللسان ومعرفة بالجنان ، وعمل بالأركان ، ويلهم الفنان أو الأديب ، بالمعانى الجليلة والآداب الرفيعة ، والعلم الحق ، اذا اطاع الله ورسوله ، وينقص بالرياء والعصيان وينمحى عمله بالشرك والالحاد والكفران ٠

ومعنى ذلك أن الايمان هو منهج الفنان أو الأديب أو المفكر المسلم ، فمنه تنقدح القرائح ، ومنه نسقى المعارف ، واليه يرجع الفضل فى العلم والعمل والاخلاص جميعا ٠

الايمان بالله ، لا الالتزام بمزاعم مغرضة ، ونظريات متهافتة ، وأفكار منحرفة هو دليل الأديب والفنان والمفكر

المسلم ٠٠ وكفى لنا تأكيدا على صدق ما نقول أن يصف الله نفسه فى كتابه العزيز :

(السلام ٠٠ المؤمن ٠٠ المهيمن) **« الحشر : ٢٣ »**

فالايمان بهذا المعنى هو الدين والشريعة والملة ٠٠ لان الدين هو ما يتبعه العبد من الطاعات ، مع اجتناب المحظورات والمحرمات وذلك على الحقيقة أصل الايمان ٠

والايمان فطرى فى الانسان ، يزداد بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وترك الاعتراض والتحدى والشك فى وعد الله ووعيده ، وهو فى نفس الوقت ثقة فى الله وخروج من الحول والقوة ، فلا يزعم الانسان لنفسه القدرة والعلم وكشف الغيب وأتيان العجائب ٠٠ كما أنه صبر على النقمة وشكر على النعمة ، وترك للتهمة فى سائر الأحوال ٠

وخلاصة القول أن مصطلح الايمان لا الالتزام ، هو المصطلح الصالح الواجب التطبيق فى حقول المعرفة وفى دنيا الآداب والفنون ٠٠ اذ هو المنحة الربانية والهبة الالهية للعبد السائر فى طريقه تعالى ٠٠ والله تعالى ينعم عليه ويمن عليه برحمته وهداه ٠٠ وبذلك يعيش الفنان المؤمن مجاهدا فى الله ، فما يرتزق به يحمد الله عليه ، وما يمتحن به يدعو الله أن يتلطف به ويوفقه فى مرضاته ٠٠ ولهذا المعنى يرجع سبب التجدد النشط فى أعمال الفنان أو الأديب المؤمن ٠٠ ولهذا السبب أيضا يرجع السبب فى شمولية علم المؤمن ٠٠ فتراه أديبا ومفكرا وفنانا ، ومحدثا وفقيها وعالما بعلوم كثيرة ٠٠

جهـاد النفس

اذا تركت النفس دون تربية أو ارشاد أو توجيه ، وجدتها ، كالطفل المدلل تميل الى الراحة والخمول حينا ، وتميل الى اللعب والعبث حينا ، فهى دوما تحتاج الى التذكير بحقوق الله عليها ، والتنفير من المعاصى واتيان المستقبحات ومقارفة الموبقات ٠

لذلك كان طبع الجاهل النسيان لأوامر الله ، فاذا ما طال عليه العهد دون أن يرجع عن غيه ، ويثوب الى رشده ، ويندم على ما أضـاعه فى المحرمـات من سنين عمـره ، اذا ما طال عهـده بالنسيان تملكته الغفلة وأصبح من الصعوبة بمكان علاج أمـر نفسه ورجوعه الى حظيرة الايمان ، اذ الغافل يركن الى الشهوات ويرى فى الحرام حلاوة غفلته ، فاذا ما وجد عوائق تحول دون تنفيذ آهدافه فى الشهوات عمد الى الرياء والغش والخـداع ، أو ارتكب الجرائم وغفل عن العقاب والقصاص ، وبذلك يوقع نفسه فى الضلالة والخسران فى الدنيا والآخرة ٠

وتؤدى الغفلة الى التمذهب بالشر ، اذا يرى الجاهل الغافل المنحرف فى الشر خيرا ، وفى الخير شرا ، بعد أن اعتادت نفسه الأمارة على اتباع الأهواء وموافقة غواية الشيطان ، حتى تعمد فى نهاية الأمر الى سلوك كل قبيح ومستقبح أو رؤية الأفعـال على غير حقيقتها ، واقتراف الرذائل فى لذة شـاذة ، وبالجملة تكون كل أموره غير فطرية دون أن يعى شذوذها لغفلته ، حيث اختلـت موازينه العقليـة فى الحكـم على صحيح الأمـور من فاسـدها ٠

لذا يحتاج الانسان الى جهاد طويل مع نفسه حتى يستقيم حالها (١) ، وتسلم قيادها الى أمر الله وحكم الله فلا تطيع الا ما أمر به تعالى ، ولا تنهى الا عما نهى عنه ، وهنا تسكن النفس من سوراتها ، وتخلد الى الأمن ، وتكتنفها السكينة ، ويمن الله عليها بالطمأنينة فتصبح نفسا راضية مرضية ، يحبها الله وتحبه ، ويرضى عنها وترضى عنه ٠

الا أن الوصول الى هذا المقام العظيم يحتاج الى الجهاد المستمر والمكابدة والمعاناة لفترات من العمر طويلة ، والكثير من الناس يصعب عليه الأمر ، وينظر الى الجهاد نظرة القانط من رحمة الله ، حتى يتملكه اليأس فيتوقف عن الجهاد والمجاهدة وبذلك يظلم نفسه ويضيعها ضياعا رخيصا ٠

ان مجاهدة النفس عملية جد شاقة ، الا أنها الرسالة الأساسية للانسان ، وهى الأمانة التى حملها الانسان من دون المخلوقات ، اذ أن المجاهدة ـ اذا تعود الانسان عليها ـ تصبح طبعا ملازما له ، ويرى فيها لذات عظيمة ونعما طيبة ، تجعل من طريق المجاهدة نورا مشرقا يبين لصاحبه ما غمض عليه ، ويفتح قلبه على الأشياء الخفية فيراها ببصره وبصيرته جميعا ٠

ان للمجاهدة ثمرات رائعة ، وهى التى تجعل المؤمن يطمئن الى طريقه مهما لاقى من صعاب ، ومهما امتحن من محن ومصائب وشدائد وابتلاءات ، ومهما صادفه فى رحلة جهاده من عوائق وغوايات وعثرات ٠٠ لأنه قد اجتاز بأمان دنيا الأهواء ،

---

(١) احياء علوم الدين ـ الامام الغزالى « كتاب العلم »

وعافت نفسه عن الشره والحرص وطلب الشهوات .

ان القوى النفسية التى تحكم دنيا النفس تتمثل فى قوى أربع (١) وهى :

١ ـ قوة العلم (العلم الالهى) .
٢ ـ قوة العدل (العقل) .
٣ ـ قوة الغضب .
٤ ـ قوة الشهوة .

والانسان الصالح يهيمن بقوة العلم على القوى الأخرى فى النفس وتأتمر بامرتها ، ولا تعصى لها أمرا ، اذ تتوازن قوة العدل ويصبح العقل الانسانى راشدا راجحا فى آحكامه على الأمور والأفعال .

أما الانسان الذى يتبع هواه ، ويوافق غواية الشيطان ، تضعف عنده قوة العلم ، وبذلك ينعت بالجهل ، ويتحول هذا الجهل الى غفلة دائمة فيقع فى الأخطاء والمعاصى والاثام .

والجاهل تسيره قوة الغضب ، فيندفع بجهله الى الحماقات ويرتكب الأفعال المستقبحة ، وأما الغافل فان القوة الشهوانية تقوده الى المخالفات واتيان الفواحش ، وبذلك تفسد دنيا النفس وتعطب ، وينتكس صاحبها ويضيع نفسه ضياعا رخيصا .

وحقيقة الأمر أن القوتين الغضبية والشهوانية تتعاونان

---

(١) احياء علوم الدين ـ الامام الغزالى « كتاب العلم »

فيما بينهما عند اقتراف الرذائل ، كما أنهما غالبا ما يشتركان في الجريمة الواحدة ، ومن ناحية أخرى فانه اذا قويت قوتى العلم والعدل فى الانسان فانه يعتدل مزاجه ، وتتوازن أحكامه نتيجة لتسكين قوتى الغضب والشهوة ، فاذا ما برزت قوة الشهوة محاولة اتيان الفعل غير المشروع ، سلطت قوة العدل الغضب على الشهوة فأسكنها والعكس بالعكس .

١ ـ النفس بين الهوى والاستقامة :

واذا تأملت دواخل النفس رأيت عجبا ، واذا هتكت الستائر ، ومزقت الأقنعة ، وظهرت النفس وقد تعرت تماما من مظاهرها الكاذبة ، وزخارفها البراقة ، وآشكالها الخادعة ، بدت الحقائق تندفع أمامك ، وانزوت الأباطيل والألوان الزاهية ، وانكمشت بعيدا عن مرأى البصر .

ربما يتملك الفزع ، ويكتنفك الرعب ، وتشعر بالوحشة من هول ما ترى ، لكن ذلك ليس معناه أن تهرب من هذا الموقف « الدرامى » فان الهرب حينذاك هو هرب من نفسك ذاتها ، والهرب من رؤية حقيقة النفس يؤدى الى طريق مسدود ، فاما الى الاصطدام المفاجىء وهذا أقسى على النفس وأمر ، واما الى الاستخفاء ، وهذا أيضا يجعل الحياة مرة كالعلقم ، شقية شقاء السيف المسلط على رقبة القاتل ، تعيسة تعاسة المريض الذى لم يشف من دائه السرطانى الوبيل ، ولم يرحم بالموت السريع .

اذا دخلت الى كهف النفس وجدت ما يخطر على بالك ، وما لا يخطر على بال ، فهناك دهاليز وحارات وعطوف ومغاليق

لأبواب وحصون وسدود ومعاقل وقناطر وفنادق وجسور ، ثم أنك ترى أسلحة ومعدات تكفى جيشا بأكمله وتزيد . بل ربما لا يمتلك ذلك كله جيش جرار ، ولا دولة عظمى لتتحصن ضد أعدائها ، وانما تمتلكه نفس واحدة يحملها جسد واحد وقلب واحد وعقل واحد . كل ذلك يحمله الانسان بين جنباته ويا له من حمل ثقيل تنوء به الجبال الشامخات .

ترى داخل النفس خصمان يتنازعان وجيشان يتدافعان ، وقوتان تتحاربان ، وهذه الأسلحة تستخدم للتحديات والحروب النفسية من أجل الظفر والانتصار وتحقق المتطلبات والرغبات والشهوات ، أو التوازن والاعتدال .

والخصمان المتنازعان ، داخل النفس هما الهوى والاستقامة ، والهوى يستخدم الغش والخداع ،ويوسوس للنفس بالأمانى الكاذبة والآمال الزائفة ، ويخطط لمستقبلها تخطيطا مبهرا يجعلها تستجيب لأفانينه .

يستخدم الهوى الغواية ، واذا فشل فى الوصول الى ما يريد ، أشاع داخل النفس جوا من الارهاب ، وهدد بمختلف أنواع السلاح ، وخطب الخطب الطوال للتنكيل بخصمه واضعافه وارهابه حتى يخلو المسرح فيشيع الفساد والافساد ، ويجعل النفس ميدانا للعداوة والبغضاء والحقد والحسد ، والغرور والاغترار والطمع والشره والأنانية والكبر والتجبر والخيلاء .

حرب دؤوب بين الهوى الذى يستعين بالرجيم ابليس اللعين ، وبين الاستقامة التى يلهمها ربها الحق المبين .

« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »
« الشمس : ٧ ، ٨ »

واذا انتصرت الاستقامة فى معركة ونبذت الغواية وأعوانها ، سكنت النفس واطمأنت ، وأمنت واستراحت ، لكن الهوى لا يعترف بالهزيمة ، ويتربص بالاستقامة الدوائر .. فاذا ما وجد الوقت مناسبا آغار على الاستقامة ودفع بها الى المعركة دفعا .

وبرغم اعلان الهدنة وأخذ العهود والمواثيق فلا يحترم الهوى الا شهواته ، وتنفيذ مخططاته وأغراضه ومتطلباته العاجلة التى لا تشبع .

الاستقامة تحمل فى مضامنيها الحكمة والعدل والتوازن والاعتدال ، ولا تعرف الغش والخداع ، ولاتسفك الدماء ولاتثير الغرائز والشهوات ومع ذلك فان الهوى دائم الاتهام لها بالاعتداء ، يخيط لها حبائل الوقيعة ، ويمكر ويتخابث ويظلم ويعتدى على كل الحدود ، ولايسكن الا برؤية الدماء ولا يهدأ الا بالعدوان .

وان انتصار الاستقامة ليغيظ الهوى والشيطان جميعا ، فبسيطرتها على قوى النفس ، تنعدم وظيفة الهوى ، وتتقوقع الغواية فى دهليز من دهاليز النفس ويحكم عليها بالمزلاج فلا تستطيع فرار أو هروبا ، ويصبح الهوى حينذاك فى سجل النسيان وذكرى لمن يريد أن يتعقل ويعتبر .

هذه هى دنيا النفس من الداخل يقودها الهوى حينا وتقودها الاستقامة حينا ، وتختلف مدد حكم الهوى أو الاستقامة من نفس الى نفس ، فالنفس الأمارة يحكمها الهوى بصفة دائمة ، والنفس اللوامة تتدافع بين الاستقامة والهوى لعل أحدهما ينتصر فى الموقعة ، فان انتصر الهوى لجأت النفس الى التوبة وندمت على الذنوب والاثام التى وقعت فيها بسبب الهوى والغواية ، وأما النفس المطمئنة فهى التى انتصرت على الهوى وحبسته فى أبواب موصدة ، وبذلك تستطيع أن تهنأ بعيشها بعيدا عن الهم والغم الذى يسببه لها الهوى والشيطان .

ان نجاح الانسان الحقيقى فى هذه الحياة ، انما يتأكد بنجاحه فى الانتصار على الهوى وسحق الغواية ، لكن ذلك لا يقدر عليه الا النادر من الناس .

لكن الانسان المستقيم هو ذلك الذى يمشى وقد أمن من الهوى والغواية وعثرات الطريق فاستحق اسم المؤمن بالله .

الرياء :

والرياء أداة من أدوات الهوى (١) وفرع من فروعه يستخدمه فى معاركه الطويلة ضد الاستقامة ، ويتقنع به عند الحاجة ، ويتخفى وراءه ليخدع الحق والحقيقة ، ويقصد باستعمال الرياء الغش والخداع والزيف والباطل والادعاء كذبا وبهتانا ونفاقا وظلما ، أنه نصير العدل والاستقامة ومع الهدى والرشاد ، فيظهر غير ما يبطن ، ويعلن غير ما يستر .

---

(١) فتوح الغيب – الامام الجيلانى ص ٩٢

ان الهوى مانع عن الجهاد الذى هو بالضرورة طريق الاستقامة ، وما استخدامه للرياء الا ستائر دخانية ، وأقنعة تمويهية ، ليضلل بها الناس والعباد ، ويعمى الخلق عن رؤية حقيقته ، وكشف دخيلة نفسه وفضح ستره واستجلاء خداعه وخديعته .

واذا كان الرياء ، وهو الشرك الخفى ، كما يسميه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الأصغر ، فأحرى بنا أن نحاربه ، أول ما نحارب فى نفوسنا ، وتقتلع جذوره من قلوبنا ، اذ أنه عندما يترعرع فى قلوبنا ، يصبح كالأخطبوط وتنمو أدواؤه الفتاكة ، وأنيابه السامة ، وتلتف أرجله الثعبانية لتقضى على كل من حولها ، وتمتص الدماء البريئة وتحول النفس الانسانية الى ساحة الاعدام .

واذا تملك الرياء وهو الشرك الأصغر قلب الانسان ، بدت عليه عوارض الغفلة ، وانساق الى متابعة الغواية وموافقة الهوى ، فلا يسلم من الوقوع فى الشرك الأكبر وان أخفى ذلك واستظهر التقوى والورع وأفعال الخير وصالحات الاعمال :

« يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » « الفتح : ١١ » .

يقول صلى الله عليه وسلم : « ان أدنى الرياء شرك »
(رواه البخارى ومسلم) .

والمرائى ثوبه نظيف ، وقلبه نجس ، يزهد فى المباح تظاهرا

وخداعا ، ولا يتورع عن الحرام طمعا وشرها (٢) ويتقاعس عن الجهاد ، ويتكاسل عن العمل لله وطلب الرزق ويأكل بدينه . الا أنه يخفى أمره عن الناس ولا يعرفه الا أهل الحق .

ان المرائين أصحاب الشرك الاصغر ، لأنهم تركوا المعاصى الظاهرة ، ومع ذلك فان قلوبهم لم تنمح عنها الصفات المذمومة ، ومثلهم فى ذلك كمثل الذى أصيب بالجرب فأمره الطبيب المعالج بتناول الدواء ودهان جلده الا أنه ترك شرب الدواء ، واهتم فقط بالدهان ، فأزال بذلك ما بظاهر الجلد من أعراض ، ولم يزل باقيا ما بباطنه ، ولا يستقيم لهذا المريض حال ، ولا يبرأ من مرضه ، الا اذا عالج ما فى باطنه من الجرب الذى يطفح بين الحين والآخر على ظاهر الجلد ويزداد يوما بعد يوم ظهورا وانتشارا وسوءا .

« ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم »
« النساء : ١٤٢ »

الرياء اذن فسق وخداع وعبادة للذات ، ونسيان لحقوق الله ، وهو ثمرة فجة لاستحواذ الشيطان على النفس ، يغويها بالخيالات ، ويغريها بالأباطيل ، ويوقعها فى التدليسات والأكاذيب ، حتى اذا ما لبست قناعه الخادع ، وتسترت بثوبه النجس ، ظنت أنها مركز الكون كبرا وافتراء وغرورا ، وحتى اذ عرف المرائى حقيقة نفسه الأمارة بالسوء ، فانه يتعلل بالعلل

---

(٢) هامش كتاب تنبية المغترين . للغزالى ص ٦٥ ومابعدها

ويمنى النفس بالأمانى ناسيا ربه ، راكبا شطط عقله وأهـواء قلبه المريض ·

« يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء » « النساء : ١٤٢ »

٣ ـ الغضب :

ولا تقتصر المعارك بين الهوى والاسـتقامة على دفع جناح الرياء لافساد خطط الاستقامة ، والهـاء النفس عن ذكر الله ، بل أن الهوى يستخدم أسلحة متعددة ، وكلما فشـل فى مهمته استبدل سـلاحه بآخر أشد عدوانا وضراوة ·

والغضب قوة من القـوى التى أودعها الله فى الانسـان ، لكن هـذه القوة اذا لم ترتبط بالعدل وتسلك طريق الاستقامة ، استحوذ عليها الشيطـان وارتبط الانسان بهذه القـوة النارية التى يتولد عنهـا اضمار السـوء والشـماتة وهتك السـر والاستهزاء ·

ومن نتاج الغضب الحقـد والحسد ، والغضب يسـوق الى المرض وتكدر الطبائع واختلالها ، ولذلك وجب معرفة المذموم منه والذى يندفع بتأثير الهوى ، حتى يتمكن الاسان من علاجه ، وبيان فضيلة كظم الغيظ والعفو والصفح الجميل والتسـامح والاحسان · يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ليس الشديد بالصرعة ، انمـا الشديد من يملك نفسـه عند الغضب » ·

(عن أبى يعلى والسيوطى)

ويقول عز من قائل :

«اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين »   « الفتح : ٣٦ »

ومحل قـوة الغضب فى الانسـان القلـب ، ومعنى الغضب غليان دم القلب بقصد طلب الانتقام أو العدوان ، وتتوجه هذه القـوة فى ثورتها الى دفـع الأضـرار قبل وقوعهـا والتشفى والانتقام بعد حدوثها ، والانتقام هو غاية هذه القوة وشهوتها ، وفيه لذتها ولا تسكن الا به ، لكن الانسـان المؤمن يستطيع أن يسكن هذه القوة عندما يغفر ، وذلـك بكظم الغيظ والصفـح عن المعتدى :

« واذا ما غضبوا هم يغفرون »   (الشورى : ٣٧)

لذلك فان جهاد النفس ضد الغضب ، يتطلب قوة نفسـية عظيمة ، اذ أنـه فى الغضب يتصـاعد دخـان مظلم الى الرأس فيستولى على معـادن الفكر ، بل ربما يتجـاوز ذلك الى معـادن الحس فتظلم عينه ولا يرى بها شيئا .. كما أنه عندما يتمكـن الغضب من الانسـان لا يستطيع اطفاءه لا من الداخـل ولا من الخارج ، ولو رأى الغضبان صورته فى حال غضبه وما هى عليه من قبح لسكن غضبه حياء من نفسه ، بل لرأى قبح باطنه أعظم من قبح ظاهره .

الطريق الى الاستقامة :

استعرضنا فيما سبق الحـرب القائمة داخل دنيـا النفس ،

والتي هي كما فصلنا ، أشد قسوة وأشق جهـادا على الانسان من حربه ضد العدو الخارجي ، حيث أن العدو غالبا ما يكون معلوما ، وخوض معركة معه أو أكثر ستنتهي ، طال الزمن أم قصر . ثم أن المعركة مع العـدو الخاجي لها بداية ولها نهـاية ٠٠ اما الى الانتصار واما الى الهزيمة ، ولكن الحرب داخل دنيا النفس لهـا استمرارية الحياة نفسهـا ولا تنتهي الا بالموت ، ثم أنها معـارك متعددة في اتجاهات مختلفـة ، وتنتقل من جبهة الى أخـرى ومن موقع الى موقع ، وهي حـرب ضد الهوى وجهاد ضد الشـهوات ، ونضـال ضد اليأس والقنـوط ، وكفـاح ضد الشره والبخـل والحرص ،وعمل متواصـل ضد التجبر والتكبر والاسـتعلاء ، وترويض دائم للنفس ضـد الغضب والاعتـداء والعـدوان ، وتسكين مستمر لطلب اللذات العاجلة والحظوظ الدنيوية الزائلة ، وبتر للمخالفات والمعـاصي والأمراض التي تبعد الانسـان عن ربه ، وامتناع عن موافقة الحاجات الأنانية والمنافع التي ترضي الاشباعات الذاتية ، التي تقوم على الاثرة وحب الذات والدعاوى الأنانية ٠

ان جهاد النفس أعسر عليها من جهاد العدو مرات ومرات ، لذلك يلقبه الرسـول صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأكبر ، كمـا يلقب حرب الأعداء بالجهاد الاصغر ٠ وهذا يدل دلالة قاطعة على صعوبة معرفة النفس وتربيتهـا ومحاسبتها وتسكين غضبهـا ، ومعالجة ما يشوبها من كبر وحب للرياسة ، وتطهيرها من الريـاء والنفاق ، وتخليصها من الحقد والحسد والسخرية والاستهزاء ٠

انها عملية جـد شاقة تتطلب قلبا سليما ونفسـا مستقيمة

وعقلا راشدا راجحا ، ولكى يتمكن الانسان من جهاد نفسه التى هى سر تعاسته وشقاوته وسر نجاته وسعادته ، يجدر به أن يسعى جاهدا لسد الثغرات التى يمكن أن يدخل منها الرياء ، وذلك بالعلم والعمل والاخلاص جميعا ، كما أن عليه أن يعين نفسه على تسكين الشهوة والغضب وذلك باطلاق نار الغضب على الشهوة حال طلب النفس للحرام ، واطلاق الشهوة على الغضب عند الرغبة فى العدوان لتطفىء ناره ، ولا يتوصل الانسان الى ذلك الا بعدل النفس واعتدالها وتوازنها ، ولا يتحقق العدل الا بطريق العلم والحكمة ، ولن يحظى الانسان بالحكمة الا اذا وهبها الله له فضلا ومنه منه تعالى :

« يؤتى الحكمة من يشاء ومن يـؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » • (البقرة : ٢٦٩)

يحتاج جهاد النفس الى عمل عظيم اذن ، وخير وسيلة لذلك انما تتركز على التربية ، والتربية تحتاج للقدوة ، لذلك ينصحنا الله تعالى أن نتبع الرسول ونستن بسننه ونحاكيه فى كل أمر ، ونقلده فى كل فعل ، حتى نكتسب الأخلاق الحسنة ونتخلى عن الصفات المذمومة والمستقبحة ، ونتحلى بالأوصاف المحمودة والصفات الطيبة ، وهذا لن يثمر ثمرة يانعة الا اذا أصبح الخلق القويم والقيم العليا والمفاهيم الاسلامية العظيمة ، طبعا راسخا فى قلوبنا وعقولنا ونفوسنا جميعا •

وحتى لا تمل النفس من الجهاد الأكبر • علينا أن نبدأ فى معالجة اعوجاجنا بالأيسر ثم بالأشق ، ثم بالاعسر ، أى من السهل الى الأصعب وهذاهومنهج التربية الأقوم •• اذ أن العمود الفقرى

لجهاد النفس ... التربية . وهى الوسيلة العملية التى يملكها الانسان لتحقيق نجاحه فى الدنيا والآخرة ، فبالتربية تثبت المثل العليا وتنمو القيم الأخلاقية ، ويتحول الرياء من مظهر شكلى وادعاء ظاهرى بالتكامل والاكتمال الخلقى ، الى حقيقة مؤكدة يتطابق فيها ظاهر الانسان مع باطنه فتصبح أخلاق الانسان المتكاملة عقيدة ايمانية لاشك فيها ولا ريب .

وحتى تنجح النفس فى حربها ضد الهوى وجهادها ضد الشهوات ، فلا بد لها من التحرر من القوالب والصيغ وأن تخرج من قوقعة الارهاصات والدعاوى الزائفة ، الى أسلوب عملى تبدأ به بعيدا عن المجاملة والزيف والرياء . الى تأمل صادق لحقيقة الدين لتستخلص الحقائق التى هى بمثابة النبراس الذى يهتدى به كل من أراد أن يصبح انسانا متكاملا فى علمه وخلقه ودينه جميعا .

ان معرفة الأسباب التى تؤدى الى الرياء والطمع والحقد والحسد والغضب والحرص والبخل والاستعلاء والتجبر والتكبر ، ان معرفة الأسباب لهذه الأمراض التى تعوق النفس عن الوصول الى العدل والحق والصدق هى بمثابة نصف العلاج ، اذ أنه تشخيص للآفات والعيوب والنقائص ، ويبقى على الانسان النصف الآخر الذى يتحقق به العلاج الناجح ، والدواء الشافى وهو سهل ميسور ويتركز على العمل بأمر الله والانتهاء عما نهى عنه ، ثم التمثل بالقدوة الحسنة وسنة رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، وبذلك ينتصر الانسان على عدوه الذى بداخله .. ويتمتع بالحرية الحقة التى هى العبودية لله جميعا .

يروى عن أحد الصالحين (١) أن نفسه طلبت الجهاد ضد الأعداء ، فلما تأملها وجدها تطلبه هربا وفكاكا ، فلقد ألزم نفسه بالصبر على الشدة والفقر وعودها على الخشن فى الطعام واللباس ، وكلفها بالصلاة والأنفال وقيام الليل والصيام يوما بعد آخر ، وفرض عليها فروضا كثيرة كمعاونة البائس والفقير ، ومعاودة المريض والمحتاج ، ومساعدة اليتيم ، ونصرة المظلوم وعمل الخيرات وصالح الأفعال ٠

لقد شق على النفس كل ذلك ، وأرادت الفرار من هذه المكابدة وتلك المعاناة ، اذ أن صاحبها لم يمكنها من الاسترواح والخمول وطلب الحظوظ ، فضاقت ذرعا بكل ذلك ، وطلبت منه الغزو فى سبيل الله هربا وفرورا ، ورأت فيه حياة أفضل مما هى عليه ، وحتى ان انتهى أمرها بالموت ، فانه ينهى عذابها وتعاستها التى تعيشها مع صاحبها ، اذ الموت أهون عليها من هذا الجهاد المستمر ٠

ولما أيقن الرجل الصالح من نفسه أن طلبها للجهاد والغزو ، انما هو رياء لا يشوبه رائحة الاخلاص ، منعها عن السفر للجهاد ، وحملها بتكاليف أكبر وحاسبها على ريائها وذلك بكثرة المجاهدات وبأنواع من الاعمال الصالحات ، حتى يخرج ما بقى فيها من رياء ويقطع عليها الطريق فى المخالفات ٠٠ وبذلك سلمت نفسه من الرياء ورجعت الى السواء ٠

وعن العلاجات الناجعة لآفات النفس وعيوبها ونقائصها

---

(١) شرح تائية السلوك الى المملوك - الشيخ عبد المجيد الشرنوبى ص:٧٢

اغلاق الابواب التى يمكن أن يدخل منها العدو الرجيم ابليس اللعين ، فهو لا يستطيع أن يغوى العبد الصالح والمؤمن المكتمل الايمان ٠٠ انما يغوى العبد الجاهل والغافل والمؤمن الضعيف وناقص الايمان ٠

وفى الاثر أنه قابل داود عليه السلام ابليس الرجيم فقال له:

ـ كيف تغوى الخلق يا رجيم ؟

قال : ان الناس على أصناف ثلاثة ، مثلك وهؤلاء لا نستطيع أن نقترب منهم ، بل نحذرهم ونخشاهم ونهرب منهم ٠ وأما الصنف الثانى فهؤلاء قد ملكناهم ، وهم كالكرة نقاذفها يمينا ويسارا ، ويعبث بهم الشياطين ويجعلونهم أضحوكة لهم فلا يسلمون من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ، وأما الصنف الثالث فهم الذين نظن أننا أغويناهم فنسعى من ورائهم محرضين وفاتنين ، حتى اذا ما توهمنا أنهم أصبحوا فى أيدينا ٠٠استغفروا الله وندموا على ما فعلوا ٠٠ وبذلك يفسدون غواياتنا ويضيعوا علينا مخططاتنا ٠٠ ثم انهم يرجعون مرة أخرى الى طلب المعاصى فنعيد الكرة معهم ونعمل على اغوائهم حتى اذا تمكنا منهم استغفروا الله وتابوا اليه وهؤلاء هم الذين يشقون علينا فلا نحن ملكناهم ولا هم تابوا وأبوا ٠٠ وهؤلاء هم أكثر الخلق ٠

تربيـة الاحسـاس الفنى والجمـالى

مقدمـة : ـ

ان الأساس الذى تستهدفه أحكام الشريعة الاسلامية ، فى تطبيقاتها على جميع الأنشطة الانسانية ، العلمية والعملية الأدبية والفنية ٠٠ هو تحقيق الوسط العدل ٠٠

والوسط العدل ليس وسطا حسابيا أو معياريا أو تقريريا (١) ٠٠٠ وانما هو اعتدال وقسط لاقامة الحق والصدق ٠٠

وبهذا المعنى وردت الآيات القرآنية الكريمة ، لتحث الانسان على اتباع الصراط المستقيم ٠٠ الذى هو الخير الفاضل ٠٠

فالوسط العدل طريق عدل ضد الانحراف ٠٠ والسلبية ٠٠ والظلم ٠٠ والسفه ٠٠ وهو مفتاح الصحة النفسية ، لأنه تقويم ٠٠ واصلاح ٠٠ واقامة ضد السقوط ليكون الشىء معتدلا وقائما ومقسوطا كما استهدف الدين ٠٠ بل ومتضمنا الأمن والصحة والسلامة ٠٠ كما ورد فى قوله تعالى :

« والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ٠٠ ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » **(الفرقان : ٦٧)**

---

(١) راجع : « نحو ثقافة اسلامية » للمؤلف

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط »
(الاسراء : ٢٩)

« وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط »
(المائدة : ٤٢)

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين »
(الاعـراف : ٣١)

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا »
(البقـرة : ١٤٣)

« قال أوسطهم » (القلم:٢٨) ـ (أى افضلهم رأيا واحكمهم عقلا ـ)

فالوسط العدل اذن ٠٠ صالح للتطبيق فى الزمان والمكان ٠٠ لأنه شريعة الله للناس ٠٠ وليس مذهبا اجتهاديا ٠٠ أو فكرا عقلانيا ٠٠ أو نظرية مثالية ٠٠ انما هو خير فاضل ، يفصل بين طريق الحق والضلالة ٠٠ ويبين الحلال والحرام ٠٠ ويحض على الأمر بالمعروف ٠٠ والنهى عن المنكر ٠ ظاهرا وباطنا ٠٠ قلبا وقالبا ٠٠ شكلا وموضوعا ٠

لذلك ٠٠ فان على النشاط الفنى والأدبى ، أن يواكب الوسط الاعتدالى ٠٠ أى أن يسير جنبا الى جنب مع الوسط العدل ٠٠ فلا يعبر فيما يقدمه عن افراط أو تفريط ٠٠ ولا يمتدح قيما انحلالية ٠٠ ولا بدعا الحادية ٠٠ انما الفن الخالص هو الذى يستهدف المثل الحقة ٠٠ فيشارك الحياة الايمانية الخصبة ٠٠ وذلك عن طريق التوعية والترشيد والتذكير ٠٠ فيعطى للأفراد المفهومات الصالحة ، بما يعرضه من صور للمجتمع ٠٠

وأمثلة جادة من الحياة الطيبة ، ويستبعد كل اثارة للشهوات ..

بالجملة .. فان الفن يجب أن ينطلق مدافعا عن الخير الفاضل ضد الشر .. والظلم .. والجور . وبذلك يكون رسالة انسانية هادفة ..

ليس الفن اذن اثارة مكامن الشهوة فى القارىء .. أو السامع .. أو المشاهد ، بعرض صور الفاتنات الجميلات .. لشحن قوى الانسان الغريزية .. المعاونة على تصعيد طلب اللذات العاجلة .. لكن الفن هو عطاء .. وايثار لشحنات وجدانية . تعبر عن الخير .. والصدق .. والحق . والجمال فى كل شىء ..

ويجب الاشارة هنا ، أنه اذا نجحت بعض صور الفن الساقط لايقاظ الأهواء النفسية ، واثارة الشهوات ، فان نجاح هذا الفن مؤقت .. فما يلبث ان يصبح عبثا أو لعبا ، ولا يكتب له الاستمرار ..

أما الفن الرفيع الذى يحرك فى الانسان التمثل بالقدوة الحسنة .. ويضرب له الأمثال ، من أن الفضيلة مع المعاناة .. أفضل من الرذيلة مع سهولة الظفر بلذاتها الفانية ..

هذه الحقيقة الوجدانية تبقى فى ضمير السامع أو القارىء أو الشاهد .. بل تتخذ طابعا سلوكيا .. اذ لها قدرة على التأثير فيما يتعرض له الفرد فى حياته العامة والخاصة على السواء ..

واذا كان الفن عملا من الأعمال الذهنية ـ كما كانوا

يقولون فى عصر النهضة ، (١) الا اننا لا نستطيع أن نتصور فنا يخلو من الحب فى شكل من أشكاله ٠٠ اذ أن الحب له صور متعددة ، والصورة المثلى للحب ـ فى رأينا ـ هو الحب الالهى ٠٠ أو الحب فى سبيل الله ٠٠ أو الحب مع الله ٠٠ ولاشك أن هذا الحب وحده هو المحقق للخير الفاضل فى الدنيا والآخرة ٠٠

ولا شك أن هذا الحب فى ضمير كل انسان ٠٠ ويأمل أن يحققه ويبحث عن الطريق الذى يوصله اليه ٠٠ ولاشك أن الفن هو الموصل الجيد لهذا النوع من الحب ٠٠ اذ أنه لا يستخدم طرقا مباشرة ، أو أسلوبا من أساليب الوعظ فى التعبير عن موضوعه ٠٠ وانما يعرض المعنى الجمالى ويترك الانسان يتذوقه بأسلوبه ٠٠ وحسب استعداده النفسى ٠٠

ومن هنا يصبح الفن عاملا هاما فى التربية الأخلاقية ، يفوق فى تأثيره ٠٠ أساليب التربية الأخرى ٠٠ اذ أنه يعتمد فى تقديم الأثر الفنى ، على التمثيل والقصص ٠٠ أو الوقائع المشخصة ٠٠ بطريقة تسمح للنفس باتخاذ موقف محدد ٠٠ ازاء الأحداث المتتابعة ، أو العمل الفنى المعروض أمامها ٠٠

أهداف العمل الفنى :

لكى يتم لنا فهم الأنشطة الفنية ، يجعل بنا أن نناقش أهداف العمل كما يراه المعاصرون الغربيون ـ والتى تنبع آراؤهم من ثقافة وتقاليد معينة ٠٠

---

(١) الاستاذ تيتوس بيركارد ـ دور القنوت الجميلة فى التربية الاسلامية ـ بحث مقدم الى المؤتمر العالمى للتعليم الاسلامى ـ مكة المكرمة ـ ترجمة د٠ عثمان محمد عبد الوهاب ٠

فبعض علماء النفس الحديث ٠٠ ينظرون الى العمـل ٠٠ على أنه وسيلة لدفع الملل ، وتمضية أوقات الفراغ ٠٠ أو الترفيه عن النفس ٠٠ أو مساعدة الانسان على النزوع الى عالم الخيال ٠٠ بعيدا عن الواقع الجامد ٠٠

وبهذا التعريف ٠٠ الذى يمكن أن تتدرج تحته الأنشـطة الفنية ٠٠ يمكن فى ظنهم ـ مساعدة الانسان على تجنب الاكتئاب العنيف ٠٠ والنظر الى المستقبل بثقة وأمل ٠٠

ونحن لا نتفق معهم فى هذه النظرة الضيقـة للعمـل ٠٠ فالاسلام تتسع مضـامينه فى العمل ، لتصبح أكثر شـمولية ٠٠ وأرحب فكرا ٠٠ وأعظم غاية ٠٠

العمل فى الاسلام ليس نشـاطا هادفا ، يقصد منه ارضـاء النفس الانسـانية ٠٠ وابراز غرورهـا ٠٠ وذلك باشعارهـا بالرضا ٠٠ والفوز والنجاح ، اذ أن ذلك يعد أسلوبا منحرفا ٠٠ وسلبيا ، يجعل العمل فى مقابل لذة أو منفعة أو مصلحة فحسب ، ولا يستهدف غاية نبيلة ٠٠ ما يلبث الشخص ـ اذا لم يتحقق له المأمول والملذ ـ أن يقع فريسة للقلق ٠٠ أو أن يصطدم بالواقع المر ، فتتقاذفه أمواج الهواجس والوساوس والاكتئاب النفسى ٠٠

فلاشك أن العمل بعامة ٠٠ والفنى منه بخاصة ، انما يجب أن يستهدف فى الحقيقة مصلحة الانسان فى الدنيا والآخرة ٠٠ فهو ـ بهـذا المعنى ـ طريق عدل ٠٠ يغـذى الانسان بمشـاعر طيبة ٠٠ وأحاسيس خيرة ٠٠ فلا يوافق أمراض النفس لتحقـق اشباعا ذاتيا أو ترويحا ، أو موافقة للنفس فحسب ٠٠ انما هو

وسيلة ناجحة لتوجيه النفس ، الى اتخاذ القدوة الحسنة ·· والتمسك بالمعايير والمبادىء الخيرة ·· وسط خضم من التناقضات والصراعات التى يعيشها انسان القرن العشرين ·· وهذه الوسيلة تقدم له فى وجبة مقبولة ، بدعوة مباشرة أو غير مباشرة دون افراط أو تفريط ·· انما بطريقة تخاطب وجدانه المتعطش الى معرفة المستقبل المجهول ··

ان ما يأمله الفن هو خدمة الانسان فى مكابدته ومعاناته ·· وتصوير تلك المجاهدة فى صورة تنتهى دائما الى السعادة والأمل والنجاح ·· ما دام هناك عملا خالصا ، وفكرا متجددا واستقامة ·· وعدلا فى النفس ·· وعدلا مع الاخرين ·· فاذا ما نقلنا مثلا صورة من صور المجاهدين كقدوة ·· أو بعض المخلصين العاملين كنموذج للكفاح ، فان تأثير ذلك سيكون قويا ومثمرا ·· اذ أن المشاهد والسامع أو القارىء سيجد حلاوة هذا الكفاح فى نفسه ·· وسيقوده حتما الى محاكاته مهما لاقى من عنت وجهد ·· وهذا من ناحية اخرى يحقق رسالة الدين ··

فالعمل بهذا المعنى ، لا يقتصر على ضروب النشاط الفنى والذهنى الهادفة ·· اذ أنه هو أيضا يحدد منهجا أساسيا يسعى لتطبيقه ·· ويرسم خريطة للعمل تقوم على دعامتين :

١ ـ الأمر بالمعروف ··

٢ ـ النهى عن المنكر ··

فاذا تم لنا هذا الربط ·· سارت الأعمال الفنية ، مواكبة

لأعمـال الخير والاحسان والايثـار ٠٠ مستهدفة نفع الناس ٠٠ مرتبطة بقضاء مصالحهم ٠٠

كما أن هذا الربط ، يساعد على ادخال عناصر فنية ، تؤثر على وجدانيات السامع أو المشاهد أو القارىء ، مثل كظم الغيظ والصبـر على الأذى ٠٠ والحلـم ٠٠ والتسـامح ٠٠ والايثـار ٠٠ والمحبـة فى الله ٠٠ الى غير ذلك من العنـاصر الأصيلة فى الأخلاق الاسلامية ٠٠

والعمل الفنى ـ بشتى صوره ـ اذا كان باعثا على مؤازرة الاعتداء ٠٠ ومهادنة العدوان ٠٠ موافقـا لسـفك الدمـاء ٠٠ مدافعا عن الثأر والانتقام ، فانه يزيد المشاهد ٠٠ والقارىء ٠٠ والسـامع تعاسـة وشـقاء ٠٠ ولو بدا أنه يقدم ذلك فى أطباق شهية ، الا أنها تحمل السم والغم ٠٠ والدمار ، كما أن هذا العمل فى آخر الأمر ، يظلم النـاس أكثر مما يسعدهم ٠٠ اذ يمسـك بمعول لهدم القيـم الطيبة ، بدلا من المشـاركة فى اقامة الحـق والعدل والخير والحب ومكارم الأخـلاق ٠٠

العمل الفنى والأخـلاق : ـ

لذلك ٠٠ فاننا نرى وجوب ارتباط العمل الفنى بالأخـلاق ٠٠ « فتغربل » النظريـات النفسية ٠٠ والأخـلاقية الحـديثة ، التى تفصل بين ضروب النشاط ٠٠ والايمان ٠٠ والتى تجعل الانسان مجرد كتاب مفتوح ٠٠ اذا فتحته قرأت كل شىء عنه ٠٠ واذا أغلقته انتهت الرؤيـة ٠٠

تلك النزعات الحديثة ، تزعم أن هناك ما يسمى بالحتمية النفسية لدى الانسان ·· فجميع ضروب السلوك ·· انما ناتجة من عمليات لاشعورية قديمة ·· هى التى تحرك الانسان وتمضى به الى اختيار هذا السلوك ·· أو ذاك ·· ولا شىء يأتى للانسان من الخارج ·· فلا اله الله ولا دين ولا ايمان بمغيبات ··

وهذه النظريات الغربية الحديثة ·· تقوم بتقليدها عن وعى وغير وعى ، ونستورد أفكارها وأعمالها الفنية ــ التى تبهرنا ــ ونقدمها لأبنائنا ، دون أن نقدر حجم الأضرار التى قد تسببها عند انتشارها ، ومحاكاتها وتقليدها بين شبابنا ··

ولو أننا تمهلنا قليلا لرفضناها رفضا قاطعا ·· اذ أن الفن وسيلة طيعة ، يمكن أن تشارك كل بيت حياته ·· فهو فرد فى عائلة لا يمكن استبعاده ، أو التخلص منه بسهولة ··

لذلك فاننا من الأفضل أن نختار هذا الفرد الذى يدخل بيوتنا اختيارا واعيا ·· صادقا ·· سليما ·· وهذه هى وظيفة المجتمع الاسلامى ·· اذ أن مهمة الاختيار لابد أن تكون فى أيدى الصفوة المختارة من العلماء ، الذين ينشدون العمل الصالح فى الدنيا والآخرة ··

وبذلك ·· يمكن أن ننبذ الفن الرخيص ، الذى ليس له من رسالة الا تحقيق الربح والمنفعة لأصحابه ·· غير عابىء بالأضرار التى تلحق بأفراد المجتمع ·· فتدمر أخلاقياته ومثله العليا ··

والفن هو لغة خاصة ·· بل أن لكل فن لغة خاصة لا ينطق

بها غير أصحابها — كمـا أنه يستحيل ترجمـة لغة الفن الى لغـة أخرى ·· لأن لكل شعب ثقافته الفنية ·· ومهما قيل من أنه من الممكن استجلاب الفنون ·· ومهما عرفنا تفاصيلها ووقائعها ·· فاننا لا نستطيع تفهمها ·· كما يفهمها أهلها ··

فالعمل الفني اذن ·· لغة لهـا معان ·· ولا يمكن استيعاب الفن اذا لم نفهم هذه المعـاني ·· واذا لم تكن هـذه المعاني لهـا مقابل في ثقافتنا ·· وفي لغتنا ·· فانه يتعذر فهمها ··

كما أن هناك من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ ·· اذ أن الألفاظ قاصرة عن وعي الثقافة الممتدة عبر آلاف السنين ·· وهذه المعاني الفنية المقصودة ، تظهر واضحة في فن النحـت والتصوير مثلا ··

فالنقوش العـربية ·· وفـن الزخرفة الاسـلامي ·· لهـا مدلولات لا يفهمها الا أهلها ·· وتبدو لغيرهم عجيبة ·· وربمـا يدعي بعضهم أنها لا تعبـر عن شيء ·· أو انها بدائيـة أو غير ناضجة ·· وليس في هذا النقد صحة ·· اذ أن الحكم صادر عن أصحاب ثقافة فنية مغايرة ، لهم تذوق خاص للفنون والآداب ··

ونحن نود الاشارة الى أن المعاني الفنية التي تفهمها الشعوب ليست واحدة ، وأن مختلف الانشطة الفنية الاسلامية ، تقوم على دعائم جد مختلفة عن غيرها من الأمم ·· بل أنه يمكن القـول أن لها أهداف وغايات مغايرة لما يهدف اليه الغربيون ·

العلم والنشاط الفنى : ـ

والواقع أن الأئمة فى الاسلام ‥ يرون أن مختلف الأنشطة الانسانية ، تترسم غاية يجب ألا تشذ عنها ‥ وهى بمثابة السراج الذى يضىء الطريق أمام أى عمل من الاعمال ‥ وهى المجاهدة فى اعلاء كلمة الحق تعالى ‥ وتتلخص فى جهاد النفس ضد التبطل ٠ والسلبية ٠ والضياع ٠ واللهو ٠ والعبث ٠

وبمعنى آخر ، اعتبار أى نشاط انسانى ‥ عبادة لله بشكل أو بآخر ‥ فالعمل الفنى يعد داخل هذا المفهوم ، رسالة انسانية تفوق فى أهدافها جميع الغايات الحسية ‥ والمادية ‥ اذ أن لها ثواب ‥ ليس فى الدنيا فحسب ‥ بل فى الآخرة أيضا ‥ اذ يقترن النشاط الانسانى مع حكمة الله ‥ وحكمة خلق الانسان ‥ كما ورد عن الله تعالى محددة فى الاية الكريمة :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »

(الذاريات : ٥٦)

فالعمل اذن عبادة لله ‥ واذا خرج عن هدف النص القرآنى الصريح أصبح لهوا وعبثا ‥ كما أن النفس الانسانية ـ خلق الله فى جبلاتها من الضعف ‥ والشح ‥ والشهوة ‥ والبخل ‥ فاذا تركت دون ارشاد الهى أو توجيه ربانى ، استحبت الراحة ، ومالت الى الهوى ، واستعذبت الخمول ، وتقاعدت عن الجد ، واستطابت الشهوات ‥

فالنشاط الفنى والأدبى اذن ، (١) انما يستهدف غاية عظيمة ومعلومة فى التشريع الاسلامى ‥ ألا وهى المجاهدة ‥

---

(١) منهج الفن الاسلامى ـ محمد قطب دار الشروق ص ١٢ ومابعدها

والمجاهدة بهذا المعنى سعى للبـر والخير ٠٠ وهى ضد البـلادة والركون للأهواء وموافقة الحظوظ ٠٠ اذ أنها مجاهدة فى الله ٠٠ ولله ٠٠ وفى سبيل الله ٠٠ لقوله تعالى :

« وأن ليس للانسان الا ما سعى » **(النجم : ٣٩)**

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما
(النساء : ٩٥)

« ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه »
(العنكبوت : ٦)

« لا يستـوى القاعـدون من المؤمنـين غـير أولى الضـرر والمجاهدون فى سبيل الله » **(النساء : ٩٥)**

فالنشاط الانسانى ٠٠ سواء كان فنيا ٠٠ أو عمليا ٠٠ أو أدبيا جهـاد فى الله ٠٠ ولله ٠٠ وفى سبيل الله ٠٠ ويؤيد ذلك بعض أئمة الاسلام فى قولهم :

« من زاد عليك فى العمل ٠٠ زاد عليك فى الخلق »

كمـا أنه لابد من أن يربط العلم بالعمـل ٠٠ اذ أن العلم الذى لا يصاحبه عمل ٠٠ ما هو الا ظن ووهم ٠٠ أما اذا صاحب العلم عملا ٠٠ كان جهادا ، لأنه رسالة ايجابية هادفة ٠٠ مثمرة ٠٠ كما أراد الله أن تكون ٠٠

كما أن العلم الذى لا يهدف الى الخير ، وما يتبعه من تقـدم فى الأدوات والمستحدثات ، من أجل تيسير الحيـاة ٠٠ وخـدمة الناس ، هذا العلم المادى ٠٠ غير أخـلاقى ، ومن ثم فهو سـلوك

عدوانى ، وطريق ينحرف بصاحبه الى الهلاك والضياع ٠٠ وهذا العلم لا نفع منه ، مثله كمثل الذى يحمل الماء بيديه ٠٠ مع وجود جرة فارغة بجواره ٠٠ فهو لم يستفد من الجره ، ولم يستفد غيره بالماء ٠٠ وبالمثل ذلك الذى يحمل العلم ٠٠ ولم يربطه بالعمل ٠٠ولذلك كان الامام مالك يقول :

« لا اشتغل الا بما تحته عمل »

فاذا طبقنا هذه القاعدة على النشاط الفنى ٠٠ فان هذا النشاط يكون مقصودا به تحقيق رسالة انسانية صادقة ، وبذلك يساعد الفن على اعطاء معنى أجمل للحياة ، وتأمين الانسان ضد الخوف والقلق ٠٠ وتخليصه من غوائل التشكك والانحراف والريبة والغرور ٠٠

بل أن الفن بهذا المعنى يساعد على تربية الذوق الرفيع ، والفهم الرشيد ، بما يعرضه من أسباب التقدم الهائل فى شتى فروع الحياة ، مما يثرى من معرفتنا ويغذى عقولنا ٠٠

والفن على هذا النحو ، يصبح بابا لوقاية الانسان من التحلل والتفكك والضياع ٠٠

ولاشك أن العمل الصالح ٠٠ هو الذى يرمى الى الخير والنفع للناس جميعا ٠٠ وليس هو العمل الفاسد الذى يعتقد صاحبه أنه أرضى به بعض القلوب المريضة ٠٠ والنفوس المنحرفة ٠٠ أوازاد من غروره بنفسه ٠٠ فرأى المفاسد أعمالا جليلة ٠٠ وأفعالا عظيمة ٠٠ تصديقا لقوله تعالى :

« أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا »
(فاطر : ٨)

الفن والتربية النفسية

أما وقد عرضنا للعمل ، وغاياته ، فيجب أن نقرر ضرورة ربط العمل بالنواحي التربوية ·· والعمل الفني بصفة خاصة يجب أن يقرن بالتربية النفسية ··

والتربية النفسية دعامتها الكبرى الثقة بالله ·· أو هى الأمل فى الله ·· والرجاء فيه تعالى ، وهذا الرجاء ، هو الباعث الحق على السعى والاتقان والاجتهاد فى الأعمال والأفعال ··

فلا شك أن الذى يأمل فى الله ·· ويسعى بالله ·· عليه أن يعمل ويخلص فى عمله ·· والا كان الرجاء مجرد أمانى وأحلام وأوهام ، لاطائل تحتها ··

الخير الفاضل فى الفن :

ونحن نتساءل ·· كيف يتسنى تطبيق الخير الفاضل فى مجالات النشاط الفنى ؟ ··

انه من المعروف طبيا ·· أن الجسم لا يعالج الا بأضداد الأشياء ، كأن يكون به برودة فيعالج بالحرارة ·· أو يكون به به حرارة فيعالج بالبرودة ·· كذلك حال النفس الانسانية ·· انما لا تعالج الا بأضدادها ·· أى بمخالفة أهوائها وحظوظها ·· وحاجاتها التى لا تشبع ··

فاذا كان نزوع النفس مثلا الى الغرور ·· كان العلاج الناجع

لها هو التواضع ٠٠ واذا مالت النفس الى الهوى ٠٠ كان علاجها الاستقامة ، واذا طلبت التسلط والتجبر ٠٠ كان شفاؤها بالتزهد فى أمور الدنيا الفانية ٠٠ واذا انحرفت الى الانانية ٠٠ عولجت بالايثار ٠٠ وهكذا يستمر علاج النفس بأضدادها حتى تتخلص من الآفات والنقائص ، وينصلح حالها ، وترجع عن افراطها ٠٠ وتفريطها ٠٠

التأليف الفنى : ـ

ليست الأضداد معالجة خيالية لأمراض النفس ، انما هى طريقا عمليا يمكن به تغذية النشاط الفنى فى مختلف صوره ، بمعنى أن نعرض لشخصية بها آفة من الآفات ٠٠ ثم تسرد الحوادث لنبين أخيرا أن الطريق الوحيد الموصل الى سعادة الانسان ٠٠ انما يكمن فى مخالفة أهواء النفس ٠٠ وعلاج امراضها بأضدادها ٠٠

والصورة الفنية التى تعرض كفيلم سينمائى ٠٠ أو قصة روائية ٠٠ يمكن أن تستعير هذه المفهومات الاسلامية ، لتضعها كعمد أساسية فى تسلسل الأحداث ٠٠ مع اضافة وسائل التشويق اللآزمة للسامع أو القارىء أو المشاهد ٠٠

واذا كان على مريض الجسم معاناة مرارة الدواء ٠٠ وتحمل مبضع الجراح ، والصبر على المشتهيات ليستقيم حال بدنه ٠٠ ويشفى من علله ٠٠ فكذلك الحال بالنسبة لنموذج الشخصية المريضة ، المعروضة كقصة سينمائية وروائية ٠٠ فان مغالبة النفس ومنازعة الشيطان ٠٠ وذلك بكثرة المجاهدات والرياضة النفسية القائمة على الصبر على الأذى ٠٠ والاعتداء ٠٠

والمكابدات التى يعانيها الفرد للتخلص من الآفات والحظوظ النفسية وغواية الشيطان ·· ثم ينتهى الأمر بالسكينة ·· وبها ينصلح حاله ·· ويشفى من أسقامه ··

وعلم النفس الاسلامى ينظر الى المرض النفسى نظرة الفاحص المدقق (١) · ·· فيرى أن تلك الأمراض ثمرة فجة ·· ونتاج طبيعى للجهل ونقص التربية ··

ومعنى ذلك أن صورة الشخصية اللاأخلاقية التى يعرضها المؤلف ، يجب أن تبصر بالطريق المستقيم ، عن طريق بعض الابتلاءات أو الامتحانات أو الاختبارات التى يخوضها ·· فتتشفف نفسه ·· ويقوى ميله الى الحق والخير ·· بعد أن سار شوطا فى طريق الغواية والشر والرذيلة ··

كما يجب أن يصور لنا المؤلف أن شخصية المنافق ·· أو الفاسق أو المرائى ·· لابد أن تنتهى نهاية سيئة فى آخر الأمر ، والى طريق مسدود ·· فيه يفكر صاحبها فى التوبة ·· ويجد أن لا ملجأ من الله الا اليه ·· ويجد أن كل النجاحات الزائفة انتهت بفشل دائم ·· وأن النجاح الذى عاشته هذه الشخصية ·· انما هو اختبار وفتنة ·· وليس الا نجاح متوهم ··

كما يجب أن يصور لنا المؤلف أو الفنان ·· أن هناك اختلافا بين مريض الجسم ومريض النفس ·· ذلك لأن مريض الجسم اذا تراكمت عليه العلل والأوجاع ، انتهى به المرض آخر الأمر الى الموت ··

---

(١) راجع للمزيد ـ « نحو علم نفس اسلامى » للمؤلف

أما الشخصية صاحبة الآفات النفسية ·· فانه اذا تعذر علاجها ، ولم ينصلح حالها ·· فان صاحبها لا يتخلص من آفاته وأمراضه بالموت ، اذ أن أمراض النفس تدوم فى الدنيا والآخرة ··

وهذه المعالجات الفنية للقصص بهذه الصورة ، تنبع من الوسط العدل الاسلامى وهو صالح للتطبيق فى جميع الأنشطة الانسانية ·· بل وفى كل زمان ومكان ·· لأنه خير فاضل ·· وأقرب الى الاعتدال والقصد ·· وأبعد عن الغلو ··

فاذا تصدى الفن الى تطبيق قاعدة الخير الفاضل، أعطى بذلك العمل نموذجا للحكيم الذى يتوجب على المشاهد أو السامع أو القارىء، أن يجعله قدوة له فى حياته الواقعية ·· ونبراسا يستضىء به فى سلوكه اليومى ·· وهو يختلف بذلك عن شخصية « السوبرمان » الخيالية ، والتى تشجع على العدوان وترمى الى سفك الدماء ، وتخلق فى النفس جوا مثيرا للتناقضات ··

أما شخصية الحكيم ·· فهى شخصية مستقيمة ، ومتوازنة ، تخالف دوافع النفس الغريزية ، وتتحكم فى القوى الغضبية والشهوية عن طريق محاكاة القوى الربانية ، فترى أن الشجاعة ليست فى غلبة الخصوم ·· وانما الشجاعة فى كظم الغيظ مع القدرة على الاعتداء ··

وليس هذا الوسط الذى يطبقه الحكيم ·· وسطا حسابيا ·· أو ماديا ·· انما هو عدل مأخوذ عن العدل الالهى ، ومعرفة مستقاة من العلم الربانى ··

شخصية الحكـيم : ـ

شخصية الحكيم اذن لاتتكلف الأعمال والأفعال والاحداث ، وانما تسيرها أنوار الله ‥ وأوامر الله ‥ وحكم الله ‥

والحكيم هنا يمكن أن يكون مجاهـدا ‥ أو امـاما ‥ أو رجـل علم ‥ يتقدم بمقتضى الفطـرة السليمة ‥ ولا يتكلف ‥ ولا يصطنع الأفعال ‥ ولا يغش ولايخدع للوصول الى منافع أو لذات ‥ انما هو شخصية تمتاز بالسكينة ‥ والطمـأنينة ‥ فهو صاحب خير كثير ‥ كما ورد فى قوله تعالى :

« يؤتى الحكمة من يشـاء ‥ ومن يؤت الحكمة فقـد أوتى خيراً كثيراً » (البقرة : ٢٦٩)

فنحن نريد هنا باختيـار شخصية الحكيم ‥ أن نسـتخدم الفن كوسيلة لتحقيق الغايات النبيلة ، لنرفع من قيمة الانسـان الى أعلى الدرجـات ، بدلا من أن نهبط به الى أسفل سافلين ‥ فنتجنب محاكاة الفنون الرخيصة ، ونستبعد الأعمال غير الهادفة ‥ ونرفض اسـتيراد العـروض الفنية اللاأخـلاقية ‥ لنضع مكانها فنا متساميا ‥ عريقا ‥ نتشبه فيه ببديع خلق الله ‥ ونقتدى فيه بأمر الله ‥ ونتتبع خطى الرسـول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ والأئمة الصالحين ‥

العلم والفـن : ـ

ولانشك فى أنه اذا طبق الانسان الوسط العدل على نفسه ،

ونصح به غيره ، فان ذلك يعد احياء للتراث الاسلامى ، والفكر الاسلامى ·· بل يعد بمثابة حد قاطع لغرور الصناعات الفنية التى تعتمد على الاثارة ·· وايقاظ الغرائز ·· فبالوسط العدل ، يمكن الوصول الى أعلى درجات التقدم ، فى الفنون والآداب ·· وان هذا الوسط مؤسس على العلم لقوله تعالى :

« شهد الله أن لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » (آل عمران : ١٨)

والقسط فى الآية الكريمة هو الخير الفاضل ، وهو الوسط العدل الذى يفصل بين الحلال والحرام ·· والحق والباطل ، فلا يخلط بين الصدق والكذب ·· أو بين العلم الظنى والعلم الحق ··

والفنان الأصيل يصور الوقائع ، ويجمل الحياة ، وينقل بديع صنع الله من مخلوقات وألوان وجمادات ·· لكنه لا يدعى لنفسه أنه خالقها ·· ولا يفترى على الله كذبا ·· انما يقول ان فى هذه الصورة الجميلة آيات من الابداع العبقرى ·· الذى لا يستطيعه أى انسان ·· مهما أوتى من العلم والمواهب أن يأتى بمثلها انها صور من بدائع خلق الله ··

والانسان الفنان انما يحاكى الطبيعة ·· ويقلدها ·· ويجملها ، لكنه لا يخلق جديدا ، ولا ينشأ عملا فنيا من العدم ·· انما الفنان يقلد الطبيعة التى خلقها الله فى أحسن تكوين ·· وينقلها ــ الى المتذوق أو المشاهد أو المستمع ــ بحسه المرهف وشفافيته ·· فى أجمل صورة ·· وأتم شكل ··

القيم الفنية الاسـلامية : ـ

كما أشـرنا من قبل ، يجب غربلـة المفاهيم الفنيـة ، التى نستوردها من الدول التى سبقتنا فى الصناعات والأنشطة الفنية . وأن نرسم لأنفسنا منهاجا لا نشذ عنه ابدا ․․ فنقبل ما يتمشى مع مثلنا وأفكارنا ․․ وعقائدنا ․․ ونرفض باصرار ما يتنافى مع قيمنا الروحية وأخلاقنا الاسلامية ․․

وعلى المهتمين بالفنون المختلفة ․․ أن يتبينوا سلامة الطريق الى تغذية النفس الانسانية بالخير والفضيلة ․․ ولن يتم ذلـك الا بتعميـق المفاهيم ․․ وغـرس مبادىء الاخـلاق ، والتبصير بالطرق المختلفة ، لعلاج آفات النفس ، وتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية ․․ وذلـك عن طريق الأمر بالمعـروف ․․ والنهى عن عن المنكر ․․ وتنمية الذوق السليم القائم على الصدق ․․ الذى يساعد على الفهم الرشيد والحكم السديد على ما يقدم من فنون ․․

والسبيل الى ذلك ․․ انما يكون بالتربية الايمانية الصحيحة ․․ ولاشك أن وسـائل الاعـلام ، تستطيع أن تلعب دورا خطيرا فى هذا المجـال ، فيمكنها عن طريق غرس العـادات الصالحة فى نفوس السامعين والقراء والمشاهدين ․․ وربط عـرى المحبـة والألفـة بين الناس ، وتشجيع روح البـذل والعطـاء ، ويمكن التمثيل لذلـك بالقصص القـرآنى ، وترجمة حيـاة الأنبيـاء والصديقين والصالحين والمجاهدين ․․

كما يمكن من ناحية أخرى عرض مثالب النفس ․ والطرق التى يوقع بها الشيطان فرائسه من بنى الانسان ․․ ثم بيـان العلاجـات الناجعة لصـده وتجنبه ․․ كمـا أن على المشتغلـين

بالأنشطة الدعائية والفنية ، العمل على تشجيع عرض الفنـون الرفيعة ٠٠ فى اطار خطط مدروسة ، لها أهداف محددة كمناهج عامة ، يقصـد منها تربيـة النفـوس على حـب الخير والحـق والجمـال ٠٠

وهذا بطبيعة الحال ٠٠ يساعد مساعدة ايجابية على التخلص من السلبية ٠٠ والقضاء على التوتر والقلق واليأس ، الذى اذا ترك يسبب الانحـراف أو يصيب النفس بالتلف والضيـاع ٠٠ اذ أن الفراغ النفسى هو الطـريق المباشر فى عصرنا الحـالى للفساد والانحلال ٠٠

تأثير التحليل النفسى على الفـن : ـ

والواقع ان الفن الغربى ، الذى يقدم لنا على أنه يعبر عن الحضارة والتقـدم الانسـانى ٠٠ يدس السم فى فم الانسـان المسلم ، دون أن يـدرى ! ! اذ يعتمد على الـوصف والتشخيص الأوديبى ٠٠ الذى يرى السلوك الانسانى الانحرافى هو الطابع المميز للسلوك الانسانى ويعتمد على نظريات عـلم النفس الفرويدى باعتبـارها تؤكد على حقيقة من حقـائق النفس الانسـانية ٠٠

يزعم فرويد وتلامـذته أن هنـاك حتمية نفسية ٠٠ وأن جميع الأفراد تسيرهم الشهوات وطلب اللذات التى لا يستطيعون عنها فكاكا ٠٠ كما أن الرجل الطيب ـ كما يظهر فى القصص السينمائية ٠٠ والبرامج التليفزيونية ـ انما هو شخص مريض نفسيا ٠٠ وأنه بركـان يغلى من الداخل ٠٠ فاذا صـادف أى ظروف غير موافقة لأهـوائه ، انقلب وحشـا مفترسا يهـاجم بلا رحمـة ٠٠

كل ذلك يدفعنا الى القول أن الفن بهذه الصورة ، يواكب مدارس التحليل النفسى الالحادية ، التى تدين بوجودها الى علم النفس الحيوانى ، وشتان ما بين الانسان والحيوان ..

الفنان الحق : -

وفى تصورنا أن مهمة الفنان أو الأديب ، لها دور أساسى فى تنمية الوعى لدى الجمهور .. وغرس المبادىء الأخلاقية .. والمثل العليا فى الأفراد .. لذلك فان مهمة الأديب .. أو الفنان ليست مهمة سهلة .. اذ أنه بمثابة القدوة ..

لذلك يتوجب على الفنان أو الأديب ، أن يكون سائرا فى طريق الحق والاستقامة .. مخلصا للأسس التربوية الاسلامية .. يعرف أنه يؤدى رسالة انسانية لا يشذ عنها أبدا .. فلا يميل الى منفعة شخصية .. أو شهرة ذاتية سهلة .. ، لتحقيق نجاح رخيص .. وانما يستهدف فى عمله وجه الله تعالى .. فيتخير الطريق المستقيم ، المؤدى الى الحكمة العليا ، مؤثرا الفن النظيف الخالى من شوائب الاثارة للشهوات .. وهو فى ذلك يعلم .. ويربى ذوق المشاهد أو القارىء أو السامع ، فيمده بالصور المشرقة بدلا من تركه فريسة للقلق والضياع والتوجس .. كما أن عليه أن يملأ قلبه بالأمن .. والطمأنينة بدلا من موافقة الأهواء .. وتعرية الناس وكشف أسرارهم وعيوبهم .. أو ابراز الشخصيات الوهمية المنحرفة .. كما نجد ذلك فى بعض البرامج الساقطة على أنها تعبير صادق وحقيقى عن شخصية فنية حقيقية ..

فالفنان فى تصورنا مثله مثل المربى الأخلاقى الفاضل ..

ذا تجربة ذوقية يستهدف المثل العليا الجمالية ، عن طريق تغذية النفوس والعقول بالحقائق الوجدانية ..

ومن هنا يمكن أن يؤثر الفنان فى الآخرين لاكتساب الفضائل وتجنب الرذائل .. وتعويد الأفراد على المحبة بدل الكراهية .. وعلى البذل بدل الأنانية ، والألفة بدل الرفض والتمرد .. وعلى الصبر .. بدل الرعونة والحمق .. والاندفاع .. والتهور .. وعلى الايمان بدلا من الشك والريبة (١) ..

كما يجب التركيز على أن الفنون لا يمكن أن تكون أشكالا وصورا ومظاهر خارجية فحسب .. وانما لابد أن يكون لها آثارا بعيدة فى أعماق الانسان .. تلعب دورا أساسيا فى تغيير سلوكه واتجاهاته ..

لذلك فلكى يتكامل العمل الفنى .. لابد ان يبتعد عن السطحية والرياء والغرور ، والتكبر والاستعلاء والاستهزاء ، والسخرية والألفاظ الساقطة والبذيئة .. وغير ذلك من الافات والنقائص الغير أخلاقية ..

وعلى الفنان أن يسبر غور الشخصية التى يقدمها للجمهور ، ويصف سلوكها ويجتهد فى فهمها ظاهرا وباطنا .. ثم يبدأ فى عرض العلاج الناجع فى عمله الفنى ..

وكما سبق القول ، يكون العلاج عن طريق غرس القوى

---

(١) منهج الفن الاسلامى — محمد قطب — دار الشروق ص ٢٥ ومابعدها

الايمانية ، وتدعيم الصلة بينه وبين الله ٠٠ والتركيز على أن التوبة تغفــر الذنوب جميعــا ٠٠ وبذلــك تنطبع فى نفــوس المشاهدين أو القارئين صورة الاســلام الحقة ٠٠ المؤسسة على المحبة والرحمة والعفو والتسامح ٠٠

أعمال فنية من الاسلام : ـ

لا يهتم الاسلام بالسلوك الظاهرى فحسب ، اذ ربما يكــون المظهر الخارجى خداعا ٠٠ وصاحبه مرائيا أو منافقا ٠٠لذلك فان التركيز على المظهر لا يوصل الى فهم حقيقة الانسان ٠٠ بل على العكس من ذلك ٠٠ ربما يقود الفكر الى بحر لا شاطىء له ٠٠ فيستنتج نتائج خاطئة ، تجعل المشاهد فى حيرة مما يقــرأه أو يشاهده أو يسمعه ٠٠ أو ربما ينقله هذا التحليل الخاطىء الى عالم من الوهم والخيال ٠٠ بعيدا عن الواقع والحق ٠٠

ومثال ذلك اننا اذا عرضنا مثلا لشخصية ناجحة ظاهــريا صاحبها ثــرى ٠٠ وله نفوذ وجــاه عريض ٠٠ مسلكه ينم على السواء والتكامل ، يتظاهر أنه يتبع الأحكام ٠٠ ويحترم القواعد الشرعية ٠٠ ويؤدى التكاليف المقررة ، الا أنه فى الوقت نفسه حريص على تحقيــق مــآرب شخصيــة ٠٠ شره تغلبه أنانيتــه الفردية ٠٠

فاذا كان ظاهر هذا الشخص الاعتدال والاستقامة والورع ٠٠ فانه يبطن اخلاق الشيطان ، فطاعتــه تظاهرا ، واخــلاصه رياء ، وعبادته استظهار للطاعــات ، ولا يمكن بســهولة كشف أغوار هذه الشخصية واستجلاء أمراضها الا بمنهج اسلامى ٠٠ وذلك لخبث معدنها ٠٠

والفنان .. يستطيع أن يكشف عن هــذه الشخصية ، اذا امتحــن صاحبها عند الشــدائد ، أو اذا عالجهــا من النــاحية الأخلاقية .. فيكتشــف أن صاحبها يصلى ويصــوم .. ولكنه يغتــاب النــاس .. أو يثــور عنــدما لا يثنــون على عطائه ، ويمتدحون تقواه ، أو يقومون لخدمته ..

كما يمكن للفنــان على هــذا النحو .. تطعيم المؤلفــات الفنية بالفكر المتجدد ، عن طريق رسم شخصيات مختلفة ، تمثل الطبائع الانســانية الأربع المختلفة ، من دمــوية وصفراويــة وبلغمية وسوداوية ، ويمكن وصف هذه الشخصيات .. وتحليل أنماطها وسبر أغوار سلوكها .. ونقدها .. كما يمكن عرضها عرضا مختلفا عما نــراه لدى الادباء والفنانين الغــربيين .. وذلك فى اطار المنهــاج الاسلامى ..

بمعنى أن الفنــان الغربى يفصل بين الحيــاة المدنية .. والحياة الدينية بحكم ثقافته وبيئته .. أما الفنان الاسلامى .. فلا يرى فواصل بين الحياة الدينية والأخــلاقية .. وبين الانشطة الماديه .. ومحددات السلوك الانسانى (١) . حيث ان الغايــة الاخيرة التى يستهدفها هو التوحيــد الالهى .. والتوحيد هــو العمل فى طريق الله ...

أمثلة من القصص القرآنى والاسلامى : —

ويمكن للفنان الاســلامى التعبير عن أهــدافه مستعينــــا بالقصص القــرآنى .. وترجمة حياة الأنبياء والصــديقـــين

راجع « نحو منهج علمى اسلامى » للمؤلف — نحو منهج فنى اسلامى —

والصالحين ٠٠ على ألا يخرج عن الاطار الأخلاقى ٠٠ والمنهاج الاسلامى ٠٠ فلا ينحرف فى رسم شخصية اسلامية يجنح بها بعيدا عن الحق الى مستوى الابتذال أو التجريح ٠٠ مما يفقد هيبتها واحترامها لدى جمهور المشاهدين أو السامعين أو القراء ٠٠

ومن هذا القصص القرآنى على سبيل المثال لا الحصر :

١ ــ قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ « بلقيس » ٠٠ التى اعتقدت غرورا أنها تملك ما لايملكه أحد ٠٠ ثم أحضر عرشها أحد الصالحين ٠٠ عنده بعضا من العلم الالهى ٠٠ ودخلت الملكة الى قصر سليمان ــ عليه السلام ــ وظنت عند دخولها الى القصر ــ نظرا لاعجازه الفنى ــ أن تحتها بحيرة فكشفت عن ساقيها ٠٠ ثم اتضح لها أنه من البلور الخالص ٠٠ وأسلمت لسليمان ــ عليه السلام ــ ورجعت عن غرورها ٠٠ وعرفت طريق الحق ٠٠

٢ ــ قصة يوسف عليه السلام مع اخوته ٠٠ وكظم يعقوب ــ عليه السلام ــ لغيظه ، وصبره الجميل ٠٠ حتى ابيضت عيناه على فقد ابنه ٠٠ واتجاهه الى الله وحده ليبث حزنه وشكواه اليه ٠٠ ثم انتصار يوسف عليه السلام ٠٠ وعفوه وتسامحه ٠٠ وطلب المغفرة لاخوته الجاهلين مع قدرته على البطش والانتقام ٠٠

ووصول يوسف ــ عليه السلام ــ الى الوزارة ــ وحمل مفاتيح خزائن الملك ٠٠ والعلم اللدنى الذى حظى به فى تفسير الرؤى ٠٠

ثم رجوعه غانمـا .. ظافـرا .. الى أسـرته .. ومعجـزة عودة بصر يعقـوب ـ عليه السـلام ـ عنـد رد يوسف ـ عليه السلام ـ اليه ...

٣ ـ قصة موسى ـ عليه السـلام ـ الذى تربى فى بيت فرعون مصـر ، الذى ادعى الالوهية ـ وكيف شـب موسى ـ عليه السلام ـ عدوا له ، لنصرة دين الله ..

ثم المعجزات التى أيـد بها الله رسوله موسى ـ عليه السلام .. وايمان أكابر السـحرة بدين الله الذى دعـا موسى ـ عليه السلام ـ قومه اليه .. وتفضيلهم للعـذاب والقتل من فرعون على الاقرار بأنه اله ..

ويمكن ترجمة حياة الصحابة وكبار المجاهدين .. وعرضها داخل اطار المنهاج الاسلامى .. وبذلك يمكن أن نقـدم لجمهور الأمة الاسلامية أعمالا فنية متجددة .. تخدم رسالة الاسلام فى كل مكـان ..

أثر المسجد فى العملية التربوية

لا تتكون شخصية الطفل من فراغ ، اذا أنه لو ترك دون تربية أو توجيه أو تأديب ، لتلقاه أصحاب السوء ، وتلقفته الغواية وقادته الى الانحراف أو الجريمة وساء ذلك من مصير ..

ولكى يتسنى للمربين والمشتغلين بالوعظ والارشاد النجاح والتوفيق فى مهمتهم الرائدة العظيمة ، كان لزاما أن يجتذبوا البراعم الصغيرة الى البيئات الصالحة كيما تنبت نباتا حسنا ..

وليس هناك مكان أشرف ولا أفضل من المسجد مستقرا ومقاما ، اذ يتوفر به جميع الشروط المطلوبة للتنشئة الاجتماعية والنفسية السليمة (١) ، ذلك أن المسجد ، بما تشتمل عليه جنباته من هدوء وخشوع ، ينقل هذه السمات الى وجدانيات الطفل والشاب والكهل ، فتدخل الى أنفسهم وشائج المحبة ، والى قلوبهم الأمن والسكينة والى عقولهم الأمل والثقة فى الله تعالى ..

لكنا نتساءل هل يعد المسجد فى وقتنا الحاضر لجذب انتباه الطفل اليه ، باعتباره المكان المناسب لمقامه بعد البيت والمدرسة ؟ ! ! أم هو يعد فحسب لاقامة الفرائض الخمس المقررة ؟ ! !

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن : الى أى حد يمكن أن نربط بين البيت والمدرسة والمسجد ، فى عروة وثقى لا تنفصم عراها ..؟ وهل يمكن قبول التوسع فى دور المسجد التربوى ،

---

(١) راجع للمزيد « الشريعة والحقيقة » للمؤلف

ليصبح المكان الأنسب لتلقى الثقافة العامة ، والمعارف المختلفة ، فضلا عن أنه المكان الأصلح للعبادة وآداء الفرائض المقررة ..

انه مما لاشك فيه ، أن النقطة الرئيسية التى يتوجب الانطلاق منها لعمل الانجازات اللازمة لتتطور رسالة المسجد فى مجتمعنا المعاصر ، انما تبدأ من الاقتناع الضرورى ، بأنه قد حان الوقت الآن ، لأن يقوم المسجد بدوره فى قيادة المجتمع دينيا وأخلاقيا وثقافيا واجتماعيا ..

واذا تخلل هذا الاقناع تشكك فانه سينسحب ـ مما لا ريب فيه ـ على مجالات الحياة المختلفة ، مما يؤدى الى التقاعس عن الجهاد والعمل والانتاج .. ثم أن ذلك سيؤثر حتما فى قابلية فلذات أكبادنا لاستيعاب القيم والمفاهيم والأخلاقيات ، التى نود تلقينها اياهم ..

ان فى ادراكنا لدور المسجد الخطير ، فى التربية النفسية للطفل ، لهو المفتاح لولوج الأبواب المغلقة ، التى ما زالت فى حاجة منا الى جهود مكثفة ، وعمل متواصل ، للتعبير عنها باستخدامات المستحدثات والمكتشفات والأدوات الحديثة .

لقد انجذب الصبية والشبان فى مجتمعاتنا العربية والاسلامية ، الى تلكم الأدوات والمستحدثات ، وأغرم كثير منهم بما تقدمه بواسطتها من فنون رخيصة وغواية تثير الشهوات ..

ورغم أن هذه الأدوات الحديثة ، والوسائل المستحدثة ، لا تنم من قريب أو بعيد عن أضرار بالفرد أو بالمجتمع .. الا أنه يمكن بواسطتها أن تذيع الخير بين الناس كما يمكن أن تشيع الفساد والافساد ..

ان تقسيم المسجد الى أقسام متعددة ، تضمن المكوث فيه أطول مدة ممكنة ، عمل طيب مما لاشك فيه ، فوجود مدخل خاص يقود الى قاعة العبادة والصلاة ، وينفصل عن مدخل آخر يقود الى المكتبة العلمية والثقافية شيء ضروري ، كما أنه باضافة قاعة فى الدور الثانى منفصلة تماما عن مدخل المسجد ، تكون بمثابة دائرة تلفازية مغلقة ، تعرض بها برامج مدروسة عن التراث ، وقصص الصالحين والأتقياء ، وموضوعات تربط بين العلم والايمان ، سيشجع الكثير من الفتيان والشبان الى الانجذاب نحو المسجد ، لتأدية الشعائر والاستمتاع بالبرامج التثقيفية الاسلامية منها والعلمية ..

ان التربية النفسية تحتاج منا الى تفهم عقلية الطفل ، قبل البدء فى الارشاد والتوجيه ، الأمر الذى يلزمنا الاستعانة بالمتخصصين فى هذه المجالات ، وذلك لتدعيم المسجد بالكفايات للاشراف على النواحى الاجتماعية والنفسية ..

ان وجود أخصائى اجتماعى أو نفسى لتوجيه الطفل وارشاده ، والعمل على حل العقبات والمشكلات التى تعترض طريقه يعاون كثيرا فى تصحيح الفكر الخاطئة التى يمكن أن تترعرع داخل صدر الطفل ، لتصبح فى كبره مرضا سرطانيا من الصعب علاجه ..

ان الفكرة الخاطئة تنبت صغيرة ، فاذا أهملنا علاجها ونحن نعتقد أنها ستذوب مع الزمن . تضخمت الى حد لا يمكن اقتلاع جذورها اذ أن جزر الحشيش من فوق الأرض ،ليس معناه أنه لن ينبت ثانية ..

ان التربية النفسية اذن ، لابد أن تبدأ مبكرة جدا ، وبدون الاستعانة بالمسجد ، مع البيت والمدرسة ، نكون قد عملنا فى فراغ ٠٠ ولكى يتحقق لنا تنفيذ ذلك ، لابد أن نقتلع من أنفسنا ذلك الخوف المتوهم الذى يقودنا الى الظن بأنه من العبث ادخال العصرية الى المسجد ٠٠

ان الطفل والشاب ينجذب الى كل ما هو محبوب ومرغوب فيه ، ومن ثم يتوجب علينا أن نجعل للطفل والشاب المسجد مكانا محبوبا له ومرغوبا فيه ٠٠ وبذلك نكون قد نجحنا فى استعادة شبابنا الى بيوت الله ٠

ان تجربة اقامة مجمع ثقافى دينى ، يرتكز على عمد راسخة من القيم والمفاهيم الاسلامية ، سيكون بمثابة المنارة الهادية فى بحر متلاطم الأمواج ، اذ أنه مما لاريب فيه ، سيقود السفن الضالة بأنواره الساطعة الى حظيرة الأمن ، وشاطىء الأمان ٠

ان التقليد والمحاكاة هى السبل الأولية لتعليم الطفل وتربيته (١) ، وعن طريقها يعتاد الطفل ويتطبع بالميول والعادات ، واذا لم يجد الطفل القدوة الحسنة والأنموذج الفاضل ، انبرى يحاكى ويقلد ما يراه أمامه من نماذج سيئة ، وبذلك يكتسب عادات مذمومة ، وأوصاف ذميمة ، ربما تقوده الى الجريمة اذ شب عن الطوق ، لذلك فأنه من الأهمية بمكان ايضاح الأنموذج الفاضل فى عين الطفل ليحاكيه ، ومن الضرورة ابراز القدوة الحسنة وتحريكها بصفة دائمة أمامه ، حتى يقلد سلوكها ويحاكى تصرفاتها ويستن بها ، وان فى اغفال هذا

« احياء علوم الدين » أبو حامد الغزالى ـ كتاب العلم ٠

العامل تحريك لكوامن النفس واثارة للشهوات وموافقة الأهواء ..

ان العقل السليم فى الجسم السليم كما هو مأثور ، لذلك فان التركيز على التربية البدنية أمر يأمر به الشرع ، ذلك أن مصلحة المجتمع المسلم أن يكون اعضاؤه من الصحة والقوة بمكان ، حتى لايطمع فيهم عدوهم ..

لذلك فان انشاء قسم خاص بالتربية البدنية ، يشرف عليه متخصصون فى المجتمع الدينى ، أمر تفرضه ضرورة العصر ويشجعه ديننا الحنيف ، ولا شك أن هذا القسم سيجذب شباب الحى . الى المسجد الذى يلحق به جميع أنواع الأنشطة الاجتماعية والثقافية والرياضية ، فضلا عن المهمة الأولى والرسالة الأساسية ، وهى تعليم الناس أمر دينهم وآداء الفرائض المقررة والمعاونة فى حل مشاكلهم الاجتماعية والنفسية والتربوية ..

ان رسالة المسجد ، يجب أن تمتد لتشمل جميع أنشطة الحياة ، والا فكأننا نوافق النصارى فى ادعائهم بوجوب الفصل بين الدنيا والدين .

ان اجمل ما فى العقيدة الاسلامية انها فطرية ، يقبلها العقل الرشيد ، وتواكبها النفس المستقيمة ، ويطمئن اليها القلب السليم ، فلا خوف اذن فى الاسلام من ربط الأنشطة المختلفة بالعقيدة الدينية ، اذ أن ذلك يعين على تطبيق الفكرة الصحيحة ، بأسلوب يتمشى مع واقع المسلمين ويواكب شئونهم الحياتية ..

ان المسجد هو المنـارة التى يهفو اليهـا قلب كل مسـلم ، لذلك فانه يتوجب على المشرفين على المسجد ، أن يجعلوه دائما — فى الشـكل — والمضمون ممـا يثلج الصـدور ويرضى جميـع المصليين ..

ان تعطل جهاز تكييف فى يوم قائظ الحرارة ، يجعل بعض الشباب يفضل الصلاة فى بيته المكيف الـهواء ... كما أن عـدم وجود رقـابة دائمة على نظافة المسـجد ، يلعب دورا خطيرا فى التأثير على نفسية المصليين ... لذلك فـان صيانة المسـاجد ، والمحافظة على نظافة بيوت الله ، أمر يقتضيه الشرع والعقل ...
انه من غير المعقول أن يكـون بيت الانسـان أكثـر صيانة ونظافة من بيت الله ... اذ أن المفروض أن يكون المسجد هـو الأنموذج الذى يحاكيه المسلم فى كل شىء ...

ان الدور الخطير الذى تؤديه التربية النفسية الاسـلامية ، لا يقل أهمية عن تلقين المسلم العبادات المقررة ... ذلك لأننـا نحتاج الى المسلم لا الذى يؤدى التكـاليف والشعائر المفـروضة فحسب ، بل نحتاج الى ذلك المسلم المتفتح العقل والقلب ، العارف بالآداب الاسلامية ، والقـدوة الحسنة فى السـلوك والأخـلاق ، المتسامح الرحيم مع اخوانه وأقرانه وأرحامه ...

لقـد مرت بالدول العـربية بخاصة ، والاسـلامية بعامة ، سنوات طويلة اقتصر فيها دور المسجد على أداء التكاليف ، دون الاهتمام بالتربية النفسية للطفل والشاب والكهل ...ولقدكان من نتيجة هذا الفصل ، أن ابتعد كثير من الدارسين وطلبة العلم عن المسجد ، الى المدارس التى أعدت للتعليم العام دون الدينى ، بل

دعت الى تعليم اللغات الأجنبية وثقافاتها ، وأهملت اللغة العربية وثقافاتها ، الأمر الذى أدى فى نهاية الأمر ، الى انفصال المسلم عن مجتمعه وتقاليده وأخلاقياته ، وأصبح التفاخر بالحديث بلغة أجنبية ، فرنسية كانت أو انجليزية فى الأمكنة العامة ، دليلا على الرقى والتقدم والتحضر ، بل أن أهل العروس كانوا يتباهون أمام آهل العريس بأن ابنتهم تعرف اللغة الفرنسية وتعزف على البيانو •

لقد أنشأ هذا النوع من التعليم الذى روجه الاستعمار الغربى ، نوعا من الفصام بين الشباب ودينه القيم وشريعته الغراء ، وبالتأكيد فقد أثر على السلوك وطريقة التفكير ، بحيث أنه يمكن القول ، أنه خلق نوعا من الشباب يمكن أن نسميهم بالمسلمين اسما فحسب •

لقد كان المسجد فى عصور الاسلام الزاهرة ، أمل الشباب ومكانهم المفضل ، فقد ارتبط أقوى ارتباط بالتربية الاسلامية فى عصورها اليانعة المزدهرة •

فمنذ أن شيدت الدولة الاسلامية ، وهى تعاون بشتى الوسائل على قيام حلقات الدرس بين جنبات المسجد وأروقته ، تدعو فيها كبار الأساتذة والعلماء لشرح أصول الدين الحنيف ، وتوضيح أحكامه واظهار محاسنه وأهدافه ، والتعرف على أسرار شريعته •

لقد كان المسلمون يقيمون المساجد فى كل مدينة افتتحوها ، فى مسيرتهم الظافرة لاعلاء كلمة الله ، ولم يكن المقصود فى بناء هذه المساجد فى مشارق الأرض ومغاربها ، أن تكون دورا

للعبادة فحسب ، بل قصد بها أن تكون أيضا معاهد للتعليم ومجالس للقضاء ، ومنتديات للاجتماع بين المسلمين ٠

لقد كثر عدد المساجد فى المدن الاسلامية ، حتى أننا نجد على سبيل المثال أن مدينة كبغداد كان بها أكثر من ٣٠٠٠٠ر٣٠ مسجد (١) ٠

ولم يكن المسجد ابان العصور الاسلامية الزاهرة يعنى بالتعليم الدينى فحسب ، بل اتسعت رسالته لتشمل جميع أنواع العلوم والفنون ٠

لقد كان جامع المنصور مثلا الذى بناه الخليفة أبو جعفر المنصور فيما بعد ، مطمح العلماء والفقهاء ورجال الفكر الاسلامى فى مختلف العصور ، حتى روى أن الخطيب البغدادى عندما حج طلب من الله فى دعائه أن يحقق له التدريس فى النحو بجامع المنصور ٠

كما كان الجامع الأموى ، من أشهر المدارس التى لعبت دورا كبيرا فى التربية الاسلامية ، كما كان الجامع الآزهر منارة للعلم والتربية زهاء ألف عام ، وكان يدرس فيه ضروب من المعارف ، شملت الطب والتاريخ والفقه على المذاهب الأربعة ٠٠٠

لقد آن الوقت الآن الى التوسع فى رسالة المسجد ، بعد أن انصرف كثير من شبابنا المسلم عنه الى المدرسة والمنتديات ٠٠٠ ولا يمكن جذب الشباب المسلم الا باستخدام الوسائل الحديثة ،

---

(١) « تاريخ البلدان » اليعقوبى ، ص ٢٥٠

التى تيسر وصول المعارف والعلوم المختلفة بصورة يقبلها الشرع الحنيف · بدلا من استخدام تلكم الوسائل فى دور اللهو ، وهى فى أيدى أناس يفتنون الشباب فى دينهم ·

ان المسجد والمدرسة ، هما المنبران اللذان نأمل بهما اصلاح التعليم ، والرجوع الى الأخلاق الاسلامية الحقة ، وبتعاون كل من المسجد والمدرسة مع البيت ، يمكن أن يتخرج الى الحياة ، شبابا مسلما ، سليما صحيحا نفسيا وتربويا ·

الباب الخامس

(فى الآداب الاسلامية)

الفصل الأول : « حتمية الدين فى العملية التربوية »

١ ــ حتمية الدين ٠
٢ ــ التربية النفسية الاسلامية ٠
٣ ــ البدايات فى العملية التربوية ٠
٤ ــ اختيار المربى الصالح ٠
٥ ــ أدب النفس فى الاسلام ٠

الفصل الثانى : « الآداب الاسلامية »

١ ــ آداب المائدة ٠
٢ ــ أدب اللباس ٠
٣ ــ فى آداب المجلس ٠
٤ ــ تكريم اليمين ٠
٥ ــ أدب السلام ٠
٦ ــ آداب السفر ٠
٧ ــ الحياء ٠
٨ ــ عيادة المريض ٠

حان الوقت بعد التجارب المريرة ، التى مرت بها مجتمعاتنا الاسلامية بعامة ، والعربية بخاصة ، أن نبادر الى ادخال منهج التربية الاسلامية ، فى المدرسة والمصنع والجامعة ...

ان منهج التربية الاسلامية لا يحتاج الى عناء بحث ، وكثرة تأويل ، فهو يتلخص فى الرجوع الى الينبوع الذى لا ينضب من كلمات الله التامات ، ثم العمل على تطبيقها تطبيقا واعيا وحكيما ، ويبدأ ذلك بمخالفة اهواء النفس والسير فى طريق الاستقامة ، وشجب كل صور الاسراف والافراط ، من عدوان وافساد فى الأرض .

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » **« الكهف : ١٨ »**

ويضع منهج التربية الاسلامية القيم الصالحة للاتباع فى كل زمان ومكان ، ويرشد الى السلوك الواجب الاتباع ، الذى يتحلى به المؤمن ، كالمودة والمحبة والأخوة والصفح الجميل ، والاحسان والايثار ، الى غير ذلك من الفضائل ومكارم الأخلاق .....

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

« النحل : ١٢٥ »

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »

« فصلت : ٣٤ »

هناك ضرورة اذن يفرضها واقعنا الملموس ، للعمل على نشر منهج التربية الاسلامية ، وذلك لتقيم الأحداث الجارية تقييما

واعيا وسليما · فهناك جاهلون يفسدون فى الأرض ، يحملـون دعاوى الحادية ، ويظنون ظنونا كاذبة ، ويتخيلون أن الطـريق الأوحد لاشباع متطلباتهم وتلبية حاجاتهم ··· وتحقيق مآربهم والظفـر بأغـراضهم الدنيئة ، لـن يتم الا بالعـدوان والعنف والتضليل ··· واشـاعة الفرقة ، وذلـك باختراع نظريـات مزعومة ، ودعاوى مسمومة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ··

« حسداً من عند انفسهم »

« البقرة : ١٠٩ »

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا »

« البقرة : ١٠ »

والجاهل الذى يفسـد فى الأرض لا يدرك عواقب أفعـاله الشـريرة :

« واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم »

« البقرة : ٢٠٦ »

هذا الجاهل قلبه مريض ونفسه ظالمة ظلومة ، أمارة بالسوء ··· فهو يكـره الناس جميعا ، ويظنهم أعـداءه وخصومه دون دليل أو برهان من الحق ···

وهؤلاء الجهلة معذورون ··· يظنون أن أفكارهم الفاسدة ، وفلسفاتهم التافهة تحقـق لهم السـيادة والعزة والسلطـان فى الأرض ····

«أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسـن من الله حكما لقـوم يوقنون »

« المائدة : ٥٠»

ومن المفسدين من يعمل السوء بجهالة ، وهؤلاء لا يجدون الناصح الأمين ، فهم يحتاجون الى ترشيد وتذكير ، وتوعية وموعظة حسنة ، ليأخذوا بالعفو ويأمروا بالمعروف ، وينتهوا عن الضلال والظلم والعدوان ....

« انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة »
« النساء : ١٧ »

اننا اذا طبقنا منهج التربية الاسلامية فى مجتمعاتنا ، ووعى العامل والطالب وعياً تاماً الأسس الأخلاقية التى يتوجب أن يسير عليها ، فلن يندفع أبدا الى صور الجاهلية ، ولن يحاكى بلا فهم ، نفر ممن يتبعون الفكر المنحرف ، والعقائد الفاسدة ، من الملحدين والكافرين .

وبالتربية الاسلامية يتبدل الجهل بالعلم ... والحمية بالصبر ، وكظم الغيظ والعدوان ... بالصفح الجميل ، والحقد بالتوبة ، والانتقام بالاحسان :

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »
« الأعراف : ١٩٩ »

حتمية الديــن

أمر الله تعالى الخلق بعبادته حتى يــوم الدين ، والعبــادة تأباها النفوس العاصية ، بما فطرت عليه من الشهوات والبعــد عن الطاعات • وما غرس فيها من ميل الى المحظورات وما جبلت عليه من التجبر والتكبر والاغترار •

والله تعــالى أعلم بتركيبها ، وأهدى لنزعاتهــا الطاهــرة والباطنة ، وأعرف بما يصلح لكى تستقيم • يعلم مــا يجب على النفس تجنبه للبعــد عن غــواية الشيطان واتبــاع الصــراط المستقيم •

والنفس البشرية التى تأبى العبادة ، وتنــزع الى هواها ، انما يكون صــلاحها فى مخالفة حظوظها ومنازعة شـهواتها •• ولقد ورد فى ذلك قوله تعالى :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »

(الذاريات : ٥٦)

« وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين »

(الحجر : ٩٩)

واليقين هنا يعنى الانتقال من الحياة الدنيا الى الآخرة •

فالعبــادة شــريعة الله فى خلقه • أمرهم بهــا حتى تقــوم الساعة ، لمغالبة النفس والهوى والشيطان جميعا • لذلك تحتاج العبــادة الى مجاهدة ومكابدة ومعــاناة • فاذا داوم العبــد على العبادة لله ظاهرا وباطنا مخلصا لله ، انتقل الى الحياة الاخــرى

ملاقيا ربه مؤمنا ، فيثاب على عمله ويلحق بالصالحين فى جنات ونعيم وذلك وارد فى قوله تعالى :

« واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هى المأوى » **« النازعات : ٤٠ ، ٤١ »**

فاذا دخل المؤمن الجنة كثمرة لمجاهداته الدنيوية ، ومكافأة له على طاعته واحسانه ، كانت داره ومقره ومصيره ، وأمن فيها من التحول عنها ، والتقلب الى سواها ، والانتقال والعودة الى جهنم ، وتجدد له فى الجنة كل أنواع من النعيم ، ويهدى فيها كل ساعة أصناف من الحلى والحلل بلا حد ·· ولا وعد ·

أما الذى اتبع هواه ، وظلم نفسه ، وانقاد لحزب الشيطان ، وعصى أمر ربه وعبد طاغوت الضلالات ، وتمرغ فى وحل المعاصى وأشرك بالله ·· أتاه الموت وهو ذليل · وقبض بعيدا عن رحمة الله فيدخل النار التى أعدت للكافرين والتى أصبحت مقره الأبدى ومصيره الأزلى · يحرق جلده ولحمه · ثم تجدد له جلود ولحوم كلما نضجت فى النار ·· الى ما لا نهاية ليظل يصلى بنارها ،وليتصل عذابه بعد عذاب ولتستمر آلامه بعد آلام ·· بلا نهاية ·

فالعبادة اذن هى الموصل الى نعيم الآخرة ·· والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى ذلك : (الدنيا مزرعة الآخرة) ·

فأهل الجنة تجدد لهم كل وقت ثمرات ولذات مضاعفة · وأهل الجحيم يجدد لهم كل وقت العذاب والآلام أضعافا مضاعفة ·

وليست العبادة أشكالا ورسوما ، وزخارف وحركات ، وليست صورا ومظاهر وجدالا . انما العبادة اخلاص لله وطاعة لأمره ، وذكر لفضله ونعمه ، ورضا ببلائه وابتلائه ، وتوكل عليه فى كل أمر وفعل ، وصبر على ما يعطى وما يمنع ، ومحبة دائمة لا يعتريها اعتراض ولا مخالفة . والعبادة قلب سليم مع الله ، وسكينة فى حجر الرحمن . وخوف من وعيده ورجاء فى وعده . فاذا خطر للعبد أنه لا يرى الحق . فأنه موقن أنه تعالى يراه . وقد صدقت نيته وذابت نفسه الأمارة .. وبقيت نفسه المطمئنة .

والعبادة ليست مقصورة على الفرائض المسنونة ، ولا التكاليف المقررة . وانما العبادة أيضا صدق واخلاص ونية حسنة ، ويقول صاحب الحلية نقلا عن الأوزاعى ـ رضى الله عنه : ـ

« ان القوم ليكونوا فى الصلاة الواحدة ، وأن بينهما كما بين السماء والأرض » .

ومعنى ذلك أن يكون أحدهم خاشعا مقبلا على صلاته باخلاص ، والآخر ناسيا .. غافلا عن الله .

التربية النفسية الاسلامية

لاشك أن التربية تشتمل على التعليم ٠٠ وتكوين الملكات الخلقية والعقلية ٠٠ والتربية الخلقية رغم أهميتها البالغة فى تكوين أخلاق الأفراد والشعوب الا أنه للأسف الشديد ٠٠ ليس لها نصيب وافر فى التعليم فى المراحل المختلفة فى عصرنا الحديث ٠

وأما التربية العقلية ٠٠ فينصب الاهتمام فيها على الذاكرة (١) بمعنى أن تربية العقل تنحصر فى الاهتمام بالحفظ ٠٠ فالامتحانات التى تعقد لطلبة المدارس الثانوية ٠٠ بل وفى الجامعة ٠٠ هى امتحانات لاختبار ما شحن بذاكرة الطالب ٠٠ وليست دليلا على ذكائه ٠

ونحن نرى أن كثيرا من الشباب الذين يتخرجون فى المدارس الثانوية والجامعة ، يسخطون كثيرا على كم المعلومات التى يتلقونها ٠٠ بل ويشعرون أنها لم تفيدهم فى قليل أو كثير ٠

والواقع ٠٠ أن التربية اللفظية التى تلقن بطريق المحاكاة والاستظهار والتعالى ، لا تصلح فى الحياة الواقعية ٠٠ اذ أن العلم الذى يمس كل شىء دون أن يتعمق فى شىء ٠٠ هو علم من الواجب تجنبه ، ذلك لأنه فى تصورنا ليس من المهم شحن ذاكرة الطالب بالالفاظ ، والجمل العلمية والادبية فحسب ٠٠ بل أيضا ضرورة ارتباط ذلك بالتطبيق العملى والممارسة الفعلية فى الحياة والمجتمع ٠

---

(١) روح التربية ـ جوستاف لوبون ص : ١٠٧ تعليق د٠ طه حسين

كما أنه من الصعب أن نطالب المربين الذين خضعوا أثناء دراستهم فى الصغر الى نفس نظم التربية التى يعلمونها لتلاميذهم .. أن يغيروا تلك المناهج بمناهج جديدة .. لأن معنى ذلك .. أننا نطلب منهم أن يغيروا مزاجهم العقلى .

فمثلا هم قد تعلموا طرقا تربوية تقوم أساسا على الوصول من المركب الى البسيط ، مع أن المفروض كوسيلة سليمة انتهاج طريقة عملية للوصول من البسيط الى المركب .. أو بمعنى آخر البدء من الأيسر والأسهل الى الاشد والاعسر .

والرؤية الطيبة التى خبرها الامام الغزالى .. ووجدها نافعة لتربية نفسه .. وتقييم معارفه .. وتثبيت طريقه فى الحياة والمجتمع .. تبدأ من المحسوسات .. وهى الأيسر والأسهل لما لها من ارتباطات بالجزئيات والمشخصات (١) .

ثم أنه شك فى هذه المحسوسات . وبين أنها لا تؤدى الى المعرفة السليمة ويقول : « من أين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر ، وبه ينظر الانسان الى الظل فيراه واقفا غير متحرك .. فاذا به يحكم بنفس الحركة .. ثم اذا به بالتجربة والمشاهدة .. بعد ساعة يكتشف أن الظل يتحرك .. وانه لم يتحرك طفرة .. وانما بالتدريج .. ذرة .. ذرة ، أو .. دفعة ، ومعنى ذلك أنه لم يتوقف قط .

وكذلك ينظر الانسان الى الكوكب فيراه صغيرا فى مقدار الدينار .. ثم أن الاثباتات العلمية والهندسية تدل على أنه

---

(١) المنقذ من الضلال ـ أبو حامد الغزالى ص : ١ ـ ٧

أكبر من الارض فى المقـــدار ‧‧ وهكذا يكذب حاكم الحس ، ثم يتشكك أيضا حاكم الحس فى حاكم العقل فيقول : ان ثقتك بى كانت كاملة حتى جاء العقل فكذبنى ‧‧ وربما هناك حاكم وراء العقل يكذبه أيضا ‧‧ فلماذا تصدق العقل وتكذبنى ؟ ‧

ثم ينتهى آخر الأمر الى التشكك فى حاكمى العقل والحس جميعا ، الى أن يصل الى الأمن واليقين ‧‧ وليس ذلك بأدلة حسية وعقلية ، أو بطريق الاستنباط والاستدلال ‧‧ ولكن عن طريق الايمان ، وهو نور يقذفه الله فى القلب ، وعلامته أن الدنيـــا هى دار الغرور ‧‧ وأن الآخرة هى دار الخلود ‧

وقد بدأ الامام الغزالى بتربية نفسه بالأيسر ‧‧ ثم بالاشق والاعســـر ‧‧ أى من البسيط الى المركب ‧‧ ومن الأســـهل الى الأصعب ‧‧ وهذا هو منهج التربية الاقوم ‧

واننا نؤمن أن التربية هى الوسيلة الوحيدة التى يملكهـــا الانسان لتحقيق التطـــور الاجتمـــاعى ، وتثبيت المثـــل والقيم الأخلاقية ، ولكى يتحقق ذلك ‧‧ فلابد من تحويل ما هو ظاهـــر الى ما هو باطن ‧‧ أو بمعنى آخر من تحويل المظاهر الخارجيـــة الصحيحة ، الى عقيدة ايمانية ‧‧ وذلك بتحلية النفس بالأوصاف المحمودة ، وتخيلتها من الأوصاف المذمومة ‧‧ ولاشك أن ذلـــك يتطلب منهجا واعيا ‧‧ لغرس مبادىء الحق والعلم والفضـــائل فى نفسية من يتولى تربيتهم ‧

كما أن هذا الطريق ‧‧ يحتاج الى مثـــل أعلى ‧‧ أو قدوة حسنة تلتف حولها القلوب للخروج من حياة الجهل الى العلم ، ومن الغرور الى الايمان ، ولاشك أنه بدون التحلى بالايمان الالهى ‧‧

وما يستتبعه من قيم عليا ٠٠ يؤدى الى التخلل فى وحدة الأمة فتتفكك ، وتأخذ قوتها فى الانحلال ، وبالتالى يؤثر ذلك فى أفراد هذه الامة ٠٠ ذلك لأن المثل الأعلى الجامع لوحدة الامة والذى يتجمع حولة الافراد ٠ ولهم فيه أمانى مشتركة قد ذهب بذهاب المثل والقيم العليا ٠

وفى تصورنا أن تلقين مبادىء الاخلاق ٠٠ وغرس قيم أخلاقية ، انما يتطلب تجنب الشر والاقبال على الخير ٠ ولن نمكن من ذلك الا بمخالفة النفس بالرياضات ٠٠ والبعد عن الشهوات ٠٠ وذلك عن طريق التأديب والترويض ٠٠ وتحقيق الخير بالتمثيل بالقدوة الحسنة ٠٠ والممارسة الواقعية تدل على أن الخير أفضل من الشر ٠٠ وأن الامم انما تتكون ثقافتها ٠٠ وحريتها ٠٠ وارتقاؤها ٠٠ اذا سادت الاخلاق ٠٠ وانها ترجع الى الظلمة والجهالة عندما تترك الاخلاق ٠

علينا اذن ان نتحرر فى مجال التربية من القوالب والصيغ ٠٠ الى الاسلوب العملى فى استخدام الارشاد والتوعية بالقيم والمبادىء ، ثم توفير الحرية للتفكير مع وجود رقابة ٠٠ أما التركيز على حفظ المواعظ والحكم ٠٠ ثم فرض رقابة شديدة على الشباب ، والتشكك فى قدراتهم وملكاتهم ٠٠ ونزع الثقة منهم ٠٠ فان ذلك يؤدى حتما الى النفاق العلمى ٠٠ والخداع ٠٠ والرياء ٠٠ ولاشك أن ذلك مصدر من مصادر الشر والجريمة فى حياة أى أمة من الأمم ٠

ليكن هدفنا الاساسى ، أن تصل القيم الى باطن الشباب ، وتصبح غاية عملية يطبقها فى حياته جميعا ٠٠ يتوارثها جيلا

عن جيل ، فالفضـائل العليا ·· كحب الخير ·· والايثـار ·· والاحسان ·· والاخـوة ·· والمحبة ·· انما هى ثمـار للبيئة الحسنة ·· ونتاج مكارم الاخلاق عند الجماعة والافراد ·

ولاشك أن التـربية النفسية تعمل على تكوين الرجـال ، والتحلى بمكارم الاخلاق ·· وليست هى اذن الحصـول على أعلى الشهادات دون تطبيق العلم فى الحياة كسلوك اخلاقى يعاون على تجنب الشر واتباع الخير ·

وفى تصورنا أن التـربية الخلقية السليمة ، لا تعتمـد على المواعظ الجامدة ·· والتعبيرات المطاطة ·· والالفاظ المكـررة ·· والحكم المتواتـرة ·· والكتب المترجمة ·· انما تعتمـد اساسا على المربى الفاضل ، صاحب الخبـرات الذى يوجه تلميذه الى الخير ·· والحق بما له من الحنكة والتجربة ·

والتجربة التى نقصدها هنا ·· تتمثل فى معـرفة مصلحة الجماعة ومصلحة الجمـاعة هى القانون الثـالث فى الشـريعة الاسلامية ، بعد القرآن والسنة ·· والتى لا يمكن مخالفتها ·· أو الاعتداد بجهلها والا استتبع ذلك وقوع المخـالف تحت طائلة العقاب الذى تحدده الجامعة ·· فضلا عن الجزاء الأخروى ·

ان وسائل التربية فى الوقت الحاضر ·· تعتمد على عملية تلقين فحسب ·· اذ أن الاستاذ يعلم التـلاميذ علم الاخلاق مثـلا بقوله : أن علم الاخلاق انما يبحث فى حب الاسرة والمجتمع ·· والجهاد فى سبيل الله ·· وأن حب الوطن واجب مقدس ·· وأن الجهاد فى سبيل الله شرف للانسان ·· ثم أن الاستاذ نفسه ·· ربما يكون متشككا فى قيم الاخلاق التى يدرسها ·· ولذلك فان

دروس الاخلاق تبـدو عديمة القيمة ٠٠ لانهـا غير مؤثرة تأثيرا ايجابيـا ٠

علينـا اذن لكى ندرس الاخلاق دراسـة سليمة ٠٠ صالحة للحياة العملية ٠٠ أن نربطها بالعلاقات الانسانية ٠٠ كما علينا أن نربطها بعلاقة الانسان بربه ، فليست الاخلاق مجرد برنامج دراسي على الطالب أن يحصله ويمتحن فيه فحسب معتمدا فيه على التذكر وحفظ الموضوعات المقررة ، دون أن يكون لها أى نفع فى الحيـاة العملية والعـامة ٠٠ وانمـا التربية أساسا تقـوم على الارتباط الوثيق بالواقع ، فهى تهتم بالحقائق ، وليست بالالفاظ والتعبيرات والحكم ٠

علينا أن نغرس حب التـأمل فى طالبى المعرفة ليستخلصوا الحقائق المجردة ويمتحونها فى حياتهم وواقعهم ، بل وعقيدتهم الدينية ، ولن يتم ذلك بتغيير البرامج والنظم المتشابهة ٠٠ التى نزعم أن بها نطور ثقافتنا ٠٠ أو باستخدامنا الادلة العقلية التى ندعى أن بها نؤثر فى الاخلاق بما نستحدثه من نظم وبرامج ٠

انما الذى يؤثر فى الأخلاق حقـا ٠٠ ليس الحفظ وشحن المعلومات ٠٠ وليس المنطق ٠٠ وانما المؤثر الحقيقى هو المثـل العليا والبيئة الصالحة التى يعايشها أولادنا واخواننا ٠

فالاساس فى ايجاد تربية سليمة ، ليس باصلاح البرامج أو تغييرها أو تعقيدهـا ٠٠ أو تسهيلها ٠٠ وانما باختيـار المنهج السليم الذى يجب أن يكـون نقطة ينطلق منها البناء التربـوى محققا غاية يستهدفها ، ويسعى لتحقيقها ٠٠ فى عملية تربيـة الافراد والجماعة ٠٠ أما تغيير البرامج والانظمة المعمول بها الى

أنظمة أخرى ، فليس الا تغييرا لحذاء قديم بدل حذاء قديم . وأما ألشخص واحد ٠

أو بمعنى آخر ٠٠ ليس الا احياء لشيء عفن ٠٠ ليس هناك من سبيل لاحيائه ٠٠ لانه لاسبيل لاحياء الموتى !!

والمنهج المقترح يستقى مصادره من القرآن الكريم ٠٠ وهو السراج الاعظم ٠٠ متوخين فى تطبيقه ما انتهجه الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم سائرين على هدى الانمة الذين اتبعوا تعاليمه ، وهم القدوة الحسنة التى تعاوننا على تربية أمتناتربية صالحة فى كل زمان ومكان ٠

وتعتبر تربية الانسان فى الاسلام ، غاية من الغايات العظمى تستهدف العلم ومكارم الاخلاق ٠٠ فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول :

« أدبنى ربى فاحسن تأديبى » ٠ (متواتر)
وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
« انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » ٠ (متواتر)

وخروج الانسان متكاملا ، واعيا ٠٠ عارفا بربه ٠٠ سليما فى معاملته مع اخوانه ،غاية للتربية الاسلامية ، ولكى تتحقق هذه التربية،يتوجب أن ننطلق منمحركينأساسيين٠٠محركترغيب ٠٠ومحرك ترهيب ٠٠ فالنفس تنزع بفطرتها الى لهوى ٠٠ وتميل الى الشهوة ، وتركن الى تحقيق ذلك ركونا عظيما ٠٠ بما جلبت عليه من صفات مذمومة ٠٠ يمكن أن تحدث لها العطب والفساد والانحراف ٠

لذلك وجب تحريك محرك الترهيب ٠٠ للقضـــاء على هذه الآفات أولا بأول حتى لا تعتاد عليها النفس ٠

كما تقوم التربية الاسلامية على محرك الترغيب فيما يتعلق بالافعال المحمودة ٠٠ والعلوم النافعة ٠٠ والقدوة الحسنة ٠٠ حتى يتجلى بها باطن الانسان ٠٠ فتصبح هذه الافعال هدفا ٠٠ وغاية ٠٠ وسـلوكا ٠

ولكى يتم تطبيق ذلـك عمليا ٠٠ يتوجـب تحلية النفس بالاوصاف المحمـودة ٠٠ وتخليتها عن الاوصاف المذمـومة ٠٠ والمنطلـق الذى تنطلق منه مناهج التربية ٠٠ يقـوم على ركيزة مستقاة من القرآن الكريم ٠٠ وهى أن الانسان فطر على نسيان الحـق ٠٠ فاذا لم يذكـر به بصفة مستمـرة انحـرف عن جادة الصواب ٠٠ وركن الى الخمول والبلادة ، فيتلقفه الشيطان ٠٠ ويوسوس له ٠٠ ويحسن له باطل عمله ٠٠ وبذلك تميل النفس الى طبيعتها ٠٠ فتنحرف الى الاهواء والامانى الكاذبة ٠٠ وتندفع الى الغفلة والضياع (١) ٠

ومن هنا كانت أهمية الرياضة النفسية لتقوية العزيمة ٠٠ والعزيمة باب الصحة النفسية ، لانها طريق الى الاستقامة والعدل التى بهما يتحقـق الخير والعلم ٠٠ اذ أن أبا البشـر آدم ـ عليه السـلام ـ نسى ولم يستطع الصمود أمـام غواية الشـيطان ٠٠ تصديقا لقوله تعالى :

« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ٠٠ ولم نجد له عزما » ٠
« طـه : ١١٥ »

---

(١) رسائل ابن عربى (اصطلاحات الصوفية) الامام محيىالدين بن عربى

فالنسيان اذن آفة مفطور عليها الانسان ‥ وعليه مغالبته بالعلم . والعلم بهذا المعنى رياضة نفسية ‥ وممارسة عملية ‥ وارشاد وتوجيه مستمر لتقوية العزم ‥ والعزم نقيض النسيان .

ومن الناحية العملية ‥ يجب ان تبدأ التربية النفسية بالاقتداء بالقدوة الحسنة ممثلة فى الانبياء والصالحين لقوله تعالى :

« فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » .
« الاحقاف : ٣٥ »

فالعزم يحتاج الى صبر ‥ وكظم للغيظ ‥ وتحمل للابتلاءات ‥ كما انه لتحقيق التربية السليمة ‥ يجب استخدام وسائل الترغيب ‥ والترهيب ‥ كما يجب التذكير حتى لاينسى العبد ‥ لان النسيان غفلة ‥ وبعد عن العلم والحق والصدق ‥ وذلك وارد فى قوله تعالى :

« سنقرئك فلا تنسى » .
« الاعلى : ٦ »

كما أن النسيان فطرة فى الانسان (١) فهو ينسى ما يذكر به ‥ فكيف لا ينسى ما لايذكر به لقوله تعالى :

« قال كذلك آتتك آياتنا فنسيتها ‥ وكذلك اليوم تنسى » .
« طـه : ١٢٦ »

---

(١) تنبيه الغافلين ــ الامام السمرقندى ص ١٠٥ وما بعدها .

تذكر الحق اذن يستهدف به عدم الغفلة ٠٠ والعلم بما هو مطلوب عمله مع بيان الطريق الصحيح الواضح ٠٠ الصالح ـ للتطبيق العملى ٠

وقد نبه الاسلام الى القدوة الحسنة فى شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن استن بسنته من الصحابة والتابعين ٠٠ وتابع التابعين ، فاذا تعامى الانسان ٠٠ وتغافل ٠٠ ونسى بعد ما أرشد الى الحق ٠٠ ما وجه اليه من الهدى ٠٠ ولم يؤمن به ٠٠ فان ذلك علامة الجهل الذى يؤدى الى العذاب والهوان ٠٠ بالاضافة الى العقاب على تغافله ونسيانه الحق ٠

ولقد أراد سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ من الخضر ٠٠ وهو عبد من عباد الله الصالحين آتاه الله علما خصه به ٠٠ أراد سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ أن يتعلم هذا العلم ، ويربى نفسه على الصبر ٠٠ وكظم الغيظ ٠٠ واحتمال المكابدة والمعاناة للوصول الى العلم اللدنى ٠٠ لكنه لم يستطيع مع الخضر صبرا ٠٠ مصداقا لقوله تعالى :

« قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا » ٠
« الكهف : ٧٣ »

ويمكن استخلاص من قصة موسى والخضر عليهما السلام ، هذا المنهج القرآنى فى التربية النفسية ٠٠ فالعلاقة بين استاذ وتلميذ ٠٠ والاستاذ عبد خصه الله بعلم ٠٠ والتلميذ نبى حظى بما لم يحظ به أحد فى عصره ٠٠ ومع ذلك فهو يتواضع لاستاذه العبد الصالح ، والعبد الصالح يبين صعوبة الدرس ٠٠ فيقول له : انك لن تستطيع الصبر على ما أريد أن أعلمك عنه ٠٠ اذ أن ذلك

يحتاج الى كظم للغيظ .. والتعود بعادات تحتاج الى رياضة .. وسياسة نفسية .. غير ما سبق أن علمته وخبرته .. وما أوحى اليـك .

فالتربية الاسلامية تربية سليمة .. قوامها كسر حدة مألوف العادات .. وتجاوز مرحلة الرخص الشرعية ويرد عليـه النبى الكريم كتلميذ متواضع أخطأ فى الدرس .. فيقول له :

« لا تؤاخذنى على نسيان مواعظك وارشادتك ووصاياك .. ولا تكلفنى مشقة فى تحصيـل هذا لعلم .. ولأخـذ بما كنت أجهله من حقـائق وجودية .. فلا تجعل الامر بالنسبة لى شاقـا عسيرا » .

اذن فالتربية تحتـاج الى علم .. والعلم يحتاج الى تذكـر دائم .. كمـا يحتاج الى مكابـدة .. ومعاناة .. ومجاهـدة .. حتى يصير سلوكا .. واخلاقا .. وأدبا ، كما فى قول عز من قائـل :

« لتبتغـوا فضـلا من ربكم .. ولتعلمـوا عـدد السـنين والحساب » . **« الاسراء : ١٢ »**

والعلم المقصود هنا ليس علما نظريا فحسب (٢) ولا علمـا عمليا فقط .. انما علم جامع للنظر والعمل ، صـالح للتطبيق فى الحاضر والمستقبل ، الا أن أئمة الاسلام ينظرون الى الجـزء الخاص بالعلم النظرى على أنه سابق للعمل .. بمعنى أن التربية

---

(٢) احياء علوم الدين ـ أبو حامد الغزالى ج ١ ص : ٧٨ .

الصحيحة تقتضي البدء بالعلم النظرى ·· ثم تطبيق هذا العلم فى مختلف مجالات الحياة وليس العكس ·

وقد سمى أئمة الاسلام هذا العلم ·· بعلم المعاملة ·· وقسموه الى أقسام ثلاثة :

١ ـ اعتقاد ·· أو تفكر أو نظر ·
٢ ـ تطبيق ·· أو سلوك عملى أو معاملات ـ أى تنفيذ وتطبيق ـ ·
٣ ـ ترك ·· استبعاد وهجر ·

١ ـ الاعتقاد:

هو التعليم المنظم المرتب ·· المبنى على الاقناع لحقيقة الدين حتى لا يخامر نفس المسلم الريبة أو الشك فيما يلقى اليه من العلم ·· فاذا ما قوى الاعتقاد ·· يبدأ بالتنفيذ والتطبيق ·

٢ ـ التطبيق :

والتطبيق ·· ما تلقنه وأرشد اليه من علم ·· مثل القيام بالفرائض كالصلاة ·· والطهارة ·· والصوم ·· والزكاة ·· والحج ويتم ذلك بالتدرج شيئا فشيئا حتى لا تسأم النفس وتتمرد بالعصيان وتثور على الاعتقاد الى أن يسلس قيادة النفس ·

٣ـ الترك :

ثم يبدأ المربى بالاصعب من الامور ·· وهو ترك ، أو استبعاد ما لا يصلح تعليمه أو تلقينه ·· كأن لا يعلم الاعمى

ما يحرم من الكلام ·· كما لا يعلم البدوى ·· ما يحرم من الجلوس فى الاماكن العامة ·· اذ أن هذه العلوم لن يستفيد بها صاحبها فى الآن أو فى المستقبل ، فضلا عن أنها ليست صالحة للتطبيق العملى بالنسبة للاعمى ·· والابكم ·· والبدوى ·· وانما الذى يجب أن يلقن تجنبه والابتعاد عنه من الاعمال والافعال ما هو جائز أن يقع فيه الطالب فى الحاضر والمستقبل حتى لا يكون سببا فى انحرافه وضلاله ·

وللتربية الاسلامية جانب آخر يختص بتربية القلوب ·· وهى رياضة نفسية عملية ·· تهتم بالنيات والخواطر ·· فتدفع بعيدا الخواطر والوساوس ·· والنيات السيئة ·· كالرياء ·· والغرور ·· والحسد ·· والكبر والتعجب ·· وغير ذلك من الآفات ·

ولا تترك النفس فى فراغ ·· بل تدفع اليها مكارم الاخلاق ·· ممثلة فى الايثار والصدق ·· والعدل ·· والاحسان ·· والتواضع وتنقية النفس بالخواطر المحمودة ·· وفى ذلك يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« ثلاث مهلكات ·· شح مطاع ·· وهوى متبع ·· واعجاب المرء بنفسه » ·

على المربى اذن ·· أن يعاون تلميذه على التخلص من هذه النقائص ·· بل يجاوزها فى معالجة آفاته الباطنة ·· وذلك بتطبيق منهج واع ، وقواعد عملية ·· تنطلق من مفهوم اسلامى مؤداه :

« من لا يعرف الشر ·· يقع فيه » ·

وعلاج هذا الامـر بمقابلة السبب بضـده ٠٠ اذ آنـه من الأهمية بمكان اتمام عملية التربية بمعرفة السبب والمسبب ٠

ولذلك يتوجب تعلم ما يتوقع الانسان وقوعه فى القـريب العاجل ، بل أن ذلك فرض على كل مسلم ٠٠ ومثـال ذلك تعلم الطب لعلاج الاجسام ٠٠ أو تعلم الحساب من أجل المعاملات ٠٠ وبالمثل فى الصناعات والحرف ٠٠ لانه اذا خلا المجتمع من تعلمها وقع فى الاغاليط ٠٠ وانتكس ٠

ومن ناحية أخـرى ٠٠ هناك من العلوم ما يجب تجنبه ٠٠ مثل تعلم السحر ٠٠ والشعوذة ٠٠ التى ليس من ورائها فائـدة على الاطلاق ٠

وليتم ذلك يقينـا ٠٠ لابد من مربى ومريـد ٠٠ آو معلم وتلميذ ، ثم انه لابد من رابطة قوية ٠٠ أساسها الثقـة والادب حتى تتحقق التربية السليمة ٠

آداب التربيـة :

الرابطة بين المربى وطالب العلم لها آداب وشروط ٠٠ منها :

١ ـ النصيحة الخالصة التى لا ترتبط بمنفعة أو مصلحة ٠٠ فان تدخلت المنافع ، فترت التربية ٠٠ ومن ثم شابها العيب ٠

٢ ـ أن يتحقـق فى المربى الحلم والشفقة والرحمـة بمن يتولى تربيتهم ٠

٣ ـ أن يتـرفق بهم ٠٠ وأن يلاينهم عند عجـزهم وضعفهم فى احتمال المجاهدة ٠٠ ويقوى عزائمهم على المجاهدة والسعى

والعمل على مخالفة العادات السيئة والطباع المرذولة ٠

٤ ـ أن يعتبر المربى من يربيه بمثابة ابنه ٠٠ فيعامله معاملة الوالد الحكيم ٠٠ الشفوق ٠٠ اللبيب ٠

٥ ـ أن يأخذ المربى من يربيهم بالاسهل ٠٠ ولا يحملهم مالا طاقة لهم به ٠

٦ ـ اذا ما وجد المربى المريد قوى العزيمة ٠٠ يأمره بالاشد ٠٠ فالاشد ، وذلك بترك محاكاة الطبع ٠٠ واتباع الحق ٠٠ حتى يخرج من مألوفات العادات ٠٠ وقيودات الطبع وأحكامه ٠

٧ ـ أن يعوده على العزم ٠٠ فلا يتعلق بالرخص فى المباحات ، وانما يستبدل بها العزيمة ٠٠ حتى يتعود على المجاهدات ٠٠ وتجنب الخمول والكسل ٠

٨ ـ اذا وجده صادقا ٠٠ مجاهدا ٠٠ صاحب عزيمة ٠٠ فانه لا يسامحه فى شىء ، بل يأخذه بالاصعب من الرياضات التى لا تضعف عزيمته ٠٠ ولا تفسد ارادته ٠

٩ ـ ألا يهون عليه أمره عندما يقع فى المخالفات ٠٠ ولا يترفق بحاله عندما يشتد صلبه ٠٠ حتى لا يقع فى الرعونات ٠

١٠ ـ أن يحسن تربيته وتأديبه ٠٠ ولا ينتظر من ذلك عوضا ٠٠ وعليه ألا يختار من يربيهم عن طريق التوصية أو الوساطة ٠٠ وانما يربى المريد الذى جاء من نفسه طالبا تربية نفسه ٠٠ فهذا يصلح ويوفق فى التربية ٠٠ ونجاحه أسرع وفلاحه أتم وأثمر ٠

١١ ـ اذا وجد فيه خللا .. فعليه أن يحفظ سره .. فلا يطلع عليه أحد غيره .. لانه أمانة عنده .

١٢ ـ أن يكون ملجأ المريد عند الحاجة .. ومرشده .. وموجهه عند الطلب .. وعليه أن يعظه فى السر .

١٣ ـ أن يصغر له أحـواله .. وأعمـاله ، لأن التعجب يفسـد المجاهدة واذا رأى من بعض المريدين انحـرافا .. فانه بجمعهم ويقـول لهم بلغنى أن فيكم من يـدعى كـذا .. وكذا ، ويذكر المفاسد .. ويحذرهم منها ولا يعين أحـدا منهم (١) .

وقد ركزت التربية الاسلامية على الوفاء للمربى .. فالابن يجب أن يبر بوالديه برا تاما .. وعندما يهرم الوالدان فى آخر العمر ، فعلى الابن أن يتحملهما ولا يضجر من طلباتهما .. ولا يزجرهما ببخس القول ، وبجفاف المعاملة .. انما عليه أن يقول لهمـا قـولا كريمـا .. لينـا .. فيـه وفـاء .. واحسـان .. وتكريم لهما لانهما قد ربيـاه صغيرا .. وأن يتواضع لهمـا بلين الجانب والايثار .. وأن يكون شفوقا .. رحيما بهما .. لان ذلك من حقهما وفضلهما عليه .

والاحسان .. وخفض الجناح .. والتواضع .. والايثار .. والقول الحسن .. ثمـرات للتربية الحسنة .. والاخـلاق القويمـة .

ولكن يجـدر بنا أن نتساءل هنا .. ايجـوز اتباع المـربى

---

(١) الغنية ـ الامام عبد القادر الجلانى . جـ١ ص : ١٦٨ ـ ١٦٩ .

المنحرف ؟ وتأتى الاجابة على هذا التساؤل فى الآية الكريمة عن لسان فرعون :

« **قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين** » ٠
« **الشعراء : ١٨** »

ويأتى رد موسى ـ عليه السلام ـ :

« **وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل** »
« **الشعراء : ٢٢** »

كان فرعون يشرك بالله ٠٠ ويؤله نفسه ، ويقتل الذكور من المواليد ٠٠ لذلك أبى موسى ـ عليه السلام ـ أن تسمى تربية فرعون له نعمة عليه ٠٠ لان سبب التربية الاضطرار ، اذ أن لجوء موسى ـ عليه السلام ـ الى بيت فرعون ، راجع الى قتله الاطفال الذكور فألقته أمه فى اليم لينجو من القتل ، فآل الى بيت فرعون ، ولولا ذلك لتربى بين والديه ٠

والتربية الصحيحة ٠٠ تعلم الجلد ٠٠ والمثابرة ٠٠ والصبر ٠٠ وحفظ اللسان ٠٠ والايثار ٠٠ والاحسان ٠٠ والرحمة ٠٠ وقد قال حكيم من الحكماء أن الخصال التى يعرف بها الجاهل هى :

أولا : الغضب بدون سبب ٠٠ أى يغضب الانسان على الانسان والحيوان بل على كل شىء يرى نفسه مكرها عليه ٠٠ مضطرا فيه لمخالفة هواه ٠

ثانيا : الكلام بغير نفع ٠٠ لان العاقل لا يتكلم كلاما لا منفعة فيه ٠

ثالثا : افضاء السر فى كل مكان ، وافشاء ما يجب ستره ٠
رابعا : الثقة بكل انسان ٠٠ لان العاقل يقظ ٠٠ فطن ٠
خامسا : أن لا يعرف صديقه من عدوه ٠٠ فالعاقل يعرف صديقه ويطيعه ويعرف عدوه فيحذره ٠

ولقد مدح رجل أحد التابعين ٠٠ فضاقه ذلك وقال له : لم تمدحنى ؟ ٠٠ أخبرتنى عند الغضب فوجدتنى حليما ؟ ٠

قال : لا !!
قال : أخبرتنى فى السفر فوجدتنى حسن الخلق ؟
قال : لا !!
قال : أخبرتنى عند الامانة فوجدتنى أمينا ؟
قال : لا !!
قال : لا يحل لاحد أن يمدح أحد ما لم يجربه فى هذه الاشياء الثلاثة ٠

الاسلام ينظر اذن الى التربية نظرة واقعية ٠٠ عميقة ٠٠ ونافذة ، ليبصر بنظام صالح للتطبيق فى كل زمان ومكان ٠٠ يتعدى حدود الواقع ٠٠ بل يتجاوز حدود الدنيا ٠٠ ليوصلها بالحياة الباقية ٠

فالتربية الاسلامية شاملة ٠٠ جامعة ٠٠ تعالج الانسان ككل ٠٠ كوحدة مع الاهتمام بالفروق الفردية والجسيمة والمميزات العقلية والخلقية ٠٠ فى العلم والعمل جميعا ٠٠ كما تنظر الى أصحاب التشوهات والعاهات الخلقية نظرة كلها رحمة وشفقة ٠٠ يقول الله تعالى :

« ليس على الاعمى حرج ٠٠ ولا على الاعرج حرج ٠٠ ولا

على المريض حرج ·· ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ·· أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت اخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة » ·

« النور : ٦١ »

تبين هذه الآيات الكريمة ·· العلاقات الانسانية التى يجب أن تربط بين الانسان والانسان وهى أصل من أصول التربية النفسية فى العلاقات الفردية الاسرية ·· فليس هناك حرج على الاعمى أو الاعرج أو المريض ·· كما ليس على الصحيح حرج أن يأكل فى أسرته أو عند أقربائه من جهة الام أو من جهة الاب ·· أو العم والعمة والخال والخالة ·· وكذلك فى بيوت الاصدقاء المخلصين ·· اذا لم يكن فيها حرمات ·· وذلك بعد استئذان رب البيت

والناحية الثانية فى التربية الاخلاقية ·· الاستئذان عند الدخول على البيوت ·· وتحية أهلها بالسلام ·· لأن بين الناس علاقة وثيقة ورابطة لا تنفصم تتمثل فى القرابة والدين ·· وهذه التحية مباركة بها تتطيب النفوس ·· وتزداد المحبة والوئام ·

فان الله تعالى يرى أن الانسان الذى يربى تربية كريمة ·· يخرج نسلا كريما ·· لقوله تعالى :

« والبلد الطيب يخرج نباتا باذن ربه ·· والذى خبث لا يخرج الا نكدا » · **« الاعراف : ٥٨ »**

. البدايات فى العملية التربوية

هل يمكن أن تكون النهاية كالبداية ، أم أن البداية شىء والنهاية شىء آخر ؟ !

واذا كانت البداية أفضل من النهاية فيا شقاء الانسان ، واذا كانت النهاية أفضل من البداية فهل يكتب له النجاة ؟ !

المولود يولد على الفطرة السليمة ، ويقوم الأبوان بدور خطير فى اكتسابه للأوصاف المحمودة ، أو الأوصاف المذمومة ، ويطبعانه على العادات الحسنة أو السيئة ويدللانه أو يقسوان عليه ، فينشأ اما نقيا تقيا أو مائعا أو متصلبا أو فظا غليظ القلب ....

فعملية المحاكاة تلعب دورا أساسيا فى بداية العمر ، وخاصة فى السنوات الأولى من حياة الطفل ، واذا لم يتكلف الطفل الأعمال والأفعال الحسنة ، ترسبت فى طبعه الرغبات الذاتية ، والنزعات الشخصية ، وأقبل بشره على تلبية متطلباته واشباع حاجاته ، دون اهتمام بتعارض ذلك مع مصالح الآخرين .....

وتكمن الخطورة فى التغاضى عن تصرفات الطفل الشاذة ، والتغافل عن سلوكه السيىء ، بدعوى أنه ما زال طفلا لا يفقه ولا يعقل ، وان الزمن وحده كفيل بأن يعلمه السلوك السليم ..

وتؤثر البيئة ، بما تشتمل عليه من رفاق وأصدقاء وجيران ، على حياة الطفل النفسية كما تؤثر على تربيته الخلقية ، فان دور الشارع والمدرسة ، والنادى الاجتماعى

والرياضى والثقافى ، من الأهمية بمكان بحيث تكمل دور الأبوين فى العملية التربوية ...

واذا كانت البدايات فى العملية التربوية غير سليمة ، وغير متناسقة ، ترتب على ذلك وجود نقص ظاهر ، يختلف من حيث الخطورة فى تكوين الشخصية غير السوية ..

ولذلك كان التركيز منذ الصغر ، على تربية الطفل فى ظل المفاهيم والقيم الاسلامية ، ضرورة لا غنى عنها ، اذ عن طريقها يضمن الأبوان ، كما يضمن المجتمع المسلم نشوء الطفل على هدى الدين القيم والشريعة الغراء ..

وان الجهل بأصول التربية الاسلامية ، يجعل من الصعوبة بمكان ، تكوين الشخصية الاسلامية ، التى هى عماد الأمة ، فلو افترضنا وجود تقصير فى تربية الطفل ، تربية اسلامية ، وغرس القيم الدينية فى نفسه ، فانه مما لاشك فيه سيترعرع كالحشائش الضارة ، فلا تفيد نفسها ولا غيرها على السواء ، وربما تكون سامة تضر من قاده سوء حظه الى التقرب منها .

وهكذا الفتى الذى ينشأ بدون رعاية وتوجيه ، فانه بالكاد يستطيع أن يفرق بين السلوك السليم ، والسلوك السيىء ، والحسن والقبيح فى الأعمال والأفعال ..

ورب قائل أن هناك من الأطفال اليتامى ، أو هؤلاء الذين لم يلقوا رعاية أو توجيه فى أسرهم ، نتيجة تغيب الأب المستمر أو طلاق الأم ، أو زواجها بزوج آخر غير والد الطفل ... رب قائل يقول ، أن هؤلاء الأطفال ، برغم ظروفهم الاجتماعية القاسية ، يصبحون فيما بعد من المسلمين الصالحين ..

ونحن لا نشك في وجود هذا النفر من الناس ، وقد أصبحوا أفضل خلفاء ، وأعظم اثراء للدين والمجتمع ، من هؤلاء الذين نشأوا فى ظل الأبوين ، ولقوا الاهتمام والرعاية البالغة ..

الا أنه قد نسى هؤلاء ، أن من الآباء والأمهات من لم يحسنوا تربيتهم لأولادهم ، سواء بالتدليل المفرط أو القسوة الغاشمة ، بحيث يخرج الطفل الى المجتمع وقد فقد المعايير الصحيحة ، التى يحكم بها على الفاسد من الصحيح من الأمور .. وربما يقع فى شرك جهله فيرتكب الجريمة ، وينال القصاص ، **وقطعا فان مسئولية الآباء الذين أهملوا فى عملية التربية ، مسئولية مشتركة مع ما أقدم عليه الأبن من الانحراف عن جادة** الصواب ...

أما الذين فقدوا الرعاية الأبوية ، ومع ذلك نشأوا على حب الخير وأعمال البر ، والمسابقة فى الاحسان ، وآستمسكوا بعروة الدين الوثقى ، فان هؤلاء قد صادفهم الحظ وييسرهم الله للقاء بعض أفاضل المربين ، فكانوا بمثابة البدلاء لمهمة الأبوين . وهم بمثابة الجنود المجهولين ، الذين قاموا بتوجيه ورعاية هؤلاء الأطفال ، الذين لم يسعدهم الحظ فى الرعاية فى احضان الأسرة ...

من اليتامى وشبه اليتامى ، من تخرجوا عن مدرسة الحياة ، وقد صقلت معادنهم ، ونضجت تجاربهم ، وتوصلوا الى طريق الحق والرشد والصلاح ، بما يسره الله لهم ، من أناس مخلصين أحتضنوهم ، حتى شبوا عن الطوق ..

أما التعساء من الأطفال ، فهم من عدموا العطف والحنان والرعاية والتوجية ، فتخبطوا فى وادى الحياة ، واصطدموا بأشواكه وقفر نباته .... فقست قلوبهم ومرضت نفوسهم ، ومالوا للعدوان واستحبوا الكفر على الايمان تمردا وسخطا ...

لذلك أنه من سخف القول ، الزعم بأن الذى ينشأ بلا أسرة بعيدا عن رعاية الأبوين ، يمكن أن يصبح عضوا فاضلا خيرا فى المجتمع ، لأنه يصبح كالبذرة التى لم تلق من صاحبها عناية أو رعاية ... فهل يمكن أن تصبح فيما بعد شجرة طيبة ..

اذا وجدت من يرعاها غير صاحبها الأصلى فانه من الجائز أن تترعرع وتصبح شجرة طيبة ... أما اذا فقدت الماء والرعاية تعرضت للجفاف والفساد والافساد ..

لا بديل اذن للاسرة ، فان مهمة الأبوين تتكامل بعضها مع بعض ، بحيث تسفر عن ثمار طيبة فى تنشئة الانسان الصالح ، وهذا لن يتأتى أيضا الا اذا كان الوالدان من أصحاب القيم ، والاخلاق الفاضلة ، فضلا عن تمسكهما بأهداب الدين ...

ويجدر بنا أن نناقش الآن تهافت المثل الدارج الذى يقول :

« يخرج من ظهر العالم فاسد ، ويخرج من ظهر الفاسد عالم »

لا نشك أن الله على كل شيء قدير ، لكنه تعالى حضنا على التمسك بالقيم العليا ، ونبذ الفساد والافساد ، وأعلمنا أن خير شيء فى الدنيا هو العلم ، وأنه صنو الخير ، فكيف نزعم أن الطفل الذى ينشأ فى بيئة صالحة ، يغترف الأبوان فيها من

مناهل العلم ، ويحاكى الأطفــال الآباء فى طلب العلم والتقرب الى الحق ··· كيف يمكن أن نزعم أن الطفل فى هذه الأسرة ، يمكن أن يخرج الى الحياة فاسدا مفسدا ··

ان التبرير الوحيد لانحراف الطفل ، فى أسرة زعيمها من العلماء ، هو تقصير هذا الأب أو اهماله ، أو زواجه المتكرر مع عدم العدل بين الزوجات والأولاد ··· وبذلك لا يمكن أن يقال للأب المهمل أو الغير عادل أو المقصر فى حق أولاده ، أنه عالــم على الحقيقة ·· الا أنه يمكــن أن يكون للأب عــذره ، اذا لم يتسنى له تربية ابنه لظروف خارجة عن ارادته ، كوفاته مثلا ، وقيام الأم الجاهلة برعايته ، فتفســده بجهلها وقصور فهمهــا وطيش عقلها ··

أما القــول بأنه يخرج من ظهر الفاســد عالم ، فهو قــول لا يقل سخفا عن سابقه ، اذ أنه كيف يمكن أن تترعرع البذرة فى أرض فاسدة التربة ، وغير صالحة للزراعة ، وبالمثل كيــف ينشأ الطفل فى جو فاسد ، ثم يخرج من هذه البيئــة الفاســدة عالمــا ··

لا يمكن أن يتم ذلــك الا اذا استأصل هذا الفساد بشــكل أو بآخر مثل أن ترعــاه أم فاضلة ، أو يربى الطفل بعيــدا عن الأب الفاسد أو يموت هذا الفاسد فلا يكون هناك تأثير ضار فى تربية الطفل ·

أدب النفس فى الاســلام

لا يقر الاســلام المـربى الذى افتقد هـو نفسه التربيـة الاسلامية الصحيحة ، فلا يقبل الدين القيم مربيا للمسلمين من غير عقيدة الاسلام ، وبذلك لا يصح أن يربى غير المسلم مسلما ، فالتربية تعليم وتوجيه وارشـاد ، وتوعية وغـرس للمفاهيم وتلقين للآداب ، وتبصير بالقيم والأخلاقيات والمثل العليا ...

ولكل أمة شرعتها ومنهجها فى الحياة وأسلوبها فى التربية والتعليم ، ولكل عقيدة مفاهيمها وغاياتها ، وأهدافها وآدابها وسلوكها ، ونظرتها للدين والدنيا لذلك فان المربى الذى تربى فى مجتمع لا يحمل راية الاسـلام ولا يؤمن هو نفسه بشـريعة الله ودينه القيم ... لا يمكن أن يسلم اليه فلـذات أكبادنا ، ليشوه عقيدتهم ، ويفتنهم بزخرف القول ، فيحاكونه ويقلدونه لحسن ظنهم به ، وثقتهم فى علمه واعتقادهم فى خبرته ، وهم لم يبلغوا بعد السن ، التى تؤهلهم للحكم على فساد من يلقنهم به من صحته ...

فالتربية نوع من الولاية على الصغير ، والمربى بمثابة الأب الروحى له ، فيصبح المعلم والموجه والقدوة ، فاذا كـان فاسد الطبع ، منحرف الأخلاق ، مشركا أو ملحدا أو صاحب عقيـدة غير الاسلام .. سعى بوعى أو بغير وعى ، عن قصد أو بـدون قصد الى غرس مفاهيمه ومثله واتجاهاته ، وأفكاره وعقائده ، فى نفس الصغير ، فيخرج الى الحياة وقد اهتز ايمانه ، وتذبذبت قيمه وافتقد مفاهيمه ، واحتـار بين ما تعلمـه من والديه ، وما لقنه ايـاه معلمه ومربيه ... ونشأ بذلـك ذا شـخصية

متمزقة ، وفكر ملوث ، وسلوك متناقض ، وعقلية متشككة مرتابة فى كل شىء حولها

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم »
« المائدة : ٥١ »

لقد قامت المدارس التبشيرية فى مصر وسوريا ولبنان ، وبعض البلدان الاسلامية ، بمهمة التربية والتعليم ، لأبناء الأسر المسلمة ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، ووضعت المناهج الدراسية التى توافق مخططاتها ، وذلك لغرض خبيث لئيم ، وهو تشكيك المسلم فى عقيدته ، ومحو قيم الاسلام وتعاليمه من نفوس المؤمنين ..

طغت اذن المدارس التبشيرية بهذا النوع من الاستعمار الفكرى ، على عقول أبنائنا وبناتنا بغية تشويه حقيقة الاسلام فى أهله ، عندما فشلت فشلا ذريعا فى تنصير المسلمين .. وأغوائهم للدخول فى النصرانية ...

ولقد نشأ جيل من الشباب للأسف الشديد ، ذا شخصية مزدوجة ، وعقيدة مختلطة وعقلية مشتتة ، وقد تأثر بالتربية النصرانية ، وتعاطف مع مناهجها وأفكارها ، يدافع عن آرائها ومعتقداتها أكثر من دفاع المبشرين أنفسهم عنها ...

ان الآيات القرآنية تشتمل على نصوص صريحة ، لا تأويل فيها ، تأمر المؤمنين ألا يجعلوا من الكفار وغير المسلمين أولياء .. منها قول عز من قائل :

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين »
(آل عمران : ٢٨)

« الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا »
(النساء : ١٣٩)

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء »
(المائدة : ٥٧)

من هذا المنطلق القرآنى يتوجب علينا أن نوجه ثقافتنا ، وأن نتصارح بدون حرج فى أمور تعليم أبنائنا وبناتنا ، ونخطط بوعى سليم وادراك عميق النظم التربوية التى أمرنا تعالى بتطبيقها .. وجعلها أصولا لثقافتنا ومفاهيمنا وأخلاقياتنا ..

أما الزعم بأننا متخلفون عن الشرق الشيوعى والغرب الوجودى ، فهذا ناتج بالدرجة الأولى من عدم ثقتنا فى أنفسنا وعلمائنا ومفكرينا .. الأمر الذى يجعلنا فى اضطرار دائم للاستعانة بغير المسلمين ، ليضعوا لنا مخططاتنا التربوية ، ونظمنا التعليمية ... ونسلم لهم القياد للاشراف والرقابة على مدارسنا ومعاهدنا ومؤسساتنا الثقافية .

والغريب أننا نتوهم أننا نستفيد الكثير من أصحاب الحضارة الغربية ، عندما ننقل نظمهم ومفاهيمهم ومناهجهم .. والحق أننا نبذل الجهد والمال ، وكأننا نضع كل ذلك فى جراب

ممزقة ، وأوعية متهدلة ٠٠ فلا نحصد غير العرق والدموع ٠٠

علينـــا اذن أن نرجـــع الى تراثنـــا ، وأن نراجع مناهجنـــا التعليمية من خلال منظار الشريعة الســـمحاء ٠٠ وأن نتفحص ما يقـــدم الينا من أفكـــار وآراء ، فحص العالم اللبيب ، حتى يتخرج أولادنا ، وقد اســـتعدوا بسلاح الايمان لمواجهة الحياة ، وتفهموا المصلح من المفسد ٠٠

ولاسبيل الى ذلك الابالتربية النفسية الصحيحة ٠٠٠

اختيــار المربى الصــالح

يشبه الغزالى الانسان فى علمه ، كحاله فى جمع الأمـوال ، ويقسم طالب العلم الى أربعة أحول ، كمـا يقسم صاحب المـال الى أربعة احوال (١) .

فصاحب المال اما أن يكون مستفيدا بالمال ، فيكون متكسبا به ، أو مدخرا لما اكتسبه ، فيكون غنيا عن السؤال ، أو منفقا على نفسه فيكون منتفعـا به ، والرابع أن يكـون باذلا لغيره ، فيكون سخيا متفضلا ، وهذا هو أشرف أحوال صاحب المال .

وكذلك العلم ، فاما ان يقتنى الانسان العلم ، كمـا يقتنى المال فهو فى حال طلب العلم واكتسابه ، ثم أن هناك حال لتحصيل العلم يغنى عن السـؤال ، ثم حـال التفكر فيمـا حصله من علم والتمتع به ، ثم حال ارشاد وتبصير ، وهو الحال الرابع ، وهـو أشرف الأحوال .

والعلم عند الامام الغزالى هو علم وعمل ، فمن علم وعمل . ثم علم العلم ، فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السموات ، وهو بمثابة الشمس التى تضىء لغيرهـا ، وهى مضيئة فى نفسهـا . ويصف الغزالى هذا العالم بأنه كالمسك ، الذى يطيب غيره وهو طيب .

وأما الذى يحصل العلم ولا يعلم به ، فمثله كمثل الكتاب الذى يفيـد غيره وهـو خال من العلم وكالمسن الذى يشحذ غيره ولا يقطع ، أو كالابرة التى تكسو غيرها وهى عارية .

---

(١) الاحياء جـ١ ص : ٩٢ ـ ٩٨ « كتاب الشعب »

ويرى الامام الغزالى ، ان الذى يشتغل بالتعليم ، فقد تقلد أمرا عظيما وخطـرا جسيما ، وان عليه أن يحفـظ آداب العلم ووظائفه ، وقد حددها الامام الغزالى فى الوظائف الآتية :

١ ـ الشفقـة بالمتعلمين وهذا اقتداء بالرسـول صلى الله عليه وسلم فى قوله انى أنا لكم مثل الوالد لولده ٠

« أبو داود والنسـائى وابن ماجه وابن حيان من حديـث ابى هريرة »

(ابو داود وابن ماجه من حديث ابى هريرة)

٢ ـ أن يكون المعلم مقتديا بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا يطلب على افادة العلم أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكرا ، بل يعلم لوجه الله تعالى ، وطلبا للتقرب اليه ٠

٣ ـ ان لا يتوقف عن نصح المتعلم ، وأن يمنعه من التصدى لرتبة لا يستحقها ، وأن ينبهه أن الغرض من العلم ، هو التقرب من الله ، دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، فان العالم الفاجر ، يفسد أكثر مما يصلح ٠

٤ ـ وأما الوظيفة الرابعة ، وهى أدق الوظائف فى التربية والتعليم ، وهى أن على المعلم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق ، ما أمكن ذلك ، بطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة ٠

٥ ـ ألا يقبـح فى نفس المتعلـم العلـوم الأخـرى ، التى لا يدرسها له ٠

٦ ـ أن يبين له ما يقدر على فهمه ، فلا يلق اليه ما لا يبلغه

عقله ، فينفره من العلم ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : « نحن معاشر الأنبياء ، أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم » .

(عن ابى داود من حديث عائشة)

ان على المعلم ، أن يلق على مسامع المتعلم ، الجلى الواضح ، ولا يذكر له أن وراء ذلك نقدا أو رأيا مخالفا يدخره فيما بعد ، فان ذلك يصيب المتعلم بالفتور ، وفى الرغبة فى الجلى الواضح ، ويشوش عليه قلبه ، أن يكون المعلم عاملا بعلمه ، فلا يناقض قوله فعله ، ولا يكذب كلامه سلوكه ، لأن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار ، وان ارباب الأبصار أكثر من ارباب البصائر ، فاذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئا ، وقال للناس هذا سم مهلك سخر الناس منه ، واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه .

الفصل الثانى

للمسلم آداب وأخلاق تعز على غيره معرفتها ، ويفتقر غير المسلمين اليها ، فهى من الله تعالى لرسوله ، ومن الله ورسوله الى الناس أجمعين ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه :

« أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

روا ه ابن مسعود

فأدب المسلم فى القول والفعل والسلوك والحياة ، وهذه الآداب التى يتميز بها المسلم تفرقه عن غيره ، بحيث يمكن أن يحكم المرء عليه من مجرد ملاحظة آدابه وسلوكه وأخلاقياته •

ومن هذه الآداب العظيمة التى يتمثل بها المسلم ، الحياء ، وحفظ الأسرار والوفاء بالعهد ، وانجاز الوعد ، والمحافظة على أفعال البر وأعمال الخير ، واستحباب طيب الكلام مع الآخرين ، وطلاقة الوجه عند لقاء الأغيار ، والأصدقاء ، واستحباب الاصغاء الى الجليس والضيف ، ما دام الحديث ليس بحرام ، والاقتصاد فى الوعظ والتوجيه والارشاد ، والجلوس بوقار وسكينة ، واكرام الضيف واستحباب التبشير والتهنئة ، ووداع الصاحب والصديق عند فراقه ، والدعاء له بالخير ، والاستخارة والمشاورة فى الملمات •

كما أن من آداب المسلم ، التسمية عند أول الطعام ، والحمد لله فى آخره ، ومن أدبه ألا يعيب طعاما ، بل يستحب مدحه ، كما أنه لا يتقدم الى الطعام الا من جانب الطبق الذى يقدم فيه طعامه وليس من وسطه ، كما أنه يستكره أن يأكل متكئا ، ويستحب أن

يأكل بثلاثة أصابع ، كما أنه للشرب آداب ، فيستحب عند الشرب أن يتنفس ثلاث خارج الاناء الذى يشرب منه ، ويستكره الشرب من فم الاناء مباشرة ، كما يستكره النفخ فى الشراب ، ويستحب أن يكون ساقى القوم آخرهم شربا .

وأما فيما يتعلق بأدب اللباس ، فيستحب الثياب البيضاء ، والتوسط فى اللباس ،ويحرم على نفسه لباس الحرير بالنسبة للرجال ، الا أن يكون به مرض جلدى .

وللنوم أيضا آداب فهناك آدب فى الاضطجاع وأدب المجلس والجليس .

كما أن للمسلم آداب فى السلام ، ولافشاء السلام فضل ومكرمة ، ويستحب اعادة السلام والبدء به .

وللمسلم قواعد وأخلاق فى الاستئذان ، وآداب فى الدخول والخروج ، فيجب عليه الاستئذان عند دخول بيوت الأغيار ، وأن ينتظر حتى يؤذن له بالدخول ، أو يرجع اذا لم يؤذن له .

وللمسلم آداب فى عيادة المرضى ، فعليه أن يسأل عن المريض ، وعن حاله وعما اذا كان أهله يحتاجون الى معاونة أو مساعدة .

كما أنه يجب على المسلم أن يودع الميت ، ويستحب أن يصلى عليه صلاة الجنازة ، وأن يحضر دفنه ، وأن يلقن المحتضر لا اله الا الله ، وألا يذكره الا بخير ، وأن يعظ المسلمين عند القبر وأن يتصدق على الميت . وفى السفر آداب عظيمة ، ويستحب فيه الرفقة والدعاء والصلاة عند السفر ، كما أنه عند رجوعه من

السفر ، يستحب أن يقــدم على أهله نهارا ويستكره أن يقــدم عليهم ليلا ، كما يحرم سفر المرأة بمفردها ٠

ويحــرم على المسلم الشــفاعة فى الحدود ، كــأن يطلب من القاضى تبرئة القاتل والسارق ، كما ينهى عن التغوط فى طريق الناس أو التبول فى الماء الراكد ٠

ومن آداب المسلم كراهية تفضيل الأب لأحد أولاده فى الهيئة أو المعاملة ، أو صرف المال فى غير وجوهه الشرعية ، كما ينهى عن اشهار السلاح على مسلم أو تخويفه أو نحو ذلك ٠

ومن الآداب الاسلامية كراهيــة خــروج المسلم من المسجــد بعد الآذان وقبل أن تنعقد الصلاة ٠

ويكره فى الاســلام الخروج من مدينــة أو بلدة وقع بهــا الوباء ، كما انتساب الابن لغير أبيه ٠

ومن اخلاقيات المسلم الكرم والجود ، والقناعة والاقتصــاد فى المعيشة والانفــاق ، والنهى عن البخل والشــح ، ويســتحب الايثار والمواساة ، وكذلك التنافس فى أمور الآخرة والاستكثار مما يثيرك به المسلم فى دنياه وآخرته ٠

كما أن من الآداب الاسلامية ، توقير العلماء والكبار ، وأهل الفضل والتحذير من ايذاء الصالحــين ، واستحباب العزلة عنــد انتشار الفساد فى المجتمع ٠

كما يحرم على المسلم الكبر والاعجاب بنفسه ، ويستحب له احتمال الأذى والعفو والاعراض عن الجاهلين ٠

كما أن من الآداب الاسلامية وجوب طاعة ولاة الأمور فى غير معصية الله ·

وتلك الآداب التى سنذكر بعضها فى الصفحات التالية بالتفصيل ، هى جواهر وفصوص نادرة فى الأخلاقيات والمعاملات بين المسلم وأخيه المسلم ، وبين المسلم وغير المسلمين ·

فالمسلم قدوة حسنة لغيره ، فاذا شاهد غيره مكارم أخلاقه ، وأدبه ، حاكاه وقلده وتطبع بطباعه ، واستحسن الأخذ عنه ، وربما يصل غير المسلم الى التصديق بدعوته والايمان بالله ورسوله ·

ومن القصص المعاصرة ، التى تحكى عن الآداب الاسلامية ، أن فيلقا من الجيش التركى ، أرسل فى حرب كوريا ، فكان الأتراك يقسمون أنفسهم عند مواقيت الصلاة ، فاذا ما أذن المؤذن للصلاة ، دخل قسم منهم الى الصلاة وبقى قسم فى مواجهة الأعداء ، حتى اذا انتهى القسم الأول من الصلاة ، وقف للدفاع ، ودخل القسم الآخر الى الصلاة ·

وتعجب الكوريون من هذه الآداب الاسلامية حتى أن بعضهم وهم الأعداء ، كانوا عندما يسمعون الأذان ، وتكبيرة الصلاة ، وترتيل القرآن ، يتأثرون غاية التأثر ، ويذرفون الدموع ·

وعندما انتهت الحرب ، تقرب بعضهم الى الأتراك ، ليتعلموا شيئا من أمور الدين ، واذا بعدد غفير منهم يدخل الى الاسلام (١) ·

---

(١) تقابل المؤلف مع عديد من هؤلاء الكوريين ، الذين أسلموا ، وذلك بمقر جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ، وذكر له بعضهم سبب دخوله الاسلام ومنها هذه الرواية ·

ان الآداب الاسلامية قمينة بأن تكون هى الرائدة لأخلاقيات هذا العصر لما تشتمل عليه من فضائل وما تتضمنه من قواعد فطرية ، تواكب العقل الرشيد والنفس المستقيمة ، والقلب السليم ٠

فتحية الاسلام ، وهى السلام ، لا نجد لها مثيلا فى الآداب الغربية ٠ فاذا قابل انسان انسانا ، فى فرنسا المتحضرة ، لا يبادله السلام الا اذا كان هناك بينهما منفعة ومصلحة متبادلة ٠ حيث غلبت على النفوس المادية المطلقة ، وانمحت أواصر المودة والمحبة بين الناس نتيجة للتكالب على الرغبات ، الأنانية ، والمطالب الشهوية ٠

فما أحرى المسلمون أن يرجعوا الى هدى نبيهم ، ويعملوا بأمر الله وينتهوا عما نهى عنه ، ويتمثلوا بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو القدوة الطيبة لكل زمان ومكان ، ولا يستطيع أحد من الشرقيين أو الغربيين ، المعاصرين أو القدماء ،أن ينكر أن أخلاق الرسول وآدابه ، هى أفضل الأخلاق والآداب فى كل عصر ٠

ففى كتاب (الخالدون مائة : أعظمهم محمد) ، يظهر كاتبه وهو أوربى غير مسلم ، بعد دراسة مستفيضة للعظماء والعباقرة وبعد دراسته لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، انتهى الى أنه أعظم شخصية فى العالم ، القديم والحديث ، بلا منازع ، وهذه النظرة محايدة من رجل ليست عقيدته الاسلام ٠

(١) آداب المائدة :

١ ـ طريقة الجلوس :

يستقى المسلم آدابه فى هيأة الجلوس للطعام ، من القدوة المباركة متمثلا بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم • ويروى (١) عنه قوله :

« لا آكل متكئا ••• وقال : انما أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد »

وروى ابن ماجه فى سننه : أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه •

وقد فسر الاتكاء الذى يقصده الرسول صلى الله عليه وسلم على أنه الاتكاء على الجنب ، فانه يمنع مجرى الطعام الطبيعى ، ويعوق الغذاء عن سرعة نفوذه الى المعدة ، ثم أن الاتكاء على الجنب يضغط على المعدة فلا يسهل فتحها للغذاء ، بالاضافة الى أن المعدة تميل ولا تبقى منتصبة ، الأمر الذى يعوق وصول الغذاء اليها •••

وهذا الوضع عند الأكل ، وهو الوضع الذى يشبه جلوس العبد ، فى مقام الرب ، معناه الأدب مع الله الذى انعم عليه بهذه النعم التى يتغذى منها ويصح بها بدنه ، وبالاضافة الى ذلك أن هذه الجلسة هى جلسة طبيعية يكون الجسم فيها مستعدا لقبول

(١) زاد المعاد ـ ابن القيم الجوزية جـ٣ ص ١٣٧ وما بعدها

الطعام حيث يكون منتصبا انتصابا طبيعيا .. كما تكون آلات الغذاء وآلات النفس فى وضعها الطبيعى أيضا ...

فأدب الطعام يستهدف الصحة البدنية والنفسية جميعا ..

٢ ـ طريقة الأكل :

وقبل أن يبدأ المسلم طعامه يذكر اسم الله تعالى فان نسى فعليه أن يذكر : بسم الله أوله وخره (١) ، من الآداب الاسلامية فى المأكل ، استخدام الأصابع الثلاث ، وهذا أنفع للآكل ، فان الأكل بأصبع واحدة أو أصبعين لا يستلذ به الأكل ولا يشبعه (٢) الا بعد طول وقت ، ولا تفرح المعدة ولا آلات الطعام بما ينالها فى كل أكلة .

كما أن الأكل بالأصابع الخمس كلها ، يوجب ازدحام الطعام على المعدة ، وعلى الآلات (كالأسنان والفم) وربما أنسدت الالات من كثرة الطعام ، فأصابت الآكل بأذى عظيم ، أو دفعت الآلات الى المعدة الطعام الكثير ، الذى لا تقوى على احتماله ، فلا يجد الأكل أى لذة فى اكله .

والغريب أن الأوربيين بخاصة ، والأمريكيين بعامة بدأوا يستحسنون الأكل بأصابعهم الثلاث ، بدلا من استخدام السكاكين والشوك والملاعق حيث ثبت لهم أن هذه الأدوات المعدنية ، يعلق بها كثير من الجراثيم مهما نظفت ، ومن ثم تنتقل بواسطتها الى المعدة فتسبب لها الأمراض المتعددة .

---

(١) المرجع السابق

(٢) رواه ابو داود الترمذى مع تغيير فى اللفظ وقال حديث صحيح حسن

فى أدب الشراب :

كان من هدى الرسول صلى الله عليه وسلم الشرب قاعدا ، لكن صح عنه أنه شرب قائما ، ومعنى ذلك أن الشراب جائز مع الوقوف ، لكن يستحسن الشرب مع الجلوس ٠

وللشرب فى حالة الوقوف أضرار ، منها أن لا يرتوى بـه انسان ، لما أن المـاء لا يستقر بالمعـدة حتى يقسمه الكبـد على الأعضاء ، بل ينزل سريعا الى المعدة ، مما يخشى منه أن يبـرد جدارها ، ويسرع الى النفوذ الى أسافل البدن ، وهذا ما يضره ، بالشارب ٠ لكنه اذ شرب قائما لحاجة أو ضرورة ، لم يضره ، ولا عبره بالعوائد فهى طبائع ثوانى ، ولها أحكام أخرى ٠

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم اذ شرب تنفس ثـلاث ، وذلك اروى للمرء ، والتنفس يكون خارج القدح ثم يعود مرة أخرى الى الشراب ٠

ولهذه الطريقة فى الشرب فوائد جمة هامة ، وهو الرى من شـدة العطش ، اذ التوقف يهيأ للمعـدة الملتهبة دفعة دفعـة ، فتسكن الدفعـة الثانية ماعجزت عنه الأولى ، والثالثةماعجزتعنه الثانية ٠ وهذه الطريقة أسلم لحرارة المعدة ، وأبقى عليها من أن يهجم عليها الماء البـارد دفعة واحدة ، فانه لا يروى المعـدة لمصادفته لحرارتها ٠

كما يخشى منه أيضا فساد خراج المعدة والكبد ، والوقوع فى أمراض رديئة خصوصا بالنسبة لسكان المناطق الحارة أو فى زمن الصيف ٠

(٢) أدب اللباس

لقد كان لباس الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، فلا يطيل أكمام الازار أو القميص ، ولايقصره عن الحد (١) المعقول ٠

كما كان يستحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللباس الأبيض ، نظرا لأنه قليل الحمل للدنس ، ويظهر فيه بوضوح الوسخ اذا علق به شيء منه ٠ ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ، فيما يروى عنه قوله :

«البسوا من ثيابكم البياض فانها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم »

(عن ابن عباس رضى الله عنه) (٢)

لكن بعض الصحابة رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فى حلة حمراء ، وفى ذلك يقول الصحابى البراء رضى الله عنه :

« ولقد رأيته فى حلة حمراء ما رأيت شيئا قط أحسن منه » (٣)

كما أن بعض الصحابة قد رأى الرسول فى عمامة سوداء ، يخطب بها الجمعة ،يقول : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، وعليه عمامة سوداء ٠

« رواه مسلم »

---

(١) زاد المعاد ٠ الجزء الثالث ص ١٤١ — ١٤٢ — المطبعة المصرية

(٢) اورد هذا الحديث الامام النووى فى رياض الصالحين وروى الحديث ابو داود الترمذى وقال عنه حديث حسن ٠

(٣) هذا الحديث متفق عليه ٠

استحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس الثياب البيض ، لكنه لبس العمامة السوداء ، والقميص الأحمر كما لبس الشعر والصوف وغيرها ...

والمستحب شيء يلبسه في العادة ، كالقميص الأبيض ، الا أنه لا يمنع المسلم من لبس قميص بلون آخر ، بحسب الظروف والحاجة اليه ، ما دام لا يخرج عن حد الاعتدال .

فان من الآداب المرعية في اللباس ألا يسترخي اللباس فيكون طويل الأكمام بشكل يلفت النظر ، أو يكون قصيرا يظهر العورة ، أو يخدش الحياء العا م، كما لا يكون اللباس مما يبعث على الخيلاء كلبس الجبابرة ، وفى هذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

« لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ازاره بطرا »
«متفق عليه »

وهذه من الآداب الرفيعة لأن الذى يجر ثوبه لابد أن يسير فى خيلاء حيث ينشغل به ، لأن المبسل ازاره (ثوبه) مثله كمثل المنان والمسرف والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ..

التوسط فى اللباس :

والقاعدة الاسلامية فى اللباس ، التوسط فيه ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يرى أثر نعمته على العبد ، فلا يشح ويبخل ويقتر فى لباسه ، كما أنه تعالى لا يحب الجبارين والمغترين ، والذين يسيرون فى خيلاء فى الطريق العام ، بملابس قضفاضة .

والأمر كذلك بالنسبة للحرير ، فقد روى الفاروق عمر رضى الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله :

« لا تلبسوا الحرير فان من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة »

(متفق عليه)

وفى حديث آخر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتى » (١)

ومداومة لبس الحرير تميت الرجولة فى الذكر ، وتجعله يتشبه بالنساء فى مشيه وسلوكه ، لما فيه من نعومة الملبس ، الأمر الذى يؤثر غالبا على سلوك الرجل ٠

لكن قاعدة تحريم لبس الحرير على الرجال ، فيها استثناء ، اذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد سمح للصحابى عبد الرحمن بن عوف ، وكذلك للزبير رضى الله عنهما فى لبس الحرير وذلك لاصابتهما بحكة (٢) ، أى حساسية فى الجلد كانت بهما ٠ وهذا يدل على اليسر فى القواعد الشرعية والآداب الاسلامية ٠

ويتضح للمتأمل أن المقصود بآداب اللباس الاعتدال فى كل شىء بما لا يكون مثيرا للآخرين أو يحمل معنى الابتذال أو الاسراف أو الغلو من ناحية ، كما يحمل معنى البخل والتفريط والتقتير من ناحية أخرى ٠

---

(١) رواه الترمذى وقال عنه حديث حسن ٠

(٢) رياض الصالحين ص ٣٤٦

(٣) فى آداب المجلس :

ان من آداب المجلس فى النظرة الاسلامية ، ألا يدخل رجل على مجلس فيقوم له بعضهم ليجلسه مكانه ، فلقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك :

« لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا »

وهذه نظرة عميقة للنفس البشرية ، اذ أن الناس سواسية ، فاذا دخل أحد الكبراء الى مجلس ، وقام له أحدهم ليجلسه مكانه ، شعر الأخير بدنو منزلته أمام الناس ، كما يشعر الكبير بعلو كعبه عليهم ، وهذا ربما يكون من أسباب الفتنة والشعور بالعظمة ، وهذه الأخلاق منافية للخلق الاسلامى ·

لكن اذا خرج أحدهم من مجلس ثم رجع اليه فهو أحق بمقعده ، ان جلس فيه غيره ، وهذا معناه أن الآداب الاسلامية ليست قواعد جامدة وانما تطبق بحسب الظروف والملابسات ، وما فيه مصلحة للفرد والمجتمع على السواء ··

فان دخول أحد الرجال الى مجلس ، يستوجب من ناحية أخرى أن يوسع له فى المجلس ، فيجلس بينهم ، وهذا أيضا يظهر قاعدة أن الناس سواسية ، فلا يتنازل له أحدهم عن مقعده ليجلس ويقف هو ، ولا يترك واقفا فلا يجلس فى المجلس · وهذه آداب رفيعة لا نجد مثيلا لها فى آداب الأمم والشعوب الأخرى ····

واذا جلس الرجـل فيجب أن يكون وقورا فلا يحـدث جلبة وضوضـاء تشـوش على الحاضـرين سكينتهم ، وتفسـد عليهم مجلسهم وهذه من الآداب الرفيعة .

(٤) تكريم اليمين :

من الآداب الاسلامية ، استخدام اليمين فى كل ما هو من باب التكريم ، وأما ما يتعلق بغير التكرم تستخدم فيه اليســار ...

من حديث عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كـان يعجبه التيمن أى استخدام اليد اليمنى وذلك فى التطهر والترجل والتنعل »

لذلك فان من آداب المسلم اقتداء بالرسول صلى الله عليـه وسلم ، استخدام اليمين فى الوضوء والغسل والتيمم ، ولبس الثوب والحذاء والمـلابس ودخول المسـجد ، كذلك من آدابـه استخدام اليد اليمنى فى التسوك (السواك) وتقليم الأظفار ، وقص الشارب وحلق الرأس ، والسلام عند الانتهاء من الصلاة ، والأكل والشرب والمصافحة واستلام الحجر عند الطواف بالكعبة المشرفة ، والأخذ والعطاء ، الى غير ذلك من الأمور التى فيهـا تكـريم .

لكنه من ناحية أخرى يستحب تقديم اليسار فى ضد ذلك ، كالبصاق فيجب أن يكون على اليسار ، والخروج من المسـجد فتقدم الرجل اليسرى على اليمنى ، وعند خلع الخف أو الحذاء ،

---

(١) هذا الحديث متفق عليه .

أو الســراويل والثوب ، والاســتنجاء وفعل المستقذرات ...
وأشباه ذلك ..

وقد ورد فى تكريم اليمين قول عز من قائــل :

« فأمــا من أوتى كتــابه بيمينــه فيقــول : هاؤم أقرءوا كتابيه » **« الحاقة : ١٩ »**

وقوله تعالى :

«فأصحــاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحــاب المشــئمة ما أصحاب المشئمة » **« الواقعة : ٨ ، ٩ »**

وروى عن حفصــة رضى الله عنهــا أن الرســول صلى الله عليه وسلم كان يجعــل يمينه لطعامه وشرابه وثيابه ، ويجعــل يساره لما سوى ذلك »

(رواه أبو داود)

أدب السلام :

ان الاسلام خير كله ، فهو أخلاق حسنة وآداب طيبة ، وخير الاسلام يظهر للمتأمل فى التعاون والمحبة والايثار وانكار الذات والتواضع للآخرين ، وتحية الاســلام السلام وهو جامع لآدابه وأخلاقياته ، فهو عطاء وتقديم للاحسان فى صورة معنوية كما أن الطعام يقدم للضيف والمحتاج والضعيف فى صــورة مادية ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سأله أحد الصحــابة ، أى الاســلام خير ؟ (أى أكثر ثوابا عنــد الله) قــال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »

(متفق عليه)

ان الجود والعطاء والكرم والسخاء ، من أخلاقيات المسلم ، والتى لا نجد لها نظيرا فى الشعوب والأمم الأخرى ، التى لم تتكشف الغايات العظيمة من هذه الأخلاق والآداب ٠

فان تقديم اليد بالمعونة ، يؤلف بين القلوب ، ولو بشربة ماء أو كسرة خبز ، كما أن الاحسان الى الغير بالسلام ، مما يدخل على القلوب بالبهجة والسرور ، ويشعر بالأمن والطمأنينة ٠ وعلى النقيض من ذلك فان الشح والبخل ولو فى السلام ، يميت فى القلب المودة والرحمة ، ويقضى على أواصر التعاون والترابط ٠

لقد كان تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق ، يقيم مائدة تحف بها كل أطايب الطعام ، ويدعو اليها المختلفين معه فى الرأى ليحل المشاكل المستعصية ، فلا شك أن الدعوة الى الطعام تقديم لليد بالخير والمودة ، ويعد مصافحة ومسالمة للقلوب والجوارح ، وربما يكون له الأثر النافع ، لفض الخلافات فى الرأى ، والتقريب بين وجهات النظر المتعارضة ٠٠٠٠

ان البدء بتحية الاسلام : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تمييز للمسلم عن غيره ، وبسط آداب الاسلام على الملأ ، ليعرف غير المسلم هذه الآداب الرفيعة والأخلاق العظيمة ٠

كما أن تحية الاسلام تستهدف معانى متعددة :

١ ـ تذكير الانسان بالله وتأنيس له به ٠

٢ ـ تأكيد على رابطة الأخوة فى الاسلام ٠

٣ ـ ادخال البهجة والأمن على المسلم ٠

٤ ـ تقريب القلوب بعضها من بعضها ، واذكائها بالمودة والتعاطف •

٥ ـ يحمل السلام معنى الرحمة بين العباد ، واقتداء برحمة الله مع عباده •

٦ ـ تبادل السلام تكريم للانسان فى الارض والسماء •

كما أن للسلام غايات أخرى نبيلة ، وذلك وارد فى عديد من آيات الله البينات :

« واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها »

« النساء : ٨٦ »

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها »

« النور : ٢٧ »

« فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة »

« النور : ٦١ »

ومن هذه الآيات يستنبط معانى جليلة ، وتزيد المؤمن ايمانا بربه ، وتجنبه الوسواس والخواطر النفسية ، والغواية الشيطانية •

فان القلب اذ أنشغل بخير ابتعد عن الشر فاذا شغل بالاحسان الى الآخرين بالسلام ، وكان الرد احسانا باحسان ، وسلاما بسلام ، طرد ما فى القلب من هواجس ، أو مخاوف أو خواطر نفسية ، أو وسواس • ربما تكون عالقة بقلب أحد المحيين ، فاذا تبادل الطرفين السلام ،ذاب ما بينهما من توجس

أو ريبة أو خوف ، وأمن كل منهما للآخر · ولذلك يؤكد الله تعالى ، على أن يكون رد السلام بأحسن منه ، أو على الأقل مثله ، حتى لا يترك فى القلب الا الوقع الحسن والأثر الطيب ·

ويبين الله تعالى فى بعض آياتــه أن دخول الانسان بيــت الأغيار ، يستوجــب عليه أن يدفع عنهم الحــرج وأن يعــدهم اعدادا حسنا لاستقباله ، لذلك فان عليه أن يدخــل الأمن الى النفوس بافشاء السلام واعــلامهم باسمه ، وادخــال البهجـــة والمودة الى قلوبهم ، وأشعارهم أن زيارته للخير ، وذلكمن الأدب الرفيع فى الأخلاق الاسلامية ·

وللسلام معنى عميق فيمــا يتعلق بدخول الانســان لبيته ، فان عليه أن يفشى السلام ، حتى وان كان يعلم أن لا أحــد فى بيته ، ليرد عليه سلامه ··· وفى تصورنا أن الغاية من السلام على النفس كما أمر تعالى ، انما هى فى تسكين النفس ، وبث السكينة الى القلب ·· فلربمــا تلازم العائــد الى بيتــه بعض الخواطر المذمومة ، أو الوســاوس ، كأن يتوهم أن بيتــه شرا ، أو أن هناك مصيبة تنتظره ، أو حدث شر لأهله أثناء غيابه ·· كل هذه الأمور يمكن أن تشغل ذهنه وتتسلط على قلبه ، فيدخل الى بيته مهموما مغموما مكروبا ·· فينشر ألهم وألغم وألكرب على زوجه وأولاده بدون سبب ظاهر ····

أمــا اذا دخــل على بيته وهــو آنس بالله ، مقــدما تحية الاسلام التى تشتمل على السلام والرحمة والبركة ، كان لهــذه المعانى أثر عظيم على النفوس ····

لذلك فان التحية اذا اقتصرت على السلام ، كان ثوابهــا

عشر درجات ، واذا اشتملت على السلام والرحمة ، أى يقول : السلام عليكم ورحمة الله ، كان ثوابها عشرين درجة ، وأما اذا زاد « وبركاته » كان ثوابها ثلاثين درجة (١) ٠

لذلك فانه يستحب السلام عند الدخول أو الخروج من المجلس ، أو مفارقة الأصدقاء ، أو وداع الأهل والاصحاب ، وعند الاستئذان ٠

ويرتبط السلام كأدب من آداب الاسلام بالمصافحة ، وهى الافضاء بصفحة اليد الى صفحة اليد وهى تأكيد للمحبة ، وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على المصافحة :

« ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان الا غفر لهما قبل أن يفترقا »

« رواه أبو داود »

واذا كانت المصافحة تقريب للقلوب وتأكيد للود القائم بين المتصافحين ، فان التقبيل مما هو منهى عنه عند التلاقى ، ويرفض الاسلام الطرق المستحدثة كالانحناء ، ويعتبر بدعة من البدع ٠

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ردا على رجل سأله :

ـ يا رسول الله ٠٠٠ الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحنى له ؟

---

(١) فى المعنى ورد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدذكر هذا الحديث مع اختلاف فى اللفظ ابو داود الترمذى وقال عنه حديث حسن ٠

قال : « لا »
قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ (أى يعانقه ويقبله فى بدنه)
قال : « لا »
قال : أفيأخذ بيده ويصافحه ؟
قال : نعم

« رواه الترمذى »

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل زيد بن حارثة (١) كما كان يقبل الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وليس معنى ذلك أن هناك اختلافا فى الأحاديث ، انما المستحب أن يلتقى الرجل بأخيه فيصافحه ، لكن الرحمة توجب أن يقبل الأب أبنه عند لقائه ، لبث حبه ومودته له ، كما أن زيدا كان بمثابة الأبن للرسول فقد رباه صغيرا ·

فالقاعدة الاسلامية فى آداب المصافحة ، عدم التقبيل لكن التقبيل استثناء من هذه القاعدة ، عندما يكون بين أفراد الأسرة الواحدة ، فانه يذكى صلة الرحم ، ويقوى عرى المحبة بين افرادها · ومن آداب السلام ، أن يسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد والقليل على الكثير ، وأن أفضل الناس من يبدأ بالسلام · وهكذا فان الآداب الاسلامية ، مستقاة من الله سبحانه و تعالى تأدب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت هى السنة المباركة ، التى يستن بها المسلم فى غدوه ورواحه ، وفى مأكله ومشربه ولبسه ، وفى سفره ودخوله على بيته ، وفى أخلاقه وسلوكه ومعاملته لأهله واخوانه ورفاقه ·

---

(١) رياض الصالحين · ص ٣٦٨

(٦) آداب السفر

للسفر آداب جليلة فى النظرة الاسلامية ، لا نجد لها مثيلا فى آداب الشعوب والأمم الأخرى . فمن آداب السفر كما أوصى بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يستحب فيه الخروج أول النهار ، تأكيدا لحديث رسول الله (صلعم) :

« اللهم بارك لأمتى فى بكورها » (١)

فالتبكير فى السفر فيه بركة ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبكر فى ارسال الجيوش ، فاذا بعث سرية أو جيشا ، بعثه أول النهار . كما كان التجار يرسلون تجارتهم أول النهار ، تيمنا بوعد الرسول بالخير والبركة فى أول النهار (٢) .

ويستحب فى السفر الصحبة ، اقتداء بقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لو أن الناس يعلمون من الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده » ..

رواه البخارى

وللسفر آداب أخرى ، مثل أن يولى أحدهم عليهم أميرا أو قائدا ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) عن صخر بن وداعة الغامدى ، وذكر الحديث ايضا صاحب : رياض الصالحين ص ٣٨٩

(٢) روض الرياحين ص ٢٩٠

« اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم »
(رواه أبو داود)

ويستحب فى السفر ، أن يكون العدد أكثر من ثلاثة ، أى أربعة فأكثر ، وكلما كان العدد فى السفر أكثر ، كان ذلك أفضل حتى يتعاونوا على الخير ، ويقيموا الصلاة ، فاذا نسى أحدهم ذكره الآخر ، بالاضافة الى أن المسافر بالليل وحيدا ، يمكن أن يفتن فى السفر أو يغويه الشيطان ، وكذلك الراكبان أو المسافران والثلاثة • لكن الثلاثة أفضل من الاثنين ، والاثنين أفضل من الواحد والأربعة أفضل منهم جميعا •

وعلى المسافر اعانة صاحبه ، وذلك تأكيدا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

« كان الله فى عون العبد ، ما كان العبد فى عون أخيه » (١)

ويستحب أن يزود المسافر صاحبه بالزاد أو بالصدقة ، اذا لم يكن عنده زاد ولا مال ، كما أن على المسافر آن يتعوذ من وعثاء السفر عند سفره • وعن أبى هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

« ثلاثة دعوات مستحبات : دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده »

(رواه أبو داود)

والسفر قطعة من العذاب ، اذ أنه يمكن أن يمنع عنه

---

(١) روض الرياحين ٣٩٤ ـ اليافعى

الطعام والشراب والنـوم الذى اعتاد عليـه ، لذلك يستحب اذا قضى الانسان مهمته فى السفر ، التعجيل بالرجوع الى أهله ٠

ويستحب حين الرجوع من السفر ، اذا أطال الانسان الغيبة على أهله ، ألا يطرق باب أهله ليلا ، وذلك تأكيدا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اذا أطال احدكم الغيبة فلا يطـرقن - المجىء - أهلـه ليلا »

(متفق عليه)

والمقصود أن عودة المسافر الى أهله ، تستحب أن تكون قبل الليل حتى لا يتعب زوجه وأولاده بالقـدوم المفاجىء ، الا اذا أعلمهم بقدومه حتى يعدوا لاستقباله ٠

وينظر الاسلام لسفر المـرأة وحدها على أنه من الأمـور المحرمة ويؤكد ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لا يحل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر وحدها ليوم وليلة الا مع ذى محرم »

(متفق عليه)

ونظرا لأن السفر الآن أصبح أمرا ميسرا ، وانه يمكن أن يجوب الانسان من الأقطار فى أقل من مسيرة يوم ، فان سـفر المرأة وحدها من بلد الى بلد أصبح لا يتطلب أكثر من ساعات قليلة ، والمقصود بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه يحرم خلوة المرأة برجل أجنبى عنها ، لذلك يستحب أن تسافـر المرأة مع ذى محرم ، خوفا من الفتنة ، وحتى لا تكون معرضـة

للغواية • وفى هذه الاداب الاسلامية ما يصلح أن يتمثل به المسلم المعاصر ، فلا يقلد أخلاقيات الغرب الرأسمالى ولا الشرق الشيوعى من سفور المرأة وتبرجها ، وسفرها وغيبتها عن بيتها واهلها ، دون رقيب أو حسيب • وهذا ما يساعد على نشر الرذائل والفساد والافساد فى الارض •

(٧) الحيـاء :

يعتبر الحياء من أفعال الخير وأعمال البر ، ومن الآداب الاسلامية الرفيعة ، ولقد مر رسول الله على رجل وهو يعظ آخاه فى الحياء ، فقال صلى الله عليه وسلم :

(دعه فان الحياء من الايمـان) (١)

(متفق عليه)

والحياء هو خلق ، يبعث على ترك القبيح من الأقوال والافعال والاخلاق ، ويمنع من التقصير فى حق ذا الحق ، وقد روى بعض الصحابة أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أشد حياء من البكر فى خدرها فاذا رأى شيئا يكرهه عرفناه فى وجهه (٢) •

وللفتاة البكر عشر حياءات فاذا تزوجت فقدت حياء واحدا ، وبقى لها تسع ، فاذا انجبت الأول فقدت حياء واحداً ، واذا أنجبت الثانى فقد حياء آخر ، وبقى لها سبع حياءات لا تزيد فيها ولا تنقص مهما انجبت بعد ذلك ، فاذا زنت فقدت كل حيائها • • • •

---

(١) اى ان استعماله ما يحمد صاحبه فيه قولا وعملا •

(٢) عن ابى سعيد الخدوى رضى الله عنه وهذا الحديث منفق عليه •

ومن الحياء ألا يسمع الرجل أو المرأة ، قبيح الكلام ، كالسب واللعن ، ولا يجلس المسلم مجلسا ليس فيه وقار أو أدب .. ومن الحياء عدم الاطلاع على أسرار الآخرين ، أو التطفل على الأغيار أو الدخول فيما لا يهم الفضولى أو يعنيه ...

الحياء فى المرأة كنز وفى الرجل فضل ، ومن لا حياء عنده فهو ضعيف الايمان ، اذ الحياء شعبة من شعب الايمان .

والمؤمن عظيم الحياء لأنه يرى نفسه دائما مقصرا مع الله ، مع دوام نعمته وفضله عليه .

وعالمنا المعاصر يحتاج الى الحياء سواء فى الشباب أو الشابات ، فاننا نرى اليوم نماذج للتعرى والسفور والتبرج لدى كثير من الشابات والشباب تغرى الى انعدام الحياء ، واللامبالاة ، وذلك ثمرة فجة للابتعاد عن الآداب الاسلامية الرفيعة التى من أهمها الحياء ...

(٨) عيادة المريض :

من الآداب الاسلامية العظيمة ، المسارعة الى زيارة المريض والسؤال عن حاله ، ومعاونة أهله ، فاذا توفى شيع جنازته ، ومكث عند قبره ودعا له .

يقول البراء بن عازب :

أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم :

بعيادة المريض ، واتباع الجنازة ، وتشميت العاطس ،

وابرار المقسم ، ونصر المظلوم (١) ، واجابة الداعى ، وافشاء السلام ٠

(متفق عليه)

وفى الحديث القدسى أن الله تعالى يقول يوم القيامة : يا أبن آدم مرضت فلم تعدنى ٠٠٠

قال : كيف أعودك وانت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أن عبدى « فلانا » مرض فلم تعده ٠٠

أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ ٠٠٠ (٢)

ان حث المسلم على زيارة أخيه فى مرضه ، يوطد العلاقات الأخوية بوشائج من المودة والمحبة ، ولا شك فى أن المرض ضعف وأن معاودة المريض فى ضعفه ، اشعار له بالأخوة فى الله ، وشد أزره لمغالبة المرض وعدم الاحساس بالوحدة ، ونفور الناس عن المريض وابتعادهم عنه ، يولد الكراهية والبغضاء ويورث الحقد ، فيشعر المريض أن الناس يتخلون عن الضعيف ويحبون السليم القوى ، فيفقد بذلك الثقة فيهم ، ويعاملهم بنفس هذه المعاملة اذا كتب له الشفاء ٠

ولمعاودة المريض غايات سامية ، وأن ذكر بعض الأدعية الطيبة يثلج قلب المريض ، فقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مريض فقال له :

---

(١) ابرار القسم وكف الظالم عن المظلوم ٠

(٢) للحديث بقية ، وقد رواه مسلم ٠

« لا بأس . طهور ان شاء الله »

(رواه البخارى)

وهـذا الدعاء الذى دعـا به الرسـول صلى الله عليه وسلم للمريض ، يخفف عنه آلامه ويذكـره بثواب الله عليه ، فـان ما يعانى منه المريض من تعب ونصب ومعاناة فى بدنه ، يعتبر كفارة لما اقترفه من ذنوب ، كما أنه مطهر للبدن .

واذا علم المريض ذلك ووعاه ، فانه بمثابة شد من أزره وتقوية لقلبه ، وسمو بروحه ، الأمر الذى يعاونه على تجـاوز هذه المحنة ، فيستأنس بالله ، ويتحمل الألم فى سبيل التقـرب اليه تعالى ، عسى أن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

الآداب فى الوفاة :

واذا اشتد المـرض ، ويأس المريض من الشـفاء ، وأحس بقرب منيته ، وجب على أهله أن يلقنوه لا اله الا الله ، وفى ذلك ورد قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لقنوا موتاكم لا اله الا الله »

(رواه مسلم)

فاذا انتقل يقول المسلم :

انا لله وانا اليه راجعون

« من حديث رواه مسلم »

ومن الآداب الاسلامية ، أنه لا يجوز النياحة ولا الندب على الميت ، فان ذلك يدخل فى باب الحرام ، أما البكـاء فهو جائز ،

وان وردت أحاديث بالنهى عنه ، حيث أن الميت يعذب ببكاء أهله (١) •

ويرى صاحب رياض الصالحين (٢) أن المقصود بالتحريم هو البكاء الذى يقترن بالنياحة والندب ، أما البكاء بغير ندب أو نياحة فهو جائز •

ولقد بكى الرسول صلى الله عليه وسلم عند وفاة بعض أصحابه وآل بيته وقال عن البكاء : « هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء »
(متفق عليه)

ويستحب وداع الميت وشهود الجنازة والوقوف عند القبر ، وهذا كله له ثواب عند الله •

من تبع جنازة مسلم ايمانا واحتسابا ، وكان معه حتى يدفن • يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك :

يصلى عليها ويفرغ من دفنها (أى بتسوية التراب عليها) • فانه يرجع من الأجر بقيراطين كل قيراط مثل أحد (أى مثل جبل احد) ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فانه يرجع بقيراط »
رواه البخارى

ومن الآداب الاسلامية استحباب التكثير من المصلين على

---

(١) رياض الصالحين ـ الامام النووى ص ٣٧٨
(٢) المرجع السابق

الجنازة ، وجعل صفوفهم ثلاثة فأكثر يقول الرسـول صلى الله عليه وسلم :

« ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجـلا لا يشركون بالله شيئا الا شفعهم الله فيه »

. « رواه مسلم »

للمـؤلف

١ ـ ألفاظ الصوفية — مؤسسة شباب الجامعة

٢ ـ الحكومة الباطنية — دار المعارف

٣ ـ الشريعة والحقيقة — الهيئة العامة للكتاب

٤ ـ نحو علم نفس اسلامى — الهيئة العامة للكتاب

٥ ـ نحو منهج علمى اسلامى — دار المعارف

٦ ـ نحو ثقافة اسلامية — دار المعارف

٧ ـ الكوكب الشاهق (تحقيق) دار المعارف

٨ ـ المسلمون علماء وحكماء — دار المعرفة الجامعية

٩ ـ نحو تربية اسلامية — دار المعرفة الجامعية

تحت الطبـع

١٠ ـ فى الطب النفسى النبوى

١١ ـ محاورات بين العقل والقلب

الخاتمـــة

لم نذكر فى كتابنـــا هـــذا كل نصـــوص وجواهر التربية الاسلامية ، وانما أردنا فحسب ، أن نعين على تفهم منهج وأصول التربية فى الاســـلام ٠

واذا عقدنا مقارنة بلا تعصب أو تحيز ، لوجدنا تفوق منهج التربية الاسلامية بلا شك ـ على مناهج وفلسفات التربية الوضعية والانسانية ٠

ذلك أن منهج التربية الاسلامية كما أشرنا اليــه بين ثنايا هذا الكتاب انما هو يستمد أصوله وحقيقته من النبع الفيــاض الذى لا ينضب ، وهو كتاب الله وسنة رسوله الكريم

ان وجود ثغرات فى فلسفات التربية الغربيــة والشرقية ، وقصـــور فى نظمها ، يجعلنـــا فى حل عن التمسك بمفاهيمهـــا وأصولها ، حيث ثبت عقمها عند التطبيق ، وتهافتها فى التجربة الحية ٠

ان فلســـفات التربية الوضعية ، انما تقننهـــا عقول بشرية تخطىء وتصيب ، بل تخطىء كثيرا وتصيب قليلا ، ولا تحتمـــل المفـــاهيم التربوية ، والقيم الاخلاقية ، الخطأ والصـــواب ، فاذا كانت العلوم الطبيعية والتطبيقية والعملية ، يمكن أن تتقـــدم نتيجة محاولات الخطأ والصـــواب ، بحيث يتمكن عالم الميكانيكا أو الكيمياء ، من الوصول الى نتائج صحيحة فى مجال بحوثه بعد محاولات وتجارب تحتمل الخطأ والصواب ، الا أن ذلك لا يصلح فيما يتعلق بالتربية والاخلاق ٠

فالانسان غير المادة الجامدة أو الالة الصماء ، فاذا لم يكن المنهج سليما ، والوسائل طيبة ، والغايات نبيلة ، فانه من الصعب، بل من العسير أن يصل الباحث والعالم الى السلوك الاخلاقى الواجب الاتباع ، أو يستطيع أن يكون جيلا سليما معافيا من الامراض النفسية والاخلاقية ، أو يحقق نجاحا فى العملية التربوية ·

لذلك رسم لنا الله تعالى فى كتابه المبين ، الاسس التربوية الواجبة الاتباع والقيم الاخلاقية ، التى يتوجب على المسلم أن يضعها أمامه كنبراس يضىء له طريق الحياة ، وبين له القدوة الحسنة التى يجب أن يقتدى بها ويتخلق بأخلاقها ، فأدب رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بخلق القرآن ، ليتزود الناس بسنته ، ويسيروا على طريقه ، ويتعلموا منه منهجهم فى الحياة ، ويتدبروا أمور معاشهم ، ويتصرفوا فى شئونهم بحسب ما علمهم وأدبهم رسولهم الكريم صلى الله عليه وسلم ·

لذلك فقد عرضنا فى فصول هذا الكتاب ، أصول التربية الاسلامية ومنهجها وميزنا بينها وبين المناهج الوضعية التربوية ، وظهر لنا تفوقها فى الفكر والسلوك العملى ·

ثم أوضحنا غاية العملية التربوية الاسلامية وأظهرنا أن من أهمها عدم الشرك بالله واقامة الصلاة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر والاعتدال والايثار والاحسان والوفاء والتزهد واصلاح النفس والطاعة ·

ولكى تتحقق هذه الوسائل تحقيقا عمليا ، بيننا الطرق التى أوضحها العلماء المسلمون كوسائل تربوية ناجحة توصل الانسان

المسلم الى الصلاح والاصـــلاح فى الدنيا والآخرة ، وبيننا أهمية القدوة الحســـنة وكيف يمكن الاقتداء بهـــا ، فأشرنا الى المحاكاة والتكلف والتطبع كعوامل أساسية فى التخلق بالاخلاق الاسلامية، والتخلى عن مرذول العادات ، والتحلى بمحمود الصفات ٠

كما أوضحنا بعض الوسائل الاخرى التى تعين الطالب على التطبع بخلق الاسلام ، وبمكارم الاخلاق مثل الوعظ والموعظة ، والتوجيـــه والارشاد والترهيب والترغيب ، والتمثيل بالقصص القـــرآنى ٠

ثم بينا أثر المسجد فى العملية التربوية ، وما يجب آن يكون عليه المسجد فى هذا العصر من تطور حتى يخدم الشباب والكهول على السواء ٠

كما أوضحنا الاسس النفسية لتربية الاحساس الجمالى لدى المسلم حتى يكون للمسلم موقف من العروض الفنيـــة والاعمـــال الجمالية التى تقدم له ، فيأخذ بما يواكب شريعته الغراء وينبذ ما تحرمه ويستكرهه الدين القيم ، فيسير على منهج الله ويتبين له الحرام والحلال ٠

وللمسلم آداب يختص بهـــا لا نجـــد لهـــا نظيرا فى فلسفات الاخلاق غربية كانت أو شرقية ، فله آداب فى الاجتماع والمأكل والملبس ، والسفر وعيادة المرضى ، وفى حالة الوفاة ، كمـــا له آداب فى المعـــاملات ، وفى الجوار وفى الصـــحبة وفى الكلام مع الكبـــار والصـــغار ٠

ومجمل القول أنه لو تمسك المسلم بالاخلاق والآدابالاسلامية لاستطاع أن يبز غيره اجتماعيا واقتصاديا وماديا ٠

اذ الاخلاق ترتبط بالمعاملات ،كما ترتبط بالانشطة الحياتية جميعا ، ومن ثم فان النجاحات التى يمكن أن يصل اليها الانسان فى الدنيا والآخرة ، انما تتوقف على المنهج الحياتى الذى يختاره ·

فاذا كان هذا المنهج يركز على النجاح فى الناحية الدنيوية أو المادية ، فان نجاحه انما يتعلق بها فحسب · أما اذا كان المنهج الذى يختاره الانسان كمنهج سلوكى وأخلاقى وتربوى ، يربط السعى فى الدنيا بالأخرة ويهتم فى المقام الاول بالتقرب الى الله عزوجل مع السعى فى الدنيا بما أمر الله تعالى ، فانه مما لاشك فيه أن هذا المنهج سيحقق للمسلم الأمن والسكينة والطمأنينة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ·

ان هدفنا من هذا الكتاب، هو تبصير المسلم بالتربية الاسلامية القويمة ، التى اذا اقتدى بها ابتعد عنه القلق والزمت والخوف والوسوسة ، وحل محلها الامن النفسى الذى هو غاية من أعظم الغايات الانسانية ·

ان استخدام الاسس والوسائل الاسلامية التربوية ، والعمل بآداب الاسلام ، سيوصل حتما المسلم الى طريق التوفيق والسداد، وبذلك يرجع كثير من الشباب الذى انحرف عن جادة الصواب ، وانبهر بالفلسفات التربوية المستوردة ، يرجع الى الطريق القويم الموصل الى السعادة فى الدنيا والآخرة ·

فهرست الموضوعات

الموضـــــوع	رقم الصفحة
الباب الرابع : الأسس النفسية لتربية النشء في النظـرة الاسلامية .	٢٢٩
الفصل الأول : ١ ــ معرفة الحلال والحرام .	**٢٣٤**
٢ ــ الايمـــان بالغيب .	٢٤٠
٣ ــ جهـــاد النفس .	٢٤٣
الفصل الثاني : تربية الاحساس الفني والجمالي .	**٢٥٩**
الفصل الثالث : أثر المسجد في العملية التربوية .	**٢٨٥**
الباب الخامس : في الآداب الاسلامية .	**٢٩٥**
الفصل الأول : (حتمية الدين في العملية التربوية)	**٢٩٧**
١ ــ حتمية الدين .	٣٠٠
٢ ــ التربية النفسية الاسلامية .	٣٠٣
٣ ــ البـــدايات في العمليـة التـــربوية .	٣٢٢
٤ أدب النفس في الاسلام .	٣٢٧
٥ ــ اختيــار المربي الصــالح .	٣٣١
الفصل الثاني : (الآداب الاســلامية)	**٣٣٥**
١ ــ آداب المائدة .	٣٤٠
٢ ــ أدب اللباس .	٣٤٣
٣ ــ في آداب المجلس .	٣٤٦
٤ ــ تكريم اليمــين .	٣٤٧

مراجع الكتـــاب

المؤلف	الكتـــاب
١ ـ ابن القيم الجوزيه .	الـــروح .
٢ ـ ابن القيم الجوزيه :	زاد المعـــاد .
٣ ـ ابن عربى :	رسائل ابن عربى
٤ ـ ابو الأعلى المودودى :	نظرية الاسلام السياسية .
٥ ـ أبو الحسن البصرى :	أدب الدنيا والدين .
٦ ـ أبو بكر الكلاباذى :	التعرف لمذهب أهل التصوف .
٧ ـ أبو بكر بنانى :	مدارج السلوك الى مالـــك الملـــوك .
٨ ـ أبو نعيم الأصفهانى :	حلية الأوليـــاء .
٩ ـ أبو حامد الغزالى :	احياء علوم الدين الجزء الاول . الثانى .
١٠ ـ أبو حامد الغزالى :	احيـــاء علـــوم الدين الجزء الثامن .
١١ ـ أبو حامد الغزالى :	
١٢ ـ أبو حامد الغزالى :	تنبيه المفترين .

المؤلف	الكتاب
١٣ ـ أبو طالب المكى :	قوت القلوب الجزء الاول ـ الجزء الثانى .
١٤ ـ السمرقندى :	تنبيه الغافلين .
١٥ ـ النووى :	رياض الصالحين .
١٦ ـ المحب الطبرى :	الرياض النضرة فى مناقب العشرة ج ٢ .
١٧ ـ اليافعى :	روض الرياحين .
١٨ ـ تيتوس بيركارد :	دور الفنون الجميلة فى التربية الاسلامية (ترجمة د. عثمان محمد عبد الوهاب)
١٩ ـ جلال الدين السيوطى :	الجامع الصغير .
٢٠ ـ جوستاف لوبون :	روح التربية (تعليق د. طه حسين) .
٢١ ـ سيد عثمان :	علم النفس الاجتماعى التربوى .
٢٢ ـ د. فايز محمد على الحاج	نظرية الفعل الشرطى عند الغزالى (بحث مقدم الى ندوة علم النفس والاسلام سنة ١٩٧٩ الرياض) .

الكتـــاب	المؤلف
٢٣ ـ عبد العزيز جاويش :	الاسلام دين الفطرة •
٢٤ ـ عبد القادر الجيلانى :	الغنيـــة •
٢٥ ـ عبد المجيد الشرنوبى :	شرح تائية السلوك الى الملوك •
٢٦ ـ عبد المحسن الحسينى :	المعرفة عند الحكيم الترمذى •
٢٧ ـ مالك بن نبى :	المسلم فى عالم الاقتصاد •
٢٨ ـ محمد الجبالى :	السوق الأوروبية المشتركة •
٢٩ ـ محمد قطب :	منهج التربية الاسلامية •
٣٠ ـ محمد قطب :	منهج الفن الاســلامى •
٣١ ـ د• محمد على أبو ريان :	تــاريخ الفكــر الفلســفى (أفلاطون) •
٣٢ ـ ياقوت الحموى :	معجم البلدان •
٣٣ ـ يوسف كرم :	تاريخ الفلسفة اليونانيــة •

مراجع للمؤلـــف

١ ــ الشريعة والحقيقة ٠
٢ ــ الحكومة الباطنيــة ٠
٣ ــ ألفاظ الصوفية ومعانيها ٠
٤ ــ نحو ثقافة اسلامية ٠
٥ ــ نحو علم نفس اسلامى ٠
٦ ــ نحو منهج علمى اسلامى ٠

تم بحمد الله

طبع بمطبعة التقــدم
٢١ شارع سيزوستريس ــ اسكندرية
تليفون : ٨٠٦٠٥٤

Thanks to
assayyad@maktoob.com